أسامة الشجراوي

# عَبَرتِ ظلّت الذّكرى

رواية

عصير الكتب

إهداء لـ ..

لكل أب وأم اضطروا لشراء

تلفزيون ثاني .. من أجل سبيستون

# عَبَرَت

# ظلّت الذّكرى


انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان: عَبَرتِ ظَلَّت الذِّكرى
- مراجعة: د. نزار وصفي اللبدي
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

- الطبعة الأولى: يوليو / 2023م
- رقم الإيداع: 14390/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-296-6

15 4 2025
مكتبة
t.me/soramnqraa

أسامة الشجراوي

# عَبَرتِ ظلّت الذّكرى

رواية

# إهداء

مكتبة
t.me/soramnqraa

إلى الذين أغرتهم رائحة العنوان ويعرفون إيقاعه الموسيقيّ كما يعرفون أنفسهم.

إلى الذين سيقرؤون هذه الرِّواية على شكل أغنية مُلحَّنة، ومعزوفة أصيلة تُغازل النُّوستالجيا السَّاكنة في أعماقهم، وتأخذ بأيديهم نحو أرض الطُّفولة، على الرَّغم من كلِّ فلسفة نضج مُهيمنة في الوجود!

إلى الذين يحملون عبء ذاكرتهم السبيستونيَّة، وقد أُصيبوا بمتلازمة عصيَّة على الاستيعاب، وصاروا يشعرون بغصَّة غير مفهومة، وقشعريرة متكررة لا تنتهي، وانفصام ليس له علاج، وأزمة في الهوية التي ينتمون إليها، واغتراب فظيع بين الأجيال المختلفة، وسيموتون من فرط الحنين إلى عالم افتراضيٍّ بعيد عن عالمهم، ولكنه ما يزال يسكن دواخلهم!

إلى الجيل الذي تربع عاكفًا على شاشات برامج الكرتون، وبقيت رائحة تلك الذِّكريات عابقة في حنايا وجدانه، لتُذكِّره بأصدق أيَّام عمره وأكثرها حنيَّة على قلبه، تلك الأيَّام التي ظلت أنقى من زبد الأيَّام!

إلى الجيل الذي مرت تلك الأيَّام في خاطره فكرة، ولكنها عبَرتْ وظلَّتْ ذِكراها حاضرة في تفاصيل أيَّامهم، لتواسيهم في كلِّ وقت، وتُساعدهم في كلِّ موقف، وتربت على أكتافهم في كل مشهد، وتقولُ بالنِّيابة عنهم: ما نزال أطفالك يا سبيستون، ما نزال أطفالك الأوفياء، حتى لو صِرنا شباب المستقبل!

«من يحترم طفولته، هو شخص خيِّر يُمكن الوثوق به».

- طارق العربي طرقان

«رائحة إن لم تعلَق بك في طفولتك، فأنت ستفشل في تخيُّلها مهما وصفتها لك الآن، فوحدهم الذين علَقت بِهم تلك الرَّائحة، يستطيعون تمييزها بسهولة مهما مرَّت السَّنوات».

- شهرزاد الخليج

# للتوضيح!

جميع العبارات الموضوعة بين علامات الاقتباس هي من برامج الكرتون وشاراتها الغنائيَّة، وأغلبها من كتابة الأستاذ القدير طارق العربي طرقان، الذي استعرت عنوان هذا العمل من إحدى أغانيه الخالدة.

كما أنَّ مرجعيَّة الشخصيَّات الكرتونيَّة في هذه الرِّواية، جاءت كما جاءت بها الرِّواية السبيستونيَّة المُنقَّحة التي عرفناها في الطُّفولة، لا كما جاءت بكلاسيكيَّات الأدب العالميِّ، وإن تطابقت في مُعظم التَّفاصيل!

# ما قبل الرحلة

عزيزتي سبيستون..

كلَّما كان الزَّمن يسألني عنك، كنت أتنهد حيرانَ ملتاعًا من فرط الشعور، وصرت أكابر وأتهرَّب من الجواب، وأقول بكبرياء مفتعَل: «داخلي شيء خفي، لكني لا أتذكر!».

أما اليوم، فقد أتيت أزيل الغبار عن وجه الحنين وملامح الغياب، بعد أن صارت قصَّة الحُبِّ مُعلنة، والنَّبضات فاضحة، والانتماء واضحًا للعيان!

هربتُ من التَّقويم الزَّمني الذي أعيش تحت أحكامه، وأتيتُ لأضع قلبي الطُّفوليَّ بين أحضانك من جديد، أتيتُ وأنا أهتف بكل عاطفة فيَّاضة مُتدفِّقة: «آه لو تعلمين، كم زاد الاشتياق على مرِّ السِّنين، لرحلة في البال في دنيا الخيال، لعالم يزدان بالألوان والرنين»، لرحلة تشفي غليل ألف شعور من الاغتراب، وألف دهر من الضَّياع!

فعلى ما يبدو أنه «مهما طال الزَّمان وأبعدتنا المسافة، يبقى فينا الحنين خيطًا يلف قلوبنا» ويسحبنا إلى أعماق الزَّمن المفعم بالبساطة والطُّفولة والحب والجمال والمشاعر العطوفة الرَّائعة!

ذات شغف، كنت أردد: «يأتي يوم، يُطوى يوم، يغدو ماضٍ أو خيال»، ولكنني اليوم أخشى أن يصير كلُّ شيء في ضرب الخيال يا سبيستون!

أخشى أن تمرَّ الأيَّام وتبتعد بي الدروب عنك.

ومن أجل أن لا يخامرني هذا الشعور الخانق ذات يوم مؤجَّل، ويكون عيبي حينها أنني لم أسأل في الأمس عنك، أتيت لأخبرك أنني ما زلت وفيًّا لك، ولذكرياتك الرَّائعة الأصيلة، يا من علمتني أن «الخير في الأرض سيبقى محفوظًا للأوفياء».

أتيت لأعترف أنني «لا أزال صغيرًا أنتمي للحنان» رغمًا عن فلسفة الأعمار وأحكام المنطق، وأن ذكرياتك ظلَّت «طيفًا أنقى، من زبد الأيَّام أبقى» رغمًا عن أعراف النِّسيان وتقاليد الغياب، وأن همساتك ما زالت أحلى من ناي يُعزف على مسرح الأيَّام، وأن كلماتك باتت نجواي بشكل يتعسَّرُ شرحه بشكل مُختصر!

أتيتُ بعد أن كبرتُ وصرت من شباب المستقبل، وبعد أن عقدتُ اتفاقًا ضمنيًّا مع الزَّمن، أنَّ هناك رسالة تقع على عاتقي في سبيل الحفاظ على الإرث السبيستونيِّ، ونقله للأجيال المُتعاقبة مهما كان الثمن!

أتيتُ بعد أن نضجت أبجديتي وصار في جعبتي «حكاية أحكيها تموج بالألوان، حكاية أرويها عن عالم فتَّان»، حكاية تُتوِّج انتمائي الوجدانيَّ لعالمك، وعاطفتي العميقة نحوك، حكاية فانتازيَّة استللتُ عنوانها منك، فكان اسمها «عبرتِ ظَلَّت الذِّكرى».

❋ ❋ ❋

# للتنويه!

تدور أحداث هذه الرِّواية في زمن ما، في عالم موازٍ. داخل كوكب يُشكِّكُ البطل في وجوده في هذا العالم. يَلتبسُ الأمر عليه، ويقع في حيرة كبيرة. يظلُّ مترنِّحًا بين الحقيقة والخيال، ولكن الطِّفل الماكث بداخله يحاول إقناعه بحقيقته.

# 1

في تمام ساعة الذِّكرى على توقيت الحنين، رنَّ منبِّه الطُّفولة، فاستفقت من غيبوبة التيه والنِّسيان والزَّمن الغريب، ووجدت نفسي بشكل فجائيٍّ على متن مركبة فضائية أسطوريَّة خارقة المواصفات، لم أركب مثلها إلا في أحلامي المجنونة عصيَّة المنال، وصعبة التحقيق، ومُحالة الحدوث!

أسندت رأسي على نافذة بلورية عجيبة، وطالعت من خلالها الفضاء الواسع بكل ما أوتيت من ذهول، دون أن يكون لدي خيار آخر، فلم يكن بالإمكان حينها سوى الاستسلام لما تريني إياه نافذة المركبة بحدقات مُتَّسعة وأطراف منتفضة!

ثمَّة ظلامٌ دامس رهيب يلبس الكون ويُسربل الأثير، ولكن ثمَّة أضواء عجيبة تشعُّ وتبرقُ بين الفينة والأخرى، وثمَّة أجسام لامعة تتوهَّج وتنبعث من مسافات متباينة، تتوارى واحدًا تلو الآخر بطريقة مذهلة لا تُصدَّق.

كان مؤشر السُّرعة في تلك اللحظة يُشير إلى أن المركبة تنطلق في سُرعة الضَّوء، إلا أنني لم أشعر قط باهتياج مُحرِّكاتها واندياح جسدها.

على العكس تمامًا، هدوء رهيب يسود الكون، وثمَّة مواكب من النُّجوم المضيئة تحتشد حول المركبة، فتمتزج مع أطياف الكواكب الملوَّنة التي صارت تظهر بشكل تتابعي، لترسم مشهدًا طاغيًا في روعته، وحانيًا في رقَّته، وغامضًا في كلِّ تفاصيله!

خفق قلبي وارتعش جسدي، وسَرَت قشعريرة من النُّوستالجيا في كلِّ زاوية من تلافيف الذَّاكرة الأولى..

وصارت العديد من المشاهد الكرتونيَّة تمرُّ بسرعة كبيرة، كشريط سينمائيٍّ تُعرَضُ أحداثه على صفحات المخيلة، فصار المشهد مألوفًا لدى الطِّفل الذي يسكن أعماقي.

عنَّت ببالي العديد من الصُّور المُعتَّقة في براويز الزَّمان، فناغيتُ الطِّفل حينها وداعبت وجنتيه، فتضاحَكَ لي وأخذ بتلابيبي يُقرِّبني إليه كأنَّما يريدني أن أحتضنه بأي شكل، فعانقتهُ دون تردد، ثم ما لبث أن قذف بي إلى عالم يزخرُ بقصص العجائب والأساطير الخالدة، عالم مُترعٌ بالألوان والجنيَّات المسحورة والأماكن الغرائبيَّة، هناك حيث الكواكب السبيستونيَّة التي كان ينتقلُ بينها بجذل طفوليٍّ بمُنتهى الفرح والنَّقاوة والشَّقاوة والبساطة والشَّغف والصَّفاء!

في تلك اللحظة، خطفتني نشوة ضوئيَّة عجيبة، وجعلتني أخلع ثياب المنطق وأميط اللثام عن وجه الخيال، لأغوص سابحًا في المنظر بكل ما أوتيت من لهفة وحنين واشتياق، وأن أغرق في رحاب المشهد دون أن أطلب النَّجاة من أي زمن تقويميٍّ لا أنتمي إليه، فراحت الذِّكريات تُبلِّلني وتَغمرُ أطراف روحي اليابسة المُتعطِّشة، ومضيتُ من خلالها أستحضر تلك الكواكب وأرسمها من جديد، كطفلٍ يعكفُ بأقلامه الخشبيَّة على كُراسة الرَّسم، ولا يتوانى عن تحريك أقدامه من خلف جسده المتمدِّد على بطنه بمُنتهى الوداعة.

بلهفة عارمة توَّاقة كنت أنتظر افتتاح القناة الصَّباحيَّ، أقف على أحد معابر الزَّمن السِّحريَّة، أتحيَّن الفرصة المناسبة للدخول إلى ذلك العالم الذي تسكنه الرُّسوم المتحركة، والقصص الأسطوريَّة، والموسيقى الرَّائعة، والدُّمى المحشوَّة بالفرح والحب والأطياف الملونة، بالضَّحك والأمان والسَّلام والنِّهايات السَّعيدة.

وككلِّ معبر موجود على خارطة الحياة، ثمَّة تأشيرة دخول عليَّ امتلاكها وتقديمها، حتى أستطيع الدخول والتَّجوُّل في دهاليز تلك الكواكب الملوَّنة وعوالمها البديعة..

وقتذاك..

كانت التَّأشيرة ممهورةً بكلماتٍ مُعطَّرةٍ تتلى مع إشراقة كلِّ صباح، كانت تُعانق خيوط الشمس، وتُسبِّحُ باسم خالقها العظيم، وتهمسُ في مسامع الكون بكل نَداوة وهَداوة وطمأنينة:

«في كلِّ حركة بسم الله.. تعمُّ البركة بإذن الله، أبدأ يومي بذكر الله.. نعم الله كثيرة، إن تُحصها لن تُحصى، هو أحسن تدبيرًا، فكيف ذكره ننسى! باسمه هو خير الأسماء، أبدأ يومي بذكر الله، باسمه أبدأ كلَّ دعاء.. بسم الله».

حينها فحسب، تفتح البوابة على مِصراعيها، ونحطُّ في ذلك العالم الافتراضيِّ بشكل استثنائيٍّ مُبرمج، ويُدَقُّ ناقوس بداية يوم كرتونيٍّ حافل بالضَّحك والأحداث المشوِّقة الرَّائعة، والمشاهد الإبداعيَّة المُثيرة، لنذهب في جولة لا تُنسى بين كواكب المجموعة السبيستونيَّة!

«نتنقَّلُ بين كواكبها نمضي معها بسرور، ونُسافر فوق مراكبها ونحلِّق مثل طيور» تلك الكواكب العشرة التي كانت تستقبل لهفة قلوبنا النَّقيَّة، وتستوعب تضاريس مخيلتنا الشَّاسعة، وتحتضن قاماتنا الحالمة، وتعانقنا بكل دفءٍ ومودةٍ وتِرحاب، وهي تهتفُ بصوت رنَّان مُفعم بالبشاشة والمرح:

*أصحابي تعالـوا.. في رحلة جميلة مع الأيَّام*
*تعالـوا.. في كلِّ يـوم ينقضـي لنا اهتمـــام.*

ساعتئذ، لم يكن بمقدورنا الصُّمود أمام ذلك الإغواء، فنركض بسرعة نحو عالم من الصُّور، نقرأ فيه الحكايات التي تغوصُ في بحر الخيال، وننتقي منه الدُّرر، ونستجيب للنِّداء بتلقائيَّة الطِّفل الذي يريد مُناغاة الحياة على طريقته الخاصَّة.

الطِّفل الذي تعلَّم الكثير من الأمور في تلك الكواكب، ولكن لم يدرك أنه تعلَّمها وانعجَنَتْ في تفاصيل شخصيته ومبادئه إلا عندما كبر ومضى يسيرُ في دروب العمر وساحات التَّجربة ومتاهات الإدراك، فصارت حينها المعاني أعمق تأثيرًا، وأكثر وضوحًا، وأعظم قيمة مما كان يراها ويشعر بها من قبل.

وقتذاك، تعلَّمنا إيقاع الأرقام وأبجديَّة الكلمات في كوكب «أبجد»، ومضينا نهتفُ من الأعماق بصوتٍ مُفعم بالأمل والتَّوق للمستقبل الواعد: «حروفي وأرقامي، دفاتري وأقلامي، رسومي وأنغامي، تتلهف للغد».

وكان لزامًا علينا أن نُدرك مع مرور الأيَّام معنى الحكمة التي تقول: «من البداية من جَدَّ وجَد»، وأن لهفة البدايات التي كانت تغمرُ أرواحنا الحالمة، لم تستطع الانتصار على قسوة النِّهايات الفاجعة التي لم نتوقعها، لهذا صارت كلُّ البدايات مَشبوهة لدينا، وفي موضع اتهام دائم، نُشكِّكُ فيها مهما ابتسمت وفتحت أذرعها، ومهما أقسمت إنَّها لن تخذلنا...

أما في كوكب الأبطال الكبار «بون بون»، فقد وجدنا أطفالًا توَّاقين للحياة مثلنا. كانوا يركضون ويهتفون بكل حرارة وشغف، فمضينا نُردِّدُ معهم دون وعي كبير بما نقول: «مهما كانت أيدينا صغيرة، أحلامنا تُداعب النُّجوم، نتعلَّم دروسًا عظيمة، ذكراها أبدًا تدوم!».

حاولنا من خلال تلك الدروس أن نكبر بهدوء ونكتشف ألوان الحياة بأنفسنا، كما كانت تحثُّنا أغنية ذلك الكوكب، ولكن، مع مرور الأيَّام، وفي غفلة عين، اتَّسعت المسافة بيننا وبين أحلامنا بطريقة غريبة، وصار ألف شخص يريد أن يتطفَّل على خصوصية أعمارنا ويعلِّمنا كيف نعيش هذه الحياة، ويوهِمُنا أن أحلامنا لن تُداعب أي نجوم!

وفي مكان آخر..

وما إن شددنا الرِّحال إلى كوكب «علوم»، حتى جلسنا هناك في مقاعد مُختبراته راغبين في التَّطور والاكتشاف، ومُتلهِّفين لمعرفة الجيناتِ التي تحملها أفكارنا الاستثنائيَّة، ومُتعطِّشين لخوض التَّجارب التي لم نجربها من قبل!

ومع مرور الأيَّام..

أدركنا أن لكل إنسان تجربته الخاصة التي لا تشبه تجربة أي شخص حوله، ومن الظُّلم إسقاط أي قصَّة على قصَّته، فمهما توافقت تجاربنا مع تجارب الآخرين في ظاهرها، تظلُّ المسألة مُتعلقة باختلاف المشاعر، ونبضات الأفئدة، والتَّوليفة النَّفسيَّة، ومنسوب الوجع المتراكم في طيَّات الصُّدور!

أما في قاعات السِّينما داخل كوكب «أفلام»، فقد عشنا الطُّقوس المصغَّرة هناك بكل امتياز؛ تناولنا الشيبس بدلًا من الفُشار، واكتفينا بدفء الوسادة واللحاف أمام الشاشة عوضًا عن المقاعد السِّينمائيَّة الوثيرة، وأطلقنا العنان لخيالنا الدراميِّ، محاولين الاسترخاء والاستمتاع بكلِّ ما يُعرض على شاشة المشهد!

مع مرور الوقت..

لم يكن من الصَّعب علينا أن نكتشف أن عدسة قلوبنا خير عدسة نرى بها المشهد، ولا وقت لرؤية أنفسنا من خلال عدسات الآخرين وسيناريوهاتهم المتوقَّعة عنَّا، أو الاكتراث بأي صورة عفويَّة يلتقطونها لنا!

اكتشفنا أنه ما أحوجنا إلى الدراما التي تُشبهنا وتُحاكي ما يحدث داخل صدورنا، وتستطيعُ أن تروي قصص نبضاتنا المهدورة، وأوجاعنا الغائرة، وقضايانا العظيمة، وتتحدث بالنِّيابة عن الإنسان المُتعب بداخلنا!

وفي غمار العروض الحاصلة في تلك القاعة السِّينمائيَّة، وبينما كانت الحواس مشحوذة والأفواه فاغرة، وبشكل فجائيٍّ، ودون توطئة أو مقدِّمات، أصغينا من هُناك لأصوات «جاءت تتلوها أصوات، جاءت من كوكب «تاريخ» حملت للحاضر عبرًا وحكايات، حملت أحداثًا وتواريخ..».

ساعتئذ..

ابتسمنا ابتسامة ممزوجة بأصالة التَّاريخ الذي صنعَ حضارتنا العربيَّة، وعبرنا من خلال سراديب حكايات الزَّمن العريق، وتنقَّلنا بين العديد من التَّواريخ والقصص التي سُطِّرت في سجلات الزَّمان بحروفٍ من ذهب!

لنكتشف مع مرور السَّنوات أن تاريخ مولدنا هو تاريخ مُتجدِّد على الدوام، ولا علاقة له بالرقم الموجود على الهويَّة الشخصيَّة، ولا بأعياد الميلاد التي نُقيمها لأنفسنا كلَّ عام، هو تاريخ مرهون بضحكة الطِّفل الموجود في أعماقنا، وبالشُّموع التي نَستطيعُ إشعالها على كعكة أيَّامنا المُعتمة، وقُدرتنا على مُعانقة الفرح على الرغم من قسوة السَّنوات.

تملَّكتنا الحماسة بعد هذا، وامتلأت صدورنا بالحيوية والعنفوان، فاعتلينا البساط السِّحريَّ، وامتطينا صَهوة الخيال والتَّشويق، من أجل الوصول إلى كوكب «مغامرات»!

عشنا هناك ما كانت تقوله الأغنيَّة بما تحملهُ الكلمة من معنى، عِشنا شعور الجسارة وتحدي المُحال، عِشنا شعور الإثارة والخيال..

واكتشفنا مع مرور الوقت أن الإنسان نتاج مغامراته التي لم ينصحه أحد بخوضها، ولم يراهن كائن على نجاحها، وأن المغامرة التي جَبُنَتْ قلوبنا عن خوضها في بداية المشوار، هي المغامرة التي سنندم عليها في نهاية المطاف!

بعد هذه التَّنقُّلات، ارتدينا ثياب الحذر والرَّهبة والإقدام، وتوجَّهنا إلى كوكب الإثارةِ والغُموض، وقد أدركنا أنه لا مكان لأصحاب القلوب الضَّعيفة فيه!

تسلَّقنا البنايات الشَّاهقة، وزَحفنا في الأزقَّة المُظلمة، واسْتَللنا السُّيوف اللامعة، وامْتَشقنا الأسلحة الغريبة، ومضينا مدفوعين بقلب ينبض بحسٍّ المسؤولية، وبكل إنسانيَّة وضمير ساهر أخذنا نقول: «أسرار، ألغاز، معاني، حياتنا رهن الثَّواني، نُدافع عن الأبرياء، بسيفِ الحقِّ في كوكب أكشن».

مع تلاحق الأحداث وتراكمها في صدورنا، اكتشفنا أن حياتنا «أكشن» بطبيعتها، وأن السِّيناريو الموجود فيها مُتخم بالتَّناقضات والغموض والرُّعب والضَّياع!

اشتبهت الكثير من الأمور علينا، وتعقَّدت طَلاسِمُ الحياة أمام عيون قلوبنا. لم يعد لدينا القدرة على استيعاب الأحداث، ولم يعد بوسعنا تحمُّل جرعاتٍ إضافية من الألم!

نشعرُ أن الموت يُحدِّق إلينا من عين بُندقيَّة مجهولة، وأن أحدهم سيضغط على الزِّناد في أي لحظة، ونخشى بعد كلِّ هذا النِّضال والحذر والصُّمود أن نموت بنيران صديقة، أو رصاصة قاتلة انطلقت من فوَّهة مُسدسنا بشكل خاطئ!

وفي لحظة ما، تدفَّقت الدِّماء في عروقنا على نحو حماسيٍّ عجيب، فعقدنا رباط أحذيتنا الرِّياضية، وشمَّرنا عن سواعد المجد والإرادة والانتصار، وركضنا نحو كوكب «رياضة»!

بكل شغف وطموح رَكلنا الكُرة هناك على وقع أهازيج «آولي ليه.. أولي ليه»، وقد تَعَلَّمنا مع الكابتن ماجد أننا «لن نُحرز أهدافًا حُلوة.. إلا بالتَّصميم»، واكتشفنا مع العبقريِّ حسَّان أن طريقنا صعب طويل، «نفوزُ مرة، ونخفقُ مرة، وليس هنالك مُستحيل!».

وأدركنا مع مرور الأيَّام أن ثمَّة بطولات ثمينة رائعة أسمى من تلك البطولات التي يتبارى عليها الجميع، وأن التَّتويج الحقيقي الذي يستحق الاحتفاء، هو التَّتويج الذي يحصلُ على منصَّات قلوبنا، لا على منصَّات أفكارهم التي لا تُشبهنا، ولا تُناسب نبضات صدورنا.

التقطتُ أنفاسي اللاهثة بعد هذا وجلست في إحدى زوايا الملعب. مسحتُ قطرات العرق عن جبيني، ثم ما لبثت أن بحثت عن مكان أستردُّ فيه عافيتي وطاقتي، فانتقلتُ ومضيتُ أتلصص على أطراف أصابعي إلى حدائق الورد في كوكب «زُمرُّدة»!

كنت أسترق النَّظر خِلسة لما يحدثُ في جنبات هذا الكوكب الورديِّ!

وما إن تَنتَبه ساكناته لوجودي، حتى يُسارعن إلى تذكيري أنه كوكب لا يستضيفُ إلا من يُكرم ساكناته، ويُقدرهنَّ ويَضعهنَّ في المكانة التي تليق بهنَّ، ويؤمن في قرارة نفسه أن الحياة لا طعم لها دون إحساس المرأة وذائقتها، ولا قيمة لأبجديَّة القلب دون تاء التَّأنيث وجاذبيتها!

فهززتُ رأسي وحاولت الالتزام بكل هذا، وإذا ما استكنت لديهنَّ وسألتهنَّ عن أحوالهنَّ، قُلن بنبرة مُفعمة بالرِّقة والشُّموخ في الوقت ذاته: «نُجابِهُ الظَّلام بورود السَّلام، لجعلِ كلِّ بيتٍ يحيا بوئام».

فابتسمتُ حينها، وأدركتُ مع الوقت أن داخل كلِّ أنثى هناك معركة ضارية طويلة، معركة لا يشعر بها أقرب النَّاس إليها، ومن هنا تكمنُ معاناتها التي لن يفهمها أحد، وشراستها ورقَّتها في الوقت ذاته، بشكل لن يستوعبه أحد.

انحنيتُ احترامًا لكفاحهنَّ الأنثويِّ ولم أبارح المكان بسرعة، إنَّما انزويت في مكان قريب، ومضيتُ أطالع ما يقمنَ به من كثب، مغمورًا برائحة عِطرهنَّ الفاتن وبريق عيونهنَّ السَّاحر.

فإذا طال بي المقام، أخذتهنَّ العزة بالجمال، فسارعنَ إلى توبيخي قائلات بعفَّة وكبرياء إن هذا الكوكب هو «كوكب للبنات فقط»، فأضحكُ حينها بداخلي، وألملم كرامتي لأغادر المكان بمُنتهى اللباقة والاحترام!

عقب تلك البهدلة الورديَّة المُعتادة، وبعد كلِّ التَّنقُّلات بين الكواكب المتنوِّعة السَّالفة، حطَّت بي الرِّحال في أحضان الكوكب الضَّاحك.

ألفيتُ أهل هذا الكوكب يرتدون أزياء ملونة ومزركشة، ويعتمرون قبعات تشبه قبعات المهرِّجين، ولا يتوقفون عن عمل الحركات البهلوانيَّة المشاكِسة، والتَّشقلب من فوق حِبال المنطق والعقلانيَّة.

كانوا يُرحِّبون بكل من يزورهم، دون أن يسألوا عن هُويته أو يُمطروه بالنَّصائح المُستهلكة، يُعاملونه بكل دفء ويمسحون الحزن عن قلبه. يحاولون أن يُنسوه همومه لبُرهة من الوقت، فيأخذون بيده عنوة عن كلِّ بؤسٍ في صدره، وكلِّ تردُّدٍ في خاطره، ويركضون هاتفين بكل جذل ومرح:

«مَن منَّا لا يهوى أحلى الدعابات؟! أو لا يُحب الحِيَل والمطاردات؟! أهلًا بالبسمة، أهلًا بالضحكة، في كوميديا، كوكب المرح، كوميديا، كوكب المفاجآت!».

ضحكتُ حينها من أعماق قلبي، ضحكتُ ضحكاتٍ ما زلتُ أقتات عليها، وأعيش على وقع صداها إلى هذه اللحظة الرَّاهنة التي أعيشها!

ما زلت أسمع أصواتًا ضاحكة تَشُدُّني إلى هناك، أصواتًا تحاول التَّحايل على الحزن والتَّعاسة والاكتئاب، وتهتفُ بكل ما أوتِيتْ من مرحٍ وجُنون: «تا تا، تعالوا إلينا، فإن لدينا، الضحك والأفراح».

آه كم تمنيتُ لو كان بإمكاني أن أسكن هذا الكوكب للأبد، أو أن أستطيع اللجوء إليه كلَّما تكدرت بي الليالي، واحلَولَكتْ في عينيَّ الأيَّام.. أن أشاكس كما يحلو لي دون أن يحاسبني أحد على شيء، وأن أضحك ضحكات عارمة، دون سببٍ وجيهٍ واحد يُبرِّر هذه الضحكات!

فنحنُ لم نعرف قيمة الضحكة الطُّفوليَّة التي كانت تنبعث من أعماقنا، إلا بعد أن أوغلنا في رحلة النُّضج، وذرفنا ألف دمعة في دروب الوعي والإدراك.

بعد كلِّ هذه الخيالات التي خامرت ذاكرتي الطُّفوليَّة العتيقة، تنهَّدُت بعُمقِ الذِّكرى. نفضتُ رأسي، وقد أخذت نفسًا عميقًا وأنا أطالع الكون من حولي، ووعيتُ أنني تمكنتُ من استحضار تلك الكواكب وأنا ما أزال جالسًا في المركبة في مكاني.

استحضرتها وكل ما في داخلي يهتفُ مدهوشًا مَبهورًا؛ من كان يصدق أنني سأرى هذه الخيالات تتجسَّدُ على شكل واقع ملموس؟! من كان يصدِّق أنني سأتمكن من زيارة أرض الرُّسوم المتحرِّكة ذات يوم؟!

إلى هذه اللحظة، أكاد لا أستوعب شيئًا مما يحدث معي، ولا أعرف كيف صرتُ على متنِ رحلةٍ مُسافرة عبر الزَّمن، بهذا الشكل الأسطوريِّ العجيب!

إن كانت ورطة إلكترونيَّة قد ألقت بأبطال الدِّيجتال في غياهب العالم الرَّقميِّ، وإن كان حُلمًا غريبًا قد اقتاد أليس لاقتحام بلاد العجائب، فأنا على ما يبدو قادتني ذاكرتي الطُّفوليَّة الممزوجة بنوستالجيا الزَّمن الجميل، بعد أن اشترت لي تَذكرةً سبيستونيَّة للسَّفر إلى بلاد الرُّسوم المتحرِّكة وعوالمها البديعة!

هذا، وفي الأسبوع الماضي، وفي مثل هذا اليوم على وجه التَّحديد، تراكَمت الأعباء والهموم في حُجرات صدري، وأحسستُ لوهلة بأن السَّاعة قد توقفت عقاربها عن السَّير، وتوقَّفت حركة الهواء التي كانت تنبعث من النَّافذة، وكأنَّ الأرض هي الأخرى قد توقفتْ عن الدَّوران.

أحسستُ حينها أنني أنتمي إلى زمن آخر غير الزَّمن الذي أعيش في قلب تعقيداته وصُعوبة معادلاته، وأنني أنتمي إلى كوكب آخر أحتاج إلى الهروب إليه لكي أتخلص من أشباح الخوف والوحدة والاغتراب التي تسكن أيَّام عمري!

هربتُ من التقويم الزمنيِّ الذي أعيش تحت أحكامه، تجاهلتُ قسوة الحياة وسواد الأيام، وقررتُ الاختباء في أحضان ذكريات الطفولة وأغاني سبيستون الحنونة؛ فتحتُ قائمة التَّشغيل التِّلقائيِّ لليوتيوب، سلَّمتُ نفسي لها دون وعي كبير، وتركتُ مسامعي تتجوَّل من لحنِ أغنيةٍ إلى أخرى.

بعد مرور العديد من الدقائق الموسيقيَّة الكرتونيَّة القديمة، وبينما كنتُ ساهم النَّظر، حائر الوجدان، خفق الحنين في صدري، وانسابت مشاعر عصيَّة داخل أركان قلبي، حين وصلتُ إلى أغنية قديمة منسيَّة، أغنية تقول بصوت رقيق شجيٍّ:

«كُلَّما سَرَح الخيال، تلوحُ لي أيَّامنا والماضي، هل يُتاح لنا المجال لكي نسترجع أحلامنا من جديد؟! تُرى هل تَعود، وتعيدُنا كما كنَّا، وبلا حدود، يتحقَّقُ ما نريد؟!».

حينها جاشت الخواطر في صدري، وسَرَتْ في جَسدي قَشعريرةٌ من عبقِ الماضي، وخفق قلبي على أوتار الذِّكريات الدَّافئة خفقانًا لم أشعر به من قبل!

وبينما كانت الموسيقى تَتَسلسَلُ رقَّة وجوى، وتصدحُ في أرجاء الغرفة، جلست إلى طاولة مكتبي بشكل لا إرادي، أسندتُ رأسي المُثقل عليها، ثم ما لبثت أن اسْتَللتُ قلمًا من قرطاسيتي، وشرعتُ بفتح دفتر مذكراتي الذي لم أرجع إليه منذ زمن بعيد.

مسحتُ ما تراكم عليه من غبار، كأنما أمسح الغبار عن كلماتي التي لم تُكتب وظلَّت تسكُنني على مدى الأيَّام.

وضعتُ رأس القلم في منتصف إحدى الصَّفحات التي اختارت نفسها قبل أن أختارها.

تدفَّقت المشاعر والخواطر من تِلقاء نفسها، وكتبتُ في لحظة حنين فيَّاض واحتياج عميق:

يا ليت باستطاعتهم أن يخترعوا آلة زمن تُعيدنا إلى أرض الطُّفولة! ماذا لو كان العالم السبيستونيُّ عالمًا حقيقيًّا نستطيعُ السَّفر إليه متى ما أردنا؟!

في تلك الليلة الدراميَّة، أغمضتُ عيني على استحالة تحقيق أمنية واحدة من أمنياتي الخيالية، إنما تمنيت أن يهدأ ضجري وأتخلَّص من لعنة الاكتئاب بأي وسيلة كانت.

غطتُ في نوم عميق لا أستطيع إحصاء ساعاته على وجه الدقة، ربَّما بضعة أيَّام، وربَّما ساعة، وربَّما لحظة واحدة مرت كلمح البصر! على الأغلب، لقد فقدت الشعور بالوقت من فرط الشعور بالهذيان، ولكن ما إن استفقتُ

من نومي، وفتحتُ أجفاني متثاقلًا، حتى عثرتُ على رسالة موضوعة على طاولة مكتبي بشكل غريب.

كانت الرِّسالة مغلفة بظرف رسائل قديم.

تناولتها وقد كانت مشاعري في تلك اللحظة دون ملامح. وفجأة، خفق قلبي، ودُهشت أيما دهشة حين قرأتُ عنوان الرِّسالة، إذ كان يقول بشكل يُثير العجب والفضول:

«دعوة خاصَّة لزيارة أرض الرُّسوم المتحركة والإنمي».

بسرعة جنونيَّة، قَلبتُ الظَّرف من الخلف لأتبين حقيقة الأمر، فوجدتُ الدعوة مدموغة بختم قناة سبيستون على نحو مُتقنٍ رائع!

ابتلعت ريقي وقررت أن لا آخذ الأمر على محمل الجدِّ.

ظننتُ للوهلة الأولى أن الأمر لا يتعدَّى أن يكون مزحة من أحد الأصدقاء الذين يعرفون ولعي الشَّديد بالبرامج الكرتونيَّة، وحفظي لشاراتها وتفاصيل مشاهدها وأفكاري العاطفيَّة نحوها، وارتباطي العميق بثنائية الطُّفولة المنشودة والدَّهشة المفقودة!

ولكن ما إن فتحتُ الرِّسالة وشرعتُ بقراءتها حتى تعاظمت حيرتي، وصار شيء غرائبيٌّ يلوحُ في الأفق، شيء يشبه أطياف الرِّحلات الخياليَّة والحكايات الأسطوريَّة، وقصص السَّفر العابر للأزمان، كتلك القصص التي سمعنا عنها في حكايات ما قبل النَّوم!

كان فحوى الرِّسالة أشدَّ غرابة من عنوانها، حيث كانت الرِّسالة تشير إلى موعد وصول مركبة فضائية ستنقلني في منتصف إحدى الليالي من حديقة منزلي، لتأخذ بي في رحلة إلى كوكب الزهرة البعيد، الكوكب الوحيد الذي يسير عكس عقارب السَّاعة بالنِّسبة إلى المجموعة الشَّمسيَّة، وهو ذاته اسم المركز الذي كانت تُبَثُّ أغلب البرامج الكرتونيَّة من خلاله!

هناك، وما إن تهبط المركبة بي حتى أجد نفسي في أرض الرُّسوم المتحركة، ويتعين عليَّ حينها أن أتقصَّى عوالمها، وأستكشف ما حلَّ بساكنيها، وما الذي حدث في القصص التي عرفناها في شاشة الطُّفولة بعد مرور كلِّ هذه السَّنوات!

وبعد تمكُّني من عبور المحطات المتنوِّعة التي سأصادفها في الرحلة، وفي المكان الختاميِّ، سأُعيَّن سفيرًا من سفراء الطُّفولة، وسأعود إلى كوكب الأرض مُحملًا بالكثير من الذِّكريات الرَّائعة والأحاسيس البديعة، والأفكار العميقة الاستثنائيَّة التي يتمنَّى أن يحظى بها أي شخص مَسكُونٍ بالحنين المُفرط لذكريات الطُّفولة وشاشة الكرتون.

في ختام الرِّسالة، ومن أجل أن لا يدعوا لي مجالًا للتردد والحيرة على ما يبدو، تركوا لي عبارة موسيقيَّة سبيستونيَّة تقول بمنتهى الإغراء:

*«لا تقُلْ لن أستطيع.. لا تقلْ هذا مُحال*
*انطلق قبل الجميع.. لوِّن الدُّنيا تعـال».*

ظللتُ خافق القلب ذاهل اللُّبِّ، أطالع كلمات الرِّسالة غير مصدق لأي حرف كُتب فيها!

ظننت لوهلة أنني فقدتُ عقلي من فرط إحساسي بالانتماء إلى ذلك العالم الافتراضي، وأنني غارق في رحاب حلم سأستيقظ منه في أي لحظة من اللحظات.

ولكن، وعلى الرغم من الحالة الضَّبابية التي تحيط بالدَّعوة وتسود المشهد الفانتازيَّ، وبعيدًا عن إمكانية أن تتحقق هذه الرِّحلة الزَّمنيَّة بشكل فعليٍّ على أرض الواقع، فإنه كان من دواعي الحنين المعتَّقِ في صدري أن ألبيَها دون تردد.

أن ألبيَها كجندي تَلقَّى برقيةً لكي يعود إلى وطنه بعد أعوام طويلة من النِّضال والشَّتات والمنفى، وكأنَّما لسان حاله يهتفُ ويقول:

*«أرضنا يا جوهرة في السَّماء*
*يا أمنا، نادينا وسنلبي النِّداء».*

وهكذا..

صرت في لحظة واحدة على أهبة سفر، أعدُّ الدقائق واحدة تلو الأخرى، وأتحرَّى اللحظة التي تحطُّ فيها المركبة الفضائيَّة في حديقة المنزل، لأمضي بعدها «عاليًا أطير في الفضاء، باحثًا عن حُلم سعيد!».

عن حلم تعتَّق في ذاكرتي واختمر بشكل عجيب، وعانق مخيلتي بشكل هستيريٍّ، ولم أتوقع البتَّة أن يُرتِّبه القدرُ لي في يوم من الأيَّام.

في الحقيقة التي لا مناص منها ولا نرجسية فيها، ثمَّة شعور عميق بداخلي يُشفق على الأجيال التي لم تعرف معنى الطُّفولة في واحات الرُّسوم المتحركة.

لا أعرف كيف كانت طفولة من لم يُشاهد سبيستون، ولم ينهل من اللغة التي كانت تُحلِّق في أجنحتها، والمعاني الرَّاقية التي كانت تُنادي من أجلها، أشعر أن طفولته ستظلُّ ناقصة لأنه لم يعرف معنى السَّاعات الكرتونيَّة التي كُنَّا نَقضيها أمام شاشة التِّلفاز بكلِ مرحٍ وشغفٍ وانتظار لحلقات برامجنا المفضَّلة.

أشعر أنني شخصٌ محظوظ لأنني كنت من ضمن الأجيال التي ترعرعتْ أمام شاشة سبيستون، وتربَّتْ في ظلال برامجها وأجوائها وشاراتها الغنائية، تلك الشَّارات المُفعمة بالكلمات الفصيحة والألحان الموسيقيَّة الدافئة، التي كان ينسُجها ويُدَوزِنُ أوتارها صاحبُ الصَّوت الرَّخيم «طارق العربي طرقان»، وتُزيِّنُها صاحبة الحنجرة الذَّهبيَّة «رشا رزق»، والكثير من الأسماء الرَّائعة التي شكلت جوقة غناء فريدة على مسارح الطُّفولة آنذاك!

وعلى ضوء هذه الحالة، تَبلورتْ بعض المفاهيم من تلقاء نفسها، وصار التَّعريف عنِّي في الهويَّة الافتراضيَة يقول:

هو شخص لديه قلب سبيستونيٌّ فريد، يحفظ شارات الكرتون بطريقة عجيبة. كلَّما بدأ لحن شارة، تملَّكته الحماسة وراح يُردِّد الكلمات معها ويعزفها بشكل تلقائي في داخله، يعزفها كطفل حالم يتهجَّى الحروف ولا يُريد للمقطوعة أن تنتهي!

ولا ريب في أن هذا التَّعريف لا ينطبق عليَّ وحدي، بل يشمل كلَّ الذين ينتمون إلى الطبقة السبيستونيَّة بشكل حقيقيٍّ لا يُغيِّره الزَّمن ولا تُبدِّله الظُّروف.

فنحن الجيل السبيستونيَّ متشابهون، طفولتنا مُتشابهة في روعتها، همومنا مُتشابهة في نزقها، مشاعرنا مُتشابهة في جنونها، قلوبنا مُتشابهة في نبضاتها، أحلامنا مُتشابهة في عظمتها، قِصصُنا مُتشابهة في خيباتها، ذائقتنا الموسيقيَّة مُتشابهة في شجنها، تناقضاتنا مُتشابهة في سذاجتها، مَصائِرنا مُتشابهة في ضبابيتها، حتى عُقدنا النَّفسيَّة مُتشابهة في غرابتها، وكأنَّ هناك صلة قرابةٍ من نوعٍ استثنائيٍّ بين من يحملون زُمرة الدَّم السبيستونيِّ في عروقهم!

تربطنا الشَّارات والمشاهد الكرتونيَّة بطريقة عجيبة تبدو سريالية للكثيرين، نشعرُ بالهوس ذاته، والجُنون ذاته، والانفصام ذاته، نحسُّ بالضَّياع الزَّمنيِّ والتِّيه الشعوريِّ ذاتهما، ونحسُّ بالقشعريرة ذاتها التي تَعترينا نحو الزَّمن الجميل، ومُتَّهمون بالاتِّهامات ذاتها من قِبل المجتمع، ويُنظرُ إلينا بالنَّظرة ذاتها التي تُقلِّلُ من شأن الطِّفل الماكثِ في أعماقنا.

وربَّما ما يزيد المشهد تعقيدًا، هو أن الأمر ليس بأيدينا، فكُلما شعرنا بأننا كبرنا ويجب علينا أن نتصرَّف بعقلانيَّة وواقعيَّة، وأن نُرجِّح لغة المنطق على لغة المناغاة، وثوب الحكمة على روح الولدنة، غَمَزَتنا الطُّفولةُ وراحت تقول لكل واحد فينا بِمُنتهى الغنج والإغواء: «اتبعني تعال، يَحملك الموج بلا تعبٍ، فكفاك دلال».

فنُسلِّم لها حالنا دون أي مقاومة، ونرتمي في أحضانها دون أن نملك رفاهية الاختيار، فنعود إلى الفصل الأول من الحكاية بطريقة رائعة ومُعقَّدةٍ في الوقت ذاته!

ونخشى ما نخشاه اليوم أننا كبرنا بالفعل ولم نعد أطفالًا، وصار علينا العديد من الالتزامات الكبيرة والمسؤوليَّات المعقدة، ومع ذلك، وبشكل غير مفهوم، ما زلنا ننتظر أن نصير شباب المستقبل!

في غمار هذه المشاعر الجيَّاشة التي كانت تمور في خاطري، كُنَّا قد مررنا بالعديد من النُّجوم والشُّهب والنَّيازك على نحو خاطف، وتَمَكَّنَّا من اجتياز أجسام هُلاميَّة تُعدُّ ولا تُحصى.

أخذتُ بدوري تارة أطالع النَّافذة البلوريَّة، وتارة أخرى أراقب الخرائط الإلكترونيَّة التي كانت تتغير وتلاحقُ سير التَّغيرات، لتُسجِّل الإحداثيات وتُحلِّل الأشعة الكونيَّة.

مضيتُ أواصلُ التَّبحُّر في طيَّات الكون الفسيح الممتد، وقد كنت أتشوَّق للحظة التي تهبط فيها المركبة على تلك الأرض الافتراضيَّة.

بعد مرور العديد من الدقائق، وفجأة، وفي لحظة واحدة ودون مقدمات، أطلق جهاز الرَّادار صوتَ صفيرٍ حادٍّ.

ركضتُ ببصري نحو الجهاز، وقد طالعتُهُ بقلبٍ راجفٍ وفِكرٍ مُضطرِبٍ حائر.

كنت أرى الإحداثيات تتغير بلمح البصر. رمشتُ عدَّة رَمشات، ولم أفهم شيئًا مما يحدث، فأخذت بسُرعة أطالع الفضاء من خلال النَّافذة البلوريَّة!

أطلت النَّظر مليًّا وما إن صارت الأضواء تَظهرُ جليَّة بشكل أكبر، حتى تبادر إليَّ بعد لحظات أن المركبة الفضائيَّة دَخَلتْ في نِطاق جاذبية كَوْكب الزهرة بالفعل، وصرت على وشك الوصول.

ما هي سوى لحظات حتى بدأت السَّفينة الفضائيَّة بالانحدار في زاوية حادَّة مُرعبة..

خفق قلبي خفقانًا رهيبًا، ووازنتُ من نفسي وتمسَّكتُ بإحدى الأذرع الجانبيَّة، ولم أستطع ساعتها تمييز الشُّعور الذي اعتراني على وجه التَّحديد، ولكن شعرتُ لوهلة أن حالي يشبه بشكل أو بآخر حال «أليس» حين هَوَتْ من جُحر الأرنب الأبيض إلى بلاد العجائب السَّاحرة، ولكن، في تلك القصَّة العالميَّة الأسطوريَّة، احتاجتْ هي إلى أن تشربَ من قنينة سحريَّة حتى يتضاءل حجمها، وتعبُرَ من بوابة صغيرة إلى ذلك العالم الغرائبيِّ المُدهِش، فهل أنا بحاجة يا ترى إلى أن يتغير شيء فيَّ حتى أتمكَّن من العُبور بِسلام؟!

هل سيتقلَّص حجمي؟! هل ستتغير لُغَتي؟! هل سيتبدَّل شكلي؟! هل سأستغني عن بعض الأمور المتعلِّقة بحياة البشر حتى أستطيع التَّكيُّف مع طبيعة الأرض الكرتونيَّة، والتَّفاهم مع الأناس الذين يعيشون عليها؟!

ظلَّت هذه التَّساؤلات الَّلحُوحَة تفورُ في داخلي في تلك الدقائق القلقة..

وعلى أحر من الجمر، وبقلب سبيستونيٍّ نابض، وبروح طفوليَّة مُتَحفِّزة، مضيتُ أنتظر اللحظة الحاسمة التي تهبط فيها المركبة على أرض الكوكب، وتفتح البوابة على مصراعيها...

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

حين أعودُ للوراء، تأتيني صور من الماضي..
أطياف ذِكريات، قد صارت حكايات، تأتي ثم تمضي..
أنظر بعيون أخرى، قد تغيَّرت الألوان..
تُحدِّثني، تُعلِّمُني، أن ما قد كان، كان..
يا زمان، سأرسمكَ في النِّسيان زُهور بستان..
تتفتَّحُ عندما يأتي الأوان.

# 2

ذات زمان، قُلتِ لنا يا سبيستون: «الخطوة تدفع خطوة، الماضي يُفهم يُطوى»، ولكن الماضي لم يُطوَ منه شيء يا عزيزتي، بقي ساكنًا في زوايا صدورنا العتيقة، ومضينا العُمر كلَّه ونحن نحاول فهمه واستيعابه!

يا ليت لو كان بإمكاننا أن نبقى أطفالًا إلى الأبد، فنحن لا نعلم لماذا نشعر بالغصَّة ذاتها كلَّما عادت بنا الذَّاكرة إلى الوراء! لماذا نحِنُّ إلى تلك الأيَّام ولا نذكر سواها؟! وكأنَّ شريط الذَّاكرة علق عندها ولم يتحرك بعد ذلك! لماذا سنموت من فرط الاشتياق إلى زمن لن يعود؟! لماذا بات كلُّ سُؤال من هذه الأسئلة الحائِرة هو السُّؤال الصَّعب الذي يراودني؟!

ذات يوم، انطلقنا من هنا بالذَّات، انطلقنا من أرضك نحو دروب الحياة. انطلقنا بصدور يحدوها الحب والأمل والعُنفوان، وأيادٍ تلوِّح للطفولة وتقول لأيَّام عمرها القادمة:

*الآن نبتـدي.. بحبنا النَّدي.. بحثًا عـن الغـدِ.*

مضينا في دروب الحياة «بخطوة واثقة، وهمَّة صادقة، نمشي على الطَّريق» مضينا ننمو ونكبر ونسابق الأيَّام «لنعيش السِّنين بدنيا كالأحلام!».

أليس هذا ما كنتِ تزرعينه في نفوسنا على الدوام يا سبيستون؟!

ألم تطلبي منَّا ذات يوم أن «نأتي لونًا، فجرًا، برقًا، وهجًا لا يخبو»، أن «ننطلق شعاعًا نحو المستحيل»، وأن «نرى الغيوم مرآة للشمس، تُغطِّي البحر وتُناديننا بهمس»؟! وأن لا ينطفئ الجُنون فينا ونحن نُردِّدُ: «المهارة والجسارة والإثارة والتَّحدي يُنادينا..»؟

ألم تكوني تريدين أن نرى الحياة على اعتبار أنها أمنية رائعة ستتحقق ذات يوم؟! وأن نرسم بيتًا صغيرًا نُسمِّيه الأحلام، ونرسم فيه الزَّمان مهما كانت صعوبة المهمة؟!

ألم تكوني تُريدين أن ننعم بالنَّظرة الثاقبة والنُّضج المُبكِّر والأفكار المختلفة التي تجلَّتْ في شخصيتنا منذ الصِّغر؟ أن نتباهى بشيء من النَّرجسية أمام الأجيال التي تَختلف عنَّا بالأفكار والمشاعر والذِّكريات؟ أن نُلوِّح بمشاعل زمننا الاستثنائيِّ أمامهم ونحن نهتف بكل ثقة واعتداد وشموخ: «لقد حان، حان الوقت، لتشاهدونا فقط»؟

ولكن أحلامنا في النُّضج المبكر والإدراك العميق كانت لعنة مُزمنة مُتوحشة على قلوبنا البسيطة النَّقيَّة. كانت فخًّا نصبهُ الزَّمان لنا بطريقة مُحكمة لا خلاص منها، وصرنا كطفل أغرته حياة الكبار من حوله، فركض ليجربها بكل ما أوتي من لهفة وفضول ومغامرة، فهوى من ارتفاع شاهق إلى مكان سحيق لم يحسب له أي حساب، ولقي حتفه في نهاية المطاف!

حينها، صار لسان حاله يلعن تلك الأحلام التي ناضل من أجل عناقها، والأحلام الكبيرة التي راوغتهُ بطريقة لم يستوعبها إلى هذه اللحظة الرَّاهنة، وجعلته يقول مُتحسِّرًا بائسًا في منطقة دفينة من نفسه: «كان حلمًا منيرًا مُشرقًا كالنَّهار، ليته ظل حلمًا يا زماني!».

عندما كبرنا تبدَّلت الأحلام بومضة عين، وضاقت علينا الأمنيات التي كنا نتمنى ارتداءها، وَجدنا أننا تورَّطنا في حياةٍ لا تُشبِهُنا، وصارت كلُّ خُطوة محسوبة علينا بطريقة مُرعبة، وكُلُّ قرار يأخذ بأيدينا عنوة نحو الوجهة التي لا نريد!

صرنا نعيش الحياة المتوفرة أمامنا، لا الحياة المشتهاة في أذهاننا، نختنقُ في الأمكنة المتاحة بدلًا من أن نعيش في الأمكنة التي تُشبه أرواحنا!

فكان لزامًا علينا أن نبحث عن أي خطَّة تُمكِّنُنا من العودة عبر الزَّمن، عن أي وسيلة تلعبُ بِعدَّادِ الأعمار داخل تقويم صدورنا المتعبة، عن أي طريقة نُعطِّلُ بها فتيل القنابل العمريَّة الموقوتة التي زُرعت في قطارات أيَّامنا، عن أي وسيلة تجعلنا نستردُّ طُفولتنا لكي نُناغي الحياة من جديد، لعلَّ سطوة الطُّفولة وصَولجانها السِّحريَّ يُرجعاننا متربعين على عرش العالم، دون أن نكترث لهراء الكبار، والنَّواميس الغريبة لهذا الكون!

ذلك أنه فيما مضى كنا نشعر أن السَّيطرة على العالم أمر بسيط، بل إنه في مُنتهى البساطة، حيث إننا لسنا بحاجة إلى شيء سوى خوض معركة سهلة من أجل الاستيلاء على جهاز الرِّيموت كنترول، وإبقائه بالقرب منَّا ونحنُ نشاهد برامج الكرتون!

وقتها، كانت أصعب الطَّلبات الموكلة إلينا: «هيَّا نظِّف غرفتك الآن، لا تنسَ تنظيف الأسنان»، وكُنَّا نشعر بالأمان في كوكبنا بمجرد أن نقول: «عليّ عليّ بطل فليد، هيَّا طر يا جراندايزر»، وكنا من فرط الطَّمأنينة نقول: «كم تحلو الدُّنيا كم يحلو اللقاء، ما دمنا نعيش في صفاء»، وكنا من فرط الطُّموح نهتف: «أحلم دومًا أن أكون الأفضل بين الجميع»، وكنا من فرط السَّذاجة نُصدِّق الكذبة التي تقول: «نلقى عدوًّا ونقابل ألف صديق»، وكنا من فرط النَّقاء والإيثار نقول: «آه لو في الأحلام، أهدي لونًا ذهبي، أهدي لا أستثني أي صديق»، وكنا من فرط الطِّيبة، نُتمتم بعد كلِّ موقف مُحرجٍ مع أحدهم: «هل تُراني أخطأت، هل أعتذر الآن؟».

كنَّا نظنُّ أن السَّعادة سهلة المنال ونحنُ نردِّدُ: «سعادة الإنسان هدف عبر الزَّمان، نسعى إليه يشعرنا بالأمان»، وكنا نتوهمُ أننا سننسى الأشياء الموجعة ونتجاوزها بِمُجرد أن نقول: «لن أعود إلى الوراء، لن يكون لي معه لقاء»!

كُنَّا نشعر بأننا حكماء عصرنا ونحن نقول بكل ثقة واعتداد بالنَّفس: «أحداث نفهم مغزاها تروي قصصًا ما أحلاها، بالعقل وبالقلب نراها، كم نهواها كم نهواها» وكانت أكبر لحظات الإثارة حين نسمعهم يقولون: «هذا ما سنعرفه في الحلقة القادمة»، وكانت أعظم الأمنيات أن نتحول إلى الشخصية التي نريدها، بمجرد أن نرتدي «قناع أخضر، قناع جميل»، وكانت أصعب الأسئلة التي تُراودنا في ذلك الحين: «لماذا الاثنين قبل الثلاثاء؟!»، وكان أكبر ما يشغلُ بالنا ويستحوذُ على تفكيرنا: «ماذا أريد؟! ماذا أصير؟! هذا هو السُّؤال!».

ولكن لم يخطر ببالنا ولو للحظة واحدة أننا سنتورَّطُ بعالمٍ غريب المعالم بهذا الشَّكل الشائك المعقد. لم نكن نتوقع أن نشعر بكلِّ هذا الاغتراب الفظيع، وأننا سنندُب حظَّنا ونحن نهتف من أعماق قلوبنا الشريدة، ونستجدي بكل ما أوتينا من ضياع: «في فخ غريب وقعنا، في عالم الأرقام ضعنا، كيف الخروج، من أين الطَّريق؟!».

ومع هذا، ثمَّة شعور عميق ما يزال يربتُ على أكتافنا، يهتفُ في مسامع الكون بأننا ما نزال أطفالًا نستحق الفرح على أهون الأسباب وأبسط المواعيد، نستحق الضَّحك على أتفه الأمور، ولكن نخشى ما نخشاه أن يكون العُمر قد سُرق من جيوبنا وانتهى الأمر، ولن نعود كما كنَّا مهما حاولنا فعل ذلك!

كُنَّا نظنُّ أن مسألة العودة إلى أحضان الفرح مختزلة في دقائق الانتظار التي كنا نتململ فيها ونشغل أنفسنا بأي طريقة بعد سماعنا للعبارة التي تقول: «سنعودُ بعد قليل».

ولكننا في هذا الزَّمن الغريب، صرنا نخشى من أمور عصيَّة على الاستيعاب؛ نخشى من لحظات الحزن المتنكِّرة بثياب الفرح، نخشى أن تنهش الأيَّام طفولة قلبنا، وتستنزف أصدق مشاعرنا ونحن مُعلَّقين على لائحةِ الانتظار!

نخشى أن ينقضي العمر بأكمله ونحن نَتسمَّرُ في الخيال أمام شاشة برامج الكرتون، نغفو على وسادة محشوة بالحُب والأمل، نتقلب ذات اليمين وذات الشمال، نُمطِّطُ أجسادنا من فرط الملل، ونتحرَّقُ شوقًا ونحن ننتظر ذلك الصَّوت الرَّخيم الدافئ الذي يقول: «عدنا»، لتُشرق حينها شمسُ الطُّفولة الغائبة على ضواحي قلوبنا الذَّابلة، فترتسم ضحكة الطِّفل من جديد على ملامح السَّنوات!

أما الآن وحسب، وفي هذه اللحظة التي وطئتُ فيها أرضك، واستطعت الارتماء في أحضانك من جديد، ربَّما بات بإمكاني أن أقول تلك الكلمة المُنتظرة بِنَفسي، ربَّما بات بإمكاني أن أقول للأرض التي حَبَتْ فيها مشاعري الطُّفولية الأولى: «عُدنا».

ما إن تَغَرغرتُ بهذه الكلمة التي تُدغدغ عواطفَ جيلٍ بأكمله، وتُعيده إلى الوراء ألف خطوةٍ من الشعور، وما إن هبطت المركبة الفضائيَّة ونزلتُ

منها، حتى خفق قلبي ألف مرة أو أكثر، ومضيتُ أجيل النَّظر بعيون تتفحَّص المكان من حولها، كرجلٍ أعمى استردَّ بصره للتو.

لم يكن في المكان أي شيء عجائبيٌّ غير مألوف..

لم يكن هناك بوَّابة سِحريَّة ناطقة، أو كعكة غريبة كُتب عليها «تناولني»، أو شراب عجيب موجود في قنينة مكتوب عليها «اشربني»!

لم يكن هناك أي بساط ريح ينتظرني أن أقف من فوقه، أو مكنسة سحريَّة كتلك التي كانت تمتطيها السَّاحرات في الحكايات الأسطورية، أو شيء من هذا القبيل المتعارَف عليه في القصص والحكايات الخيالية التي عرفتها ذات زمان.

فَتشْتُ في كلِّ زاوية من زوايا المكان، لعلَّ هُناك شخصًا ينتظر وصولي، أو أي كائنات تقف لاستقبالي، أو أي لوحات إرشاديَّة وتوجيهيَّة، ولكن لم أعثر على أي شيء.

بعد بُرهة من الوقت الحائر، وبينما كنت أتجوَّل بشكل عشوائيٍّ في جُنبات المكان، لمحت دراجة هوائية تستند على أحد جذوع الأشجار المنزوية، المتدلِّية بأغصانها الكثيفة.

ركبني الفضول، فدنوتُ من تلك الدراجة بخطوات حائرة.

ما إن وصلتُ إليها حَتى رأيتُ في صندوقها الأمامي حقيبة جلديَّة صغيرة، تناولت الحقيبة وسوَّل لي الفضول أن أنظر في محتوياتها. عثرتُ وقتها على رسالة مُغلَّفة بظرف رسائل قديم، يشبه مواصفات الظَّرف الذي وجدتهُ على طاولة مكتبي من قبل، وكان إلى جانبه صُرَّة من النُّقود، وثلاث كعكات صغيرة، بالإضافة إلى كرت مكتوب عليه أحد العناوين!

على جناح اللهفة، تناولت الرِّسالة وشرعت أفتحها بأصابع مُرتعشة.. ثم سُرعان ما صرت أتجول بين سطورها.. قرأت ببطء شديد ما يلي:

الحمد لله على سلامتك، أهلًا بك عزيزي في أرض الرُّسوم المتحركة، عليك أن تعرف منذ البداية أمورًا مهمَّة حتى تتمكَّن من الاستمتاع برحلتك..

كلُّ الكواكب توحَّدتْ هُنا وأصبحت كوكبًا واحدًا يعيش عليه أبطال الرُّسوم المتحركة من شتى المنابت، أي إن هناك برامج أخرى قد انضمَّت إلى الباقة السبيستونيَّة، بسبب انتمائها الوجداني إليها.

ستصادفك الكثير من الشخصيات في رحلتك، ربَّما تعرفها وربَّما لا، ذلك أن بعضها تغير شكله مع مرور السَّنوات، وبعضها الآخر قد تكون ملامحها مُختلفة عن تلك الملامح التي عرفتَها على شاشة التِّلفاز!

إنَّ هذا الأمر ينطبق أيضًا على أبعاد الأمكنة الجغرافيَّة، فهي تختلف عن تلك التي رأيتها على شاشة التِّلفاز، وبعضها ستكون متقاربة بشكل غريب، ومردُّ هذا الشيء هو تغير التَّضاريس بعد أن توحَّدت جميع الكواكب داخل كوكب واحد.

ستعبر بين الحقول والمراعي والمروج الخضراء، وتمرُّ بأدغال غابة مُوحشة، ومُحيط واسع هادر، وبلدة شعبية بسيطة، حتى تصل إلى مدينة صاخبة تضجُّ بالعمران والحياة.

هناك بالتَّحديد، يتعين عليك الذَّهاب إلى المكان الختامي للرحلة، وهي قاعات تركنا لك عُنوانها على الكارت المرفق مع الرِّسالة، ولن تستطيع العودة إلى الأرض إلا من خلالها.

عليك أن تتبع الحدس والإشارات السبيستونيَّة حتى تتمكن من العبور. حاول أن تجمع أكبر قدر من الذِّكريات والعِبرِ والنَّصائح والإسقاطات على الحياة الواقعية التي تعيشها، قبل أن تعود بسلام إلى كوكب الأرض.

لا تقلق..

النَّاس هنا تتحدث مثل لغتك، وقياس أجسادهم ومواصفاتهم مطابق لمواصفات البشر في كوكب الأرض، أما عن أعمارهم، فهي افتراضية بناء على تواريخ ولادة تلك الشخصيَّات، لهذا قد لا تستطيع تمييز أعمارهم على نحو دقيق.

وأخيرًا، تركنا لك في الحقيبة ما يعينك على سفرك، هذا كلُّ ما لدينا الآن.. عليك اعتلاء درَّاجتك والانطلاق في الحال.. رافقتك السلامة.

في تلك اللحظة..

وبينما كنت أحاول استيعاب ما يحدث من حولي، طَويتُ الرِّسالة ودسستها في الحقيبة الجلدية، ثم أرجعتها إلى صندوق الدراجة، وقد بدر لي أن هذه الرِّحلة ستكون في منتهى الدهشة والغرابة، رحلة محفوفة بالمعاني والأسرار والمشاعر المختلطة، وحافلة بالذِّكريات الطَّريَّة البديعة، والحالات التَّأملية العميقة.

بات من الواضح لدي أنه لم يعد سؤال «لماذا نحن هنا؟!» سؤالًا يُراودني في هذه اللحظة، إذ خامرني شعور بأنني في المكان المناسب، المكان الذي يُعيد الطُّفولة المفقودة إلى قلبي.

كان هذا الأمر برمَّته مُعجزة، ثم أصبح من فرط الشعور حلمًا، وشيئًا فشيئًا ها هو قد أصبح أمنية، وعلى ذمَّة اللحن السبيستونيِّ المُرهف: «ها قد آن الأوان، لنلوِّن أحلى الأمنيات، لنعود للوطن ونزرع فيه الأغنيات».

انحنيت لأشد وثاق حذائي المطاطيِّ الذي أنتعله، وعَدَّلتُ من بنطال البزَّة الرِّياضيَّة التي أرتديها.

أخذت نفسًا عميقًا كغواص يَهُمُّ بِرَمي نفسه في الماء. ركبت الدراجة مثل مُتسابق متحفز في مضمار عالميٍّ، ثم ولَّيت وجهي صوب قِبلة ذكريات الطُّفولة المرسومة.

في غمرة الجو القائظ، وعلى طريق طويل معشوشب، مضيتُ بجذل وانتعاش أشق الطَّريق وأقطع الأمتار والمسافات، وعلى مدِّ البصر من حولي عانقت الأفق الرَّحيب الذي كانت تنتشر فيه العديد من بساتين الأشجار المثمرة، وتتبدَّى من خلاله بعض المساحات الخضراء المسيَّجة.

ثمَّة شذى عاطرٌ يسري في مسارب روحي. ثمَّة سرب من الطُّيور يحلق في وسط السَّماء، ويسير بإيقاع مُنتظم كغيمة تعبر إلى البعيد، هناك حيث نبتت بذور طفولتي الافتراضية.

أوغلتُ في الطَّريق بشكل أكبر، بذاكرة موشومة بكلمات شارات الكرتون، ومشحونة «بأطياف ذكريات قد صارت حكايات»، ولعلَّ هذه ستكون زوَّادتي الرَّئيسية في هذه الرِّحلة!

لست أدري، ولكن لعلَّ أروع الرِّحلات في هذه الحياة هي الرِّحلات التي نكتشفها بأنفسنا دون توجيهات من أحد، ودون أن نسير فيها على خُطى أحد، وأن نستمتع بالضَّياع الذي سنجد فيه أنفسنا فيما بعد!

ولكن، في الرِّحلة التي أخوضها ربَّما لا مجال لهذه الفلسفة الذَّاتية، فما هي سوى بُرهة من الوقت حتى وجدتُ نفسي أقتفي آثار عجلات دراجة مرت من قبلي، ظنًّا منِّي أن هذه إحدى الإشارات التي عليَّ اتباعها كما جاء في الرِّسالة.

لحقتُ الآثار بكل هدوء وترقب.

مرَّ الوقت، وعقب عدَّة انعطافات، وفجأة، توقفت خطواتي حين أدركت أن آثار عجلات الدراجة قد اقْتَحَمَتْ بوابة غريبة، بوابة حديديَّة أظنُّ أنَّ اتِّساعها بحجم اتساع مرمى لكرة القدم!

أسندت قدمي على الأرض، واتَّقيت أشعة الشَّمس بيدي. ألقيت نظرة من خلال البوابة، فإذا بقصر ضخم يلوح من بين مجموعة من الحدائق المشجَّرة، قصر يبعث في نفس الرَّائي مهابة عظيمة، وتوحي هيئته بنبل رفيع المستوى.

لم أترجَّل عن دراجتي بشكل كامل. ظللتُ متسمِّرًا في مكاني بُرهة من الوقت، وقد استبدت بي الحيرة والتَّردُّد. مضيتُ أتلفَّت يمنة ويسرة علني أجد أي شخص في المكان!

بعد لحظات قصيرة، وعلى حين غرَّة، أطلَّ رجلٌ غريب من مكان ما!

على الفور، خفق قلبي واتَّسعت حدقتا عينيَّ وأنا أراه يقترب من البوابة شيئًا فشيئًا. أخذت أبحلق في هيئته وأنا أطالع قسمات وجهه وتفاصيله بكل دهشة وإمعان!

إنه أول كائن ألقاه على هذا الكوكب!

كانت هيئته تشي بأنه بستانيٌّ أكثر من كونه حارسًا من حُرَّاس القصر. تمهَّلتُ ولم أنبس بحرف واحد، منتظرًا منه أن يبادر بالكلام.

بعد لحظة قال بصوت مرتفع:

- عِمتَ صباحًا أيها الفتى.

فهززتُ رأسي بابتسامة صامتة، فسمعته يقول:

- على ما يبدو أنك ضائع بلا ريب، وقد تكون غريبًا عن المكان، هذا ما تقوله لي سحنتك غير المألوفة. على كلٍّ حال، بإمكانك العبور بدرَّاجتك من خلال حدائق القصر، على الرَّحب والسعة.

حينها، أومأت برأسي إيماءة استفهام، وقد ظللتُ مُتسمِّرًا في مكاني، ولكن سُرعان ما تداركتُ الأمر بابتسامة حرجة. لم أكن أعرف إن كان يتعين عليَّ الدخول بالفعل! أم أن هذا الأمر سيضيِّع وقتي في أمور هامشيَّة لا قيمة لها في الرِّحلة؟!

لاحظ الرَّجل حيرتي البادية على ملامحي، وعلى ما يبدو أنه اعتبرها خجلًا، فقد راح يقول إن هذا الأمر طبيعي جدًّا ولا حرج فيه، فالعبور من حدائق القصر سيوفِّر عليَّ الوقت والجهد المبذول في الطَّريق الاعتياديِّ الذي يوصلني إلى استكمال سلسلة الحقول الواسعة والمروج الخضراء، قبل أن يهيب بي أن أتوخَّى الهدوء وأنا أسير بين تلك الحدائق، لكيلا أزعج سُكان القصر وأفزع طيوره، فحسمتُ الأمر حينها ودلفتُ من البوابة الرَّئيسيَّة للقصر، وقد خطر لي في تلك الآونة أنني رأيتُ الرَّجل من قبل، ولكن لا أعرف أين بالتَّحديد!

بين أصص الزُّهور الزَّاهية التي كانت مُنسَّقة داخل أحواضٍ رخامية فخمة الطراز، ومن بين أسوار الحدائق الهندسيَّة المسوَّرة، وتحت ظلال أشجار تنُّور وارفة، ونباتات مُعرِّشة تتدلَّى أغصانها هنا وهناك، مضيتُ أسير بهدوء، مشدوهًا من روعة المكان وتفاصيله الأنيقة، وقد فاحت أشذاء عَطِرة من خمائله.

وكعصا أولمبيَّة في سباق تتابعي، كان كلُّ ممرٍّ يُسلِّمُني للآخر، وقد أحسستُ لوهلة أن جميع الممرَّات مُتشابهة بشكل يجعلك تشعر بالضَّياع بشكل تلقائيٍّ، وفي هذه الأثناء، باغتني صوت من مكان ما، فواصل موسيقيَّة بتكرار رتيب!

أدرت طرفي، فإذا بطائر موشَّى بريش أحمر اللون في مُنتهى الحُسن والجمال.

مضيتُ مُستأنسًا بصوته، وأحسستُ لوهلة أنه يرحِّب بي على طريقته كما لو كان فردًا من أفراد سكان القصر.

فجأة، وفي لمح البصر، رفَّ الطَّائر بجناحيه وحطَّ على غصن ميَّاد يتدلَّى من الجانب الآخر من السُّور، وفي تلك اللحظة بالتَّحديد، وفجأة، ودون سابق إنذار، تسلَّل صوت آخر من خلف السُّور!

توقفت خطواتي بشكل تلقائي.

أصغيت للصوت، فوصل إليَّ لحن شجيٌّ مترف بالرِّقة والعُذوبة، وكأنَّما كان صاحبه يُنشد قائلًا:

*لحديقتنا في قريتنا باب، ولها أسوار*
*لا يعلم أحد ما فيها، تخفي عنَّا الأسرار*

خفق قلبي عند ذلك، وشعرتُ من فوري بخدرٍ لذيذ في أركان جسدي. ما يزال هذا اللَّحن مزروعًا في حدائق ذكرياتي ومخلوطًا بسماد طفولتي.

تساءلت حينها والدَّهشة تملأ أركاني:

أتكون أول محطاتي هي الحديقة السِّريَّة؟!

تملَّكني الفضول لمعرفة الأمر، فهرعتُ بسرعة أطالع السُّور على امتداده، مُستحضرًا في ذهني شكل البوابة السِّريَّة المتوارية بين أوراق الأشجار، وفجأة، وفي غمار هذا، أطلَّت سيِّدة من خلف السُّور!

تسمَّرتُ في مكاني لا أنفكُّ عن التَّحديق إلى هيئتها. كانت سيِّدة أنيقة الهندام. تظهر عليها سيماء النُّبل والكبرياء، وشبيهة بآنسة راقية من سلالة الأثرياء الذين ينتمون إلى العصور القديمة الغابرة.

كانت مُكتنزة الجسد، ترتدي فستانًا مكشكشًا فيروزيَّ اللون وتتزيَّن بجواهر كلاسيكيَّة، ولها وجه يُوحي بالنَّعيم والعزِّ والعافية، وشعر ذهبيٌّ يحاكي في هيئته شعر غزل البنات!

كأنها هي بالفعل؟!

بادرتها التَّحيَّة بتردد خجول، فردَّت عليَّ بنبرة مهذبة متواضعة، ومن باب اللباقة وبشكل مُتحفِّظ بعض الشيء، أبديتُ إعجابي بصوتها النَّديِّ العذب،

فابتهجت لهذا ابتهاجًا شديدًا، واحمرَّت وجنتاها كما لو كانت طفلة على مسرح غنائيٍّ وصفَّق أحدهم لها.

- أتعلم أيها الغريب؟ لا أشعر أنني أمتلك ذلك الصَّوت الجميل، ولكن مع هذا، أشعر أنني بحاجة ماسة إلى الغناء دون توقف.

ما إن قالت تلك العبارة حتى رفَّ الطَّائر ذو الرِّيش الأحمر بشكل فُجائيٍّ، وقد راح يشدو من حولها ويطلق فواصل موسيقيَّة عجيبة، فتضاحكتْ بدورها بجذل طفولي: أترى؟! حتى أبو الحناء يثني على كلامي على ما يبدو.

ثم لم تلبث أن استدركت السيِّدة فرط عفويتها، وسارعت بتقديم نفسها كابنة للقصر، فأدركت حينها أنها «الآنسة ماري» دون أدنى شك!

والابتسامة لا تفارق شفاهي، مضيتُ أطالعها هي والطَّائر الجميل، وقد قُلتُ لنفسي في تلك اللحظة:

يا لصعوبة أن يحتفظ المرء بطفولة قلبه، وسط عالم بشع يجعلنا نبدو أكبر من أعمارنا الحقيقيَّة بالكثير من السَّنوات، ويجبرنا على أن نشيخ قبل أواننا!

ولكن «الآنسة ماري» على ما يبدو، وعلى الرَّغم من مرور السَّنوات، فإنها ما تزال تحتفظُ بروح الطُّفولة في أعماقها وكأنها لم تكبر قط...

كانت اللهفة كبيرة حين دعتني قائلة:

- ما رأيك في أن تشاهد حديقتي المفضَّلة وتتجوَّل بين ورودها ونباتاتها قبل أن تغادر؟

ثم ما لبثت أن استدركت قائلة:

- إن كنت تمتلك وقتًا بالطَّبع.

ابتسم قلبي حينها، وقلت بفلسفة ممزوجة بالفضول واللهفة:

- إن لم تمتلك الوقت لمشاهدة الجمال في هذه الحياة، سيضيقُ الكون في عينيك، وتشيخ مبكرًا قبل أوانك. هذا ما كانت تقوله جدَّتي على الدوام!

لبَّيت الدعوة ولحقتها بخطى توَّاقة مُترقِّبة، وقد أخذت تجرُّ وراءها فستانها الفيروزيَّ الطَّويل.

في تلك اللحظة، استعرتُ مشهدًا من الذَّاكرة، وتأهَّبْتُ نفسيًّا لمطابقته بالمشهد الذي سأراه في الحال...

ما إن وصلنا إلى الباب الخشبيِّ للحديقة، وما إن دلفت بي إلى الحديقة حتى تولَّتني الدهشة، وساورتني العديد من الأحاسيس والذِّكريات التي لا أستطيع وصفها!

انعقد لساني بشكل تام.

إنها ذاتها الحديقة السِّريَّة التي عرفتها، ذاتها بزهوها وتفاصيلها السَّاحرة المنعشة الأخَّاذة...

كانت أشبه برسمة أصيلة هاربة من أحد المتاحف العتيقة، جديرة بأن يترك المرء عينيه تتنزَّهان في كلِّ تفاصيلها، وأن يحاول مُلامسة كلِّ زاوية فيها، وهذا ما رحت أفعله بالتَّحديد.

انسابت رائحة الورد الفوَّاحَة في مسامات صدري، وتسلَّقْتُ بعينيَّ مع النَّباتات المتسلِّقة على جدرانها، ومضيتُ مأخوذًا أطالع الشجرة السَّامقة المتعالية في وسطها كأشجار السِّنديان، الشجرة التي بدَت كما لو كانت قد نصَّبت نفسها سيِّدة على المكان منذ أزمنة بعيدة.

غرقتُ في رحاب تلك اللوحة الفاتنة، حتى إنني لم أنتبه للآنسة ماري التي كانت تسأل بزهو لا ينقصه الاعتزاز عن رأيي بتنسيق الحديقة وفتنتها...

راحت تتبختر في الممر كطفلة لا يمكنها التَّحكم بمشاعرها، ومضتْ بعاطفة مُتَّقِدة تشرح علاقتها الوطيدة بالورود ولغة الأزهار!

في تلك اللحظة، تذكرت أنني قرأت ذات مرَّة أن للورود لغة ساحرة غريبة، لغة لا يستطيع فهمها وقراءة أبجديتها، إلا من انسكب في روحه عطرها!

ثم خطر لي أن ثمَّة سؤالًا سبيستونيًّا يقول: «هل سمعت الأزهار تُغني بحناجر من نسيم الجبال؟! وتحنو على قلوبنا بألوان الجمال؟!».

بقيتُ أستمع باهتمام لحديثها العابق برائحة الزُّهور، وأيقنت أن الآنسة ماري رغم مرور السَّنوات ما تزال عاكفة على ريِّ أزهار الحديقة السِّريَّة، ولم يصدأ مفتاح باب الحديقة من جديد.

لست أدري!

لعلَّ الفُضول هو من قاد الآنسة ماري لهذه الحديقة المنسيَّة المهجورة ذات زمان، ولم تكن تكتفي بالمشاهد الكلاسيكيَّة الاعتياديَّة التي تعرضها في شريط الحياة.

أحسستُ بهذا بشكل عميق حين سمعتها تقول:

- لطالما كنت أخشى أن أنظر إلى الحياة من ثقب بابها، دون أن أتمكن من الدخول إليها، أن يحسَب عليَّ هذا العمر دون أن أعيش أيَّامه وأروع اللحظات فيه.

ولعلَّ هذا ما علينا إتقانه إن أردنا أن نجد الحديقة الخاصَّة بنا، وأن نصنع عالمًا يشبهنا نستطيع اللجوء إليه، أو على الأحرى إن أردنا أن نعيش هذه الحياة.

بعد لحظات..

أشارت في حديثها العفويِّ المنساب كيف أنها جعلت الحديقة سرَّها الدفين الذي راهَنَتْ عليه إلى النِّهاية.

اسْتَرسلتْ بالحديث على نحو مُرتاح غريب، ومضتْ تقول:

- لعلَّ الكتمان لعب دورًا مهمًّا في هذا الأمر، فإن البشر لا يستطيعون إفساد الأمور التي لا يعرفونها، ولو علموا بموضوع البذور التي دفنتها في باطن الأرض، لما استطعت أن تستنشق رائحة الورود التي أمامك الآن!

صمتُّ لوهلة وفي أثناء ما كنت أفكر في عُمق كلماتها، ومن بين أوراق الأزهار، برزت لي براعم تبدو على أهبة التَّفتح والإزهار، فابتسمتُ وقلت في نفسي وأنا أتملى جمال الحديقة الغنَّاء:

ولعلَّ سر جمالها الحقيقي هو أنها استطاعت أن تنزع الشوك عنها، من أجل الشوق لمن يليق بها، استطاعت أن تعيش بعد موتها، وأن تعود إلى فتنتها بعد أن هجرها الجميع.

وفي غمار هذا..

خطر لي أنني عرفت هويَّة الرَّجل البستانيِّ الذي قابلته عند مدخل الحدائق، وأحسستُ في الوقت ذاته أن عليَّ المغادرة وعدم المماطلة في ذلك، فشكرت الآنسة على لطفها وهممتُ بذلك على الفور.

مضيتُ في سبيل استكمال رحلتي..

وفيما لم تزل رائحة الأزهار عابقة بي، مضيتُ أفكر قائلًا في نفسي:

لعلَّ في داخل كلٍّ منا حديقة سريَّة مهجورة، حديقة تبحث عمَّن يسقيها ويعتني بتفاصيلها الذَّابلة وورودها المنسيَّة، عمَّن يُعيد الحياة إليها من جديد، عمَّن يصغي لأنينها وهي تستغيث وتهمس باستجداء: «من يمسحُ عن قلبي حُزني، يُرجعني خضراء اللون أعشاشًا للأطيار؟».

تمامًا كما فعلت ماري مع ابن عمها المريض العاجز، ذلك الفتى السَّقيم الذي كانت تسمع نحيبه المنبعث من العلِّيَّة في منتصف الليل، وقد استطاعت أن تأخذ بيده من غياهب العتمة والعجز إلى مدارج التَّعافي والأمل، وأن تجعل الشَّمس تُشرق من قلبه بعد أن أقنعوه بظلمته الأبديَّة.

بعد لحظات..

ولما لم أكن قد ابتعدت عن أسوار الحديقة بعد، توقفتُ بشكل مفاجئ، حيث خيِّل إليَّ في تلك اللحظة أن الآنسة ماري راحت تواصل غناءها الرَّيَّان بالحياة كما كانت قبل أن ألتقيها.

أصغيت للصوت بشكل أكبر..

خفق قلبي وارتسمت ابتسامة على شفاهي، وكأني بها وصلت إلى المقطع الذي يقول:

*ما أجمل أن تسقي الشجرة،*
*لتضاهي بالحُسن القمر،*
*أن تغرس في اليائس أملًا،*
*زرعًا يُعطي الأثمار.*

* * *

# 3

لعدم انتباهي، وربَّما لسبب ما أجهله، اجتذب عجلات الدَّراجة مسارٌ جانبيٌّ عشبيٌّ على قارعة الطَّريق.

مضيتُ أبحث حائرًا عن أي شخص أو إشارة دالة.

كان السُّكون يُخيِّم على المكان، ولم يكن يندُّ عنه سوى صوت عنادل قادمة من بعيد.

كان الطَّريق مُشبعًا برائحة تشبه رائحة الأقحوان والليمون، مخلوطة بعبير أزهار فواحة لا أعرفها، ثم صار بعد حين محفوفًا بالكثير من أشجار الصنوبر والدردار والزَّيزفون، ومكلَّلًا بقناطر من أشجار الخوخ والكرز والعناب والتوت والتُّفاح الأخضر، وأنواع شتَّى من النَّباتات المختلفة التي تلقي بظلالها على الطَّريق وتقيني أشعَّة الشَّمس الملتهبة، وفي الوقت ذاته تمتزجُ مع المشهد الجغرافي الخلَّاب، وتسبغُ على المكان خيالات مائسة وجمالًا عميقًا من نوع خاص!

ولكن هذا لا يهم، لا يهم أن يكون الطَّريق في مُنتهى الجمال، بقدر أن يكون طريقًا مناسبًا يذهب بنا نحو المكان المطلوب، ويُجنِّبنا لعنة التيه والضَّياع!

هكذا نبَّهني صوت في داخلي كي لا أنغرَّ بجماليات المكان التي كانت تحيط بي، وتحرفُ بوصلتي وتُنسيني غايتي الرَّئيسية.

مع مرور الدقائق، وقبل الإيغال في الطَّريق بشكل أعمق، راودتني نفسي بالرجوع إلى حيث كنت قبل المسار العشبيِّ، ولكن، وفجأة، برزت أمامي لوحة واطئة على جانب الطَّريق من بعيد، فدنوتُ منها رأسًا لأتبين الأمر.

إنَّ الحروف المنقوشة عليها كانت باهتة جدًّا، غير أنها ما تزال مقروءة للذين يدققون النَّظر فيها. كان مكتوبًا عليها: «مزرعة القمر الجديد تُرحب بكم».

حينها خفق قلبي وتحرَّك شيء في خاطري، وقبل أن تنضج أي فكرة في رأسي، وفجأة، ظهر من مكان ما ساعٍ للبريد، أو هكذا خُيِّل إليَّ من هيئته، حيث كان يسيرُ على دراجة هوائية، بحقيبة جلديَّة تتدلَّى على كتفه، وطاقية كلاسيكيَّة تعتمرُ رأسه، وكان لا ينفكُّ يُحرِّك شفتيه كأنَّما يحادث نفسه!

تذكرتُ حينها على الفور عجلات الدراجة التي كنت أقتفي أثرها في بداية الطَّريق، ومضيتُ أطالع الرَّجل وهو يدنو مني شيئًا فشيئًا، وما إن صار على مقربة منِّي حتى التقت عيناي عينيه، وابتسم ابتسامة ذات مغزى، قبل أن يهتف دون توطئة أو مقدمات: «حظك جميل لهذا اليوم يا فتى».

- أأأأ.. أنا؟! لماذا؟!

- لا شك أنك أتيت من بُكرة هذا الصَّباح لمقابلة الكاتبة الشهيرة «إيميلي دوجلاس ستار»!

- في الواقع إني...

- في الواقع إنَّك محظوظ كما أخبرتك، فالسيِّدة إيميلي تقف هناك على سياج المزرعة، وفي حوزتها أولى النُّسخ من روايتها الجديدة، لقد جئت في الوقت المناسب...

ما إن فرغ من تلك الكلمات، حتى انطلق من فوره على متن دراجته. في حين بقيت بدوري مُتسمِّرًا في مكاني، وقد تجمَّدت الابتسامة الحائرة على وجهي!

على ما يبدو إن الانعطافات التي نتعثَّر بها في طريقنا، هي من تصنع القيمة الحقيقيَّة للرحلة التي نخوضها، وتجعلنا بشكل مفاجئ في أحضان الأمكنة التي لم نتوقع الوصول إليها!

فها قد وصلت إلى قاطنة مزرعة القمر الجديد على نحو دراماتيكيٍّ عجيب، وقد أدركت أن فتاة الرِّياح استطاعت أن تُعانق أرض الرَّبيع المنشودة، وتُصبح كاتبة مشهورة كما كانت تحلم في طفولتها.

بَدتْ ساهمة النَّظر في البعيد، تتأمَّل مليًّا في الأفق، تتأمله كما لو كانت تستجلب الإلهام وتنتظر هبوب الأفكار عليها كما دأبت على ذلك.

مع اقترابي منها، لم أجد البتَّة صعوبة في تمييزها، ذلك أنها ما تزال بهيَّة الطَّلعة كعادتها، ترفلُ برداءٍ هفهاف أسود اللون. لها أهداب طويلة تُلقي على خدَّيها ظلالًا خلَّابة، وشعر كستنائيٌّ يلهثُ من خلفها على نحو أنيق، وقد أرخَت على جبينها الأبلج غرَّة فاتنة، وعلى الجانبين تنسدلُ ضفيرتان تُزيِّنان ملامح وجهها المُترف بالحياة!

أسرفتُ في التَّحديق إلى هيئتها على ما يبدو، فتنبَّهتْ هي لذلك واكتسى وجهها تعبير متسائل يكتنفه الشَّك والرِّيبة، فلم يكن بوسعي عند ذلك، سوى تقديم نفسي كأحد القراء المعجبين بكتابتها، وطفقتُ أعرب لها عن تقديري لما وصلتْ إليه من نجاح باهر!

فأشرقتْ ملامحها وتلألأ وجهها بالحبور، ومضَتْ تُرحِّبُ بي بطريقة كلاسيكيَّة دأب الكُتَّاب على استقبال معجبيهم بها، قبل أن تقول بتواضع جمٍّ: لا قيمة للحرف الذي نرسمه، إن لم يتبعه رسمٌ على قلوب قارئيه.

ابتسمتُ مغمورًا بلطفها..

ولأنني أردت أن أقضي وقتًا أطول معها قبل استئناف رحلتي، حاولت التَّحجُّج بأي أمر يخطر ببالي، ويبدو منطقيًّا في الوقت ذاته، فمضيتُ أسألها عن الأدب والفنون وقضايا الحياة التي تؤثِّر على النَّفس البشريَّة ودوافعها...

أخذتْ تتحدثُ بتدفُّقٍ ذي شجون، ولم يكن الأمر بحاجة إلا إلى أن ترى لمعان عينيها في أثناء حديثها حتى تعرف كم هي مُغرمة بتلك التَّفاصيل التي تسكن عالمها.

في أثناء هذا، عادت بي الذَّاكرة إلى الوراء، وطافت في خيالي هيئتها وهي تُعاني الأمرَّين في سبيل نشرها لباكورة أعمالها الأدبية، فسألتها عن صُعوبة البدايات وأولى التَّجارب!

عند ذلك، مررتْ لسانها على شفتيها قبل أن تقول مُسترسلة كأنما تستجلب ذكرياتها من الماضي:

- كنت حينها أشعر أنني فراشة تحاول الطَّيران، وكنت أخشى على أجنحتي من الانكسار. كنت أخشى من الفشل، فما أتعس أن يشعر الإنسان بالفشل قبل أن يدخل التَّجربة، وأن يحكم على نفسه قبل أن يخوض المغامرة، إنه بهذا يُطلق سهمًا علـى نفسه قبل بدء المعركة، ربَّما شعرت أنني فشلت بالفعل، نعم، ربَّما هذا، ولكن دائمًا ما يكون للأحلام رأي آخر.

- كيف؟!

أجابت بعينين تشعَّان كالنُّجوم، وبنبرة يتجلَّى فيها خيال الكاتب الذي يصطبغ حياتها:

- إنَّ الذين يستطيعون مُصادقة أحلامهم، سيشعرون أنها تُواسيهم على الدوام. كنت أشعر بهذا طوال الوقت. كانت الأحلام تدفعني لمواصلة المشوار رغم كلِّ شيء يحدث معي.

كانت تقول لي: «بالصّبر تجمَّلي، حاولي لن تفشلي».

فابتسمتُ حينها وأنا العارف بلحن تلك الكلمات، ثم أصغيت باهتمام لحديثها الذي استرسلتْ به على نحو شغوف. كان صوتها هادئًا، صافيًا، عنيدًا، ويقطرُ بالثِّقة والفصاحة.

ساد الصَّمت لوهلة، ولم أشأ للحديث أن ينتهي، فسألتها بشكل عام عن النَّصائح التي تُوصي بها المواهب الجديدة التي تحلم أن تسلك دروب النَّجاح.

قالت حينها:

- على كلِّ صاحب لمسة إبداعيَّة وموهبة حقيقيَّة، أن لا يكترث بالمحبِطين من حوله، فالمحبِطون يُفسدون في عينيك كلَّ الطُّرق التي لم يستطيعوا السَّير فيها، وأن لا يكترث للنُّقاد المتعجرفين وأصحاب النَّصائح الغريبة، فإنه لا يُفسد درب الواثق إلا كثرة الاستشارة والالتفات إلى كلام المنتقصين!

ثم بمشاعر جيَّاشة مفعمة بالشجن والتَّأثُّر، راحت تستذكر نصائح أستاذها وهو يحتضر على سرير الموت، قبل أن ينقطع صوتها فجأة، وقد هبَّتْ تقول مُستدركة بكل حرارة:

- مهلًا، أنت من تكون؟!

تلعثمتُ حينها ولم أُحِر جوابًا.

صارت تتفحص هيئتي بشيء من الرِّيبة، وقد مطَّتْ شفتيها وقالت بنبرة مختلفة:

- أشعر أنني في مُقابلة صحفيَّة. هل أنت صحفيٌّ تابع لجريدة معيَّنة؟!

ثم بلهجة مُفكِّرة سريعة كأنما تخاطب نفسها:

- حتى إنك لم تطلب نسخة موقَّعة من روايتي الجديدة، كما أن وجهك ليس مألوفًا لدي.

تلكأتُ في الإجابة وشعرت لوهلة أن عليَّ أن أكون شخصًا عميقًا مُتفلسفًا كما يفعل المثقفون والأدباء، فقلت بشكل انتقائي للكلمات:

- تستطيعين القول إنني شخص يبحث عن أطياف القصص الطُّفولية التي أحبها ذات زمان، وعن زمن مفعم بالنَّقاء والبساطة والسَّلام أو باستطاعتك تسميتي.. الباحث عن الدهشة.

في تلك اللحظة، شاعت الدهشة في وجهها، وسألتْ باستغراب شديد:

- الباحث عن الدهشة؟! ما سر هذا اللقب؟! ولماذا اخترته بالتَّحديد؟! وما علاقة الطُّفولة بالدهشة من وجهة نظرك؟!

ابتسمتُ حينها، وأوضحت بالعمق والفلسفة ذاتهما:

- إنَّ الطُّفولة في صدر الإنسان تقاس بعُمر دهشته، ولعلَّنا نواصل هذه الحياة بمدى قدرتنا على البحث عن الدهشة وسط كلِّ هذا الموت المألوف.

فكأنَّما ألهبها الحماس والفضول في تلك اللحظة، طَلَبتْ مني أن أحدِّثها بشكل أكبر عن الزَّمن الذي أعيش فيه.

فقلتُ حينها إننا نعيش في زمن ما زالت الأيَّام تبدو فيه كمياه راكدة، وما يزال قمر الليالي الباردة ساهرًا لا ينام، ولكننا ما نزال نحاول المواصلة والتَّجمُّل بالصَّبر والصُّمود، لعلَّ الأحلام تطلُّ بأنوارها الفاتنة، وينجلي ظلام الأمنيات الدَّامس، وتُشرق الشَّمس وتنقلنا إلى أرض الرَّبيع الدائم ولو بعد حين.

فاستغربتْ حينها من طريقة صياغتي للإجابة، واستخدام مفردات شبيهة بمفردات عالمها، وصارت تسألني أسئلة فضوليَّة عن هذا.

ضحكت وقتها، وعلى سبيل الهروب من الإجابة الحقيقيَّة، تحججتُ بأن قلت:

- مع مرور الأيَّام، يجد القارئ نفسه شيئًا فشيئًا قد صار يتقمص شخصية الكاتب الذي يُحب، ويتحدث بالمصطلحات ذاتها التي يتحدث بها، فيختلط الأمر عليه، أصار يُشبه الكاتب بالفعل، أم أن الكاتب نجح في أن يكتب شيئًا شبيهًا لأعماقه الدفينة، وكأنَّما صارا شخصيَّة واحدة.

فامتلأت عينيها بالإعجاب والاعتداد، ثم ما لبثت أن استلَّت دفترًا صغيرًا من جيبها، واستأذنتني في كتابة شيء يُلح عليها، وكأنَّما حرَّضها كلامي على اقتناص فكرة ما، فابتسمتُ في داخلي وتفهَّمتُ نزق الكاتب ونواميسه، وتركتها تدوِّن ملاحظاتها بكل هدوء.

في أثناء هذا، رفعت رأسي ومضيتُ أطالع المكان من حولي، وبنظرة مدققة، حطَّت عيناي في تلك اللحظة على كوخ شاخص في البعيد، كوخ يشبه الأكواخ الدافئة التي تكون في الحكايات القديمة.

شدَّتني هيئته وساورتني العديد من الأفكار حوله، وعلى سبيل حب الاستطلاع والفضول، انفرجت شفاهي وسألتها عنه دونما تردد!

فابتسمتْ من فورها، وبينما هي ما تزال عاكفة على الكتابة، ودون أن ترفع رأسها، قالت:

- إنَّ ذلك الكوخ الذي يربض فوق التَّلة المرتفعة، تقطنه سيِّدة كريمة آثرت العيش ذات زمان في هذا الجبل، عوضًا عن الإقامة في القصور

الفارهة، وفضلت العيش في كنف جدها في ظلال المراعي بين المعيز والأغنام!

خَفَقَتْ إحدى الذِّكريات في صدري، فطلبت منها أن تُحدِّثني عن صاحبة الكوخ بشكل أكبر، فقالت واصفة إياها على نحو موسيقيٍّ مألوف: «مثل نسيم الهواء، هي للعليل دواء، هي للجرح شفاء، هي للصبح ضياء..».

عند ذلك ركضت الأحاسيس في ربوع مراعي الذَّاكرة الكرتونيَّة، وقلت لنفسي إنها «هايدي» بلا ريب.

هنا، انتبهت إيميلي لردة فعلي وانتعاش تقاسيم وجهي، فأسرعت تتساءل إن كنت أعرف السيِّدة أو قابلتها من قبل!

فقلتُ بشكل موارب إنني سمعت بحكاية طفلة تشبه مواصفاتها قبل سنوات طويلة!

حدجتني من زاوية عينها، وقد راحت تُهمهم برأسها وهي تواصل الكتابة:

- أمرك غريب أيها الباحث عن الدهشة!

ثم استمرت تقول:

- إنني مُرتابة منك ومن أسئلتك الفضوليَّة وردَّات فعلك.

ابتسمتُ حينها ابتسامة لا معنى لها.

ظللتُ ملتزمًا الصَّمت ولم أنبس ببنت شفة، فألفيتها تقول بنبرة مختلفة:

- ولكن على كلِّ حال، إن كان يعنيك أمر تلك السيِّدة، فهي ليست موجودة هنا هذه الأيَّام، أظن أنها خرجت برفقة سيِّدة تُدعى «كاتولي» من أجل الاستجمام من جهة، ومن أجل شراء أجراس جديدة لقطعانهم التي تسرح في المراعي الخضراء من جهة أخرى.

ثم أطلقت سلسلة من الضَّحكات على نحو غريب وقد راحت تصف الأمر بروح دعابة:

- واحدة مجنونة بالأغنام، والأخرى مُولعة بالأبقار، لا شك أنني سأكتب عنهما ذات يوم، ستكون رواية ساحقة النَّجاح بلا شك.

ضَحكتُ حينها وقد خِلتُ في قرارة نفسي أن تلك المرأة التي تشارك «هايدي» رحلتها، هي ذاتها «فتاة المراعي» التي كانت تردد على الدوام أنها تقود القطيع إلى رحب المراعي.

لم أشأ أن أتأخر عن مواصلة رحلتي، وعلى سبيل هذا، وبعد دقيقة من الزَّمن، تنحنحت واستأذنتها بالانصراف، فإذا بها تُعاجلني رافعة رأسها، وقد ناولتني روايتها وهي تقول:

- تفضَّل، هذه روايتي الجديدة التي تحكي عن الواقع الإنساني وأبعاده النَّفسية، إنها موقَّعة باسمي. أنت أول الأشخاص الذين أقابلهم فور وصولها إليَّ، ولهذا أنت تستحق هذا الاستثناء.

تناولتُ حينها الرواية بابتسامة مُمتنة، وبشكل مباغت، وجدتها تُصافحني بحرارة، وقد صارت تقول بصوت دافئ يقطر باللطف واللباقة:

- ولو كان أمرًا مريبًا بعض الشيء، وأشعر أنك تشبه أبطال الروايات التي أكتبها، ولكنني سعدت بلقائك أيها الــ... أيها الباحث عن الدهشة!

ابتسمتُ ابتسامة انبعثت من أعماق قلبي، وعلى وقع هذه الكلمات الدافئة، والابتسامة الآسرة لا تفارق شفتيها، مضيتُ وغادرت المزرعة.

في غضون دقائق معدودات، وما إن تواريت عن أنظارها بشكل تام، أوقفت دراجتي، وحملني الفضول على قراءة ما كتبت لي في الإهداء.

فوجدتها قد كتبتْ:

توقف عن السَّعي خلف شيء لا يُوقظ فيك الدَّهشة، وهذا ما سيضمن لك أن تظلَّ طفلًا للأبد..

* * *

بين طواحين الأيَّام نخفي أمانينا
نبحثُ عنها في الأحلام حين تُنادينا
لن نُدركها حين ننام بل ستُجافينا
نحسبها باتت أوهامًا وهي بأيدينا

- **طارق العربي طرقان**

# 4

عندما كنَّا صغارًا..

كنَّا نشعر أن الأمنيات قريبة رغم بعدها، وأن الأحلام ممكنة رغم استحالتها، وأننا سنفعل كلَّ ما بوسعنا من أجل تحقيق كلِّ شيء نهفو إليه، ولكن عندما كبرنا وخضنا مُعترك الحياة بشكل فعليٍّ، تبدَّلت المعطيات بشكل غريب.

تنازلنا عن العديد من الأمنيات من أجل راحة قلوبنا، وتخلَّينا عن الكثير من الأحلام من أجل سلامتنا النَّفسيَّة، ولفرط قسوة الحياة وشراستها كان لا بد من أن نستشعر كلمات الأغنية السبيستونيَّة التي تقول بالنِّيابة عنَّا:

«أمنية نطويها، نُرجئها نرميها، نُغفلها نخفيها، ننسى ما فيها، ننسى حتى الذِّكرى، فوق دروب منسية، تُصبح ظلًّا فكرة، بل أحلامًا وردية..»‏.

ولكن على ما يبدو أن الأحلام الورديَّة في هذه الرِّحلة من الممكن أن تتحول إلى أشياء حقيقية ملموسة، نستطيع رؤيتها والإحساس بها.

فها هو كلُّ ركن من حولي يفوح منه شذى، وكل طريق مؤهل لأن يقودني إلى حكاية، وكلما تقدمت خطوة واحدة للأمام، تحرَّك شيء كامنٌ في صدري، ونهضت ذكرى منسيَّة من بين طيَّات الأمكنة.

بينما كنتُ أسير بين الحقول الفسيحة، كنت أشعرُ بقشعريرة النُّوستالجيا تسري في عروقي بشكل مُتدفِّقٍ حالم، وكان لسان حالي يُدندن مع الأغنية التي تقول:

«يحتويني كـــلَّ حين أينمـــا حلَّيــتُ حــلَّ
آه مــن هــذا الحنيـــن للأيَّام الماضيـــــــة
أنــا مــن هــذا الزَّمـــان أمضــي فيـه ولســت إلا
فارسًــا أرخـــى العنــان للأيَّام الآتيـــــــة»

كان الطَّريق هذه المرَّة محفوفًا بالحشائش النَّابتة على أطراف البيَّارات والحقول الواسعة، وكان يهبط بي حينًا، ويصعد بي حينًا آخر.

عبرتُ بالعديد من البيوت البلاستيكيَّة والمشاتل، ومجموعة من حظائر واسطبلات وأقنان للدجاج، والكثير من البيادر الفسيحة التي كانت تميس فيها رؤوس السَّنابل المُثقلة، وتنحني بمهابة أمام مناجل المزارعين المتأهبين لحصدها، الذين لا يأبهون بمروري من جانبهم على نحو مستغرَب!

وفي هذه الأثناء، كان يتناهى إليَّ ثغاء وخوار الأغنام والأبقار التي فارقت مضاربها، وراحت سارحة تعتلف الحشائش في رحاب الكلأ وشعاب الأودية الخضراء التي تنتهي عند ضفاف السَّواقي البعيدة!

مع مرور الوقت، وصلتُ إلى مفترق يقسم الطَّريق إلى نصفين، فتوقفتُ حينها واحترتُ في أمري.

ضيَّقت عينيَّ وحدقت إلى تفاصيل الطَّريقين محاولًا المفاضلة بينهما، فلمحت في إحداها أشكالًا مرسومة بالعشب على نحو غريب!

استفزتْ تلك الأشكال فضولي، فارتأيت أن أسلك هذا الطَّريق بمشاعر مشوبة بالتَّردُّد.

ما إن تهادت خطواتي الأولى فيه حتى برز أمامي أول الأشكال المرسومة. استدرت على استقامة الشكل، وخُيِّل إليَّ حينها أنه حرف دال!

قطبت جبيني حائرًا، ثم اتجهت نحو الشكل الآخر على مضض، فوجدته فاصلة، ولكن ما إن قرأته على استقامة الحرف الأول ذاتها، فإذا هو حرف واو!

انتقلت بنظري نحو الأشكال التي تليها فوجدت أنها على مبعدة من هذين الحرفين المتلاصقين.

حينها، أطرقت مفكرًا، وبدا لي أن الحرفين لا يرمزان لشيء واضح!

رفعت رأسي ومشيت نحو بقية الأشكال لعلِّي أستدل على شيء ما.

في تلك اللحظة صادفني حرف الرَّاء، فازدادت حيرتي أكثر من ذي قبل، ثم وقعت عيني على حرف آخر يُلاصقه وهو حرف الياء، وقد صار بينه وبين الأشكال الأخرى مسافة فاصلة.

حككتُ عقلي، وحاولت تخمين المعنى المراد من هذه الحروف، فتراءى لي أنها ليست حروفًا عشوائية.

جربت قراءة الحروف التي اجتمعت أمامي، وصرت بعدها أمرٌّ ببصري على كلِّ الحروف قاطبة، فخطر ببالي في تلك اللحظة أنني أمشي في طريق موسيقيٍّ!

حيث لاح لي أنَّ الحروف المرسومة، ما إن نظرتَ إليها وقرأتها من السَّماء بشكل أفقيٍّ واحد، ستجد أنها تدل على رموز السَّلالم الموسيقيَّة الشهيرة: «دو ري مي فا صول لا سي دو»!

عند ذلك، خفق قلبي ووعيتُ إلى الأمر، وخطر لي بشكل فوري أنه من البدَيهيِّ وجود إشارات موسيقيَّة هنا، فهذه هي أرض الموسيقى والألحان الشادية بامتياز!

إلى هذه اللحظة، ما تزال الكلمات السبيستونيَّة عابقة في حنايا صدورنا بطريقة راسخة، وما تزال موسيقاها تتردد في مسامع وجداننا بطريقة فريدة، كما لو كانت قد انطبعتْ في أعماقنا، وقررت البقاء كرائحة وفية للأبد.

كان «طارق العربي طرقان» ينسج حروفه ويغزل ألحانه وهو يقول بكل ما أوتي من يقين: «أومن بأن الطِّفل لا يكتفي بألحان الأغنية نفسها، بل هو قادر على امتصاص واستيعاب المعاني والكلمات لتكون جزءًا من بناء شخصيته».

وكانت «رشا رزق» تصدح بصوتها وتقول: «عندما نقوم بتأسيس جيل نعطيه موسيقى جيدة، فإننا نرفع من سويَّة الفنِّ لديه، ونسرق مسامعه إلى موسيقى راقية».

وكأنَّما كانت المعطيات تراهن على حاسة الفنِّ المستقبليَّة لدينا، وبالفعل نجح الرهان بامتياز ليس له نظير، حيث ارتقت الموسيقى السبيستونيَّة بذائقتنا منذ نعومة الأظفار، امتزجت بشخصيتنا وساهمت في وعينا الموسيقيِّ بطريقة مذهلة، وإدراكنا العميق للحن الذي يُعانق اللغة العربيَّة الفصيحة، وبقيت نغمًا فريدًا يختلف عن أي نغم سمعناه بعد ذلك.

بهذه المشاعر الموسيقيَّة، مضيتُ بجذل أواصل الطَّريق وأنا أستذكر بعض الأغاني الكرتونية التي زارت ذاكرتي في تلك اللحظة!

بعد هذا بوقت قصير، مررتُ بمجموعة من الأغنام كانت تسير بشكل مُنفلت، على الرغم من وجود صبيٍّ يهش العصا عليها بين لحظة وأخرى.

وسط ثغاء تلك الأغنام، وبشكل تلقائي ودون هدف معين، مضيتُ أعدها واحدة تلو الأخرى، فإذا بها عشرة أغنام!

ضحكتُ حينها في داخلي، وبإيقاعٍ مُتسارع أخذتُ أردد كلمات الأغنية الطريفة التي تقول: «عشرة أغنام في المرعى، تأكل تجري تقفز تسعى..».

مضيتُ أواصل الرِّحلة، وما هي سوى لحظات حتى لمحت ثلة من الأولاد يجلسون على ربوة معشبة.

ما إن دنوتُ بشكل أكبر واتَّضح المشهد بشكل جلي، حتى تناهت لي أصواتهم، وتبين أنهم يتحلَّقون حول سيِّدة تلوح بيديها الاثنتين كما لو كانت مايسترو يقود فرقة موسيقيَّة.

طابَ لي المقام في حضرة هذا النَّغم، ولأنني كنت أحسُّ بتشنج أقدامي وتيبُّس ظهري في تلك الآونة ركنتُ الدراجة جانبًا، ثم عمدتُ إلى شجرة جاثمة على جانب الطَّريق، وأخذت أطالع الأولاد مغمورًا بظلها، وبعبير الخزامى الذي كان يفوح في الأرجاء.

ما هي سوى لحظات حتى همد صوتهم الصَّادح، وساد شيء من سكون الطَّبيعة وفلسفة الأشجار الهادئة، وبقوا في أماكنهم كأنَّما يأخذون قسطًا من الرَّاحة.

عند ذلك، وفجأة، سمعت صوت صرير ينبعث من مكان ما، فالتفتُّ بسرعة أبحث عن مصدر الصَّوت، فإذا برجل غريب كان منهمكًا في جرِّ عربة كبيرة أمامه.

أخذتُ أحدِّق إلى ملامحه التي صارت تقترب شيئًا فشيئًا، فوجدته يحمل سيماء ملامح ريفية. كان مُستدير الوجه، مُفلفل الشَّعر، قوي البنية كجزَّار. يرتدي قميصًا كاكي اللون من فوق بنطال نيلي بحمالات عريضة على النَّمط الرِّيفيِّ القديم.

التقت عيناي عينيه دون أن ينبس ببنت شفة، بيد أنَّه سلَّط عينيه على الدراجة، وراح يمعن النَّظر إليها على نحو فضولي.

ظللتُ أحدق إليه. ارتفعت شفته، ولكن، أطبق فمه بسرعة، وكأنَّما كان على وشك التَّفوه بحديث ما، ولكنه تراجع عن ذلك لسبب لا أعرفه.

مسح عرق جبينه واتقى أشعة الشمس بكلتا يديه، وصار بعدها يطالع الأطفال المتحلِّقين حول السيِّدة بصمت، ولكن صمته لم يستمر طويلًا، فما إن صوَّب عينيه نحو الدراجة من جديد حتى سلَّمَ عليَّ وقال بشكل حائر:

- أظن أنني رأيت دراجة تشبه درَّاجتك قبل أيَّام، ولكن الدراجة التي رأيتها كانت تطير في الهواء، فهل درَّاجتك تطير أيضًا؟!

قطبتُ جبيني أحاول استيعاب ما قال دون أن أنهض على أقدامي. كدت أن آخذ الموضوع على محمل المزاح والضَّحك، ولكن ما إن رأيت ملامحه الجادَّة حتى تبدَّل موقفي، وصرت أفكر في نفسي إن كان يُمكنُ للدراجة أن تطير بالفعل! أو أن لديها قدرات خارقة لم أتعرَّف عليها بعد!

في تلك اللحظة فحسب، نهضت رأسًا ومضيتُ أطالع الدراجة بشكل متفحِّص، كمن يبحث عن أجنحة غير مرئية أو كبسة زر سحريَّة.. قبل أن أسأله مُستوضحًا عن تلك الدراجة الطَّائرة التي شاهدها قبل أيَّام، وعن هويَّة الشخص الذي كان يعتليها!

حينها، تلعثم لسانه وهو يقول إنه لا يعرف أكثر من كونها دراجة خارقة تحلِّق في الهواء بمسافات عالية، وأن الشَّخص الذي كان يعتليها شاب غريب بشعر قرمزيٍّ اللون، وله غرَّة طَويلة بخصلات شقراء تثير الانتباه!

عند ذلك، اختليتُ بذاكرتي قليلًا، وأحسست أنني من الممكن أن أستدل على هويَّة هذا الشَّاب!

بعد دقيقة من البحث في سجلات الذَّاكرة السبيستونيَّة، خطر لي أن يكون الدرَّاج الذي رآه هذا الرَّجل الرِّيفيُّ، هو ذاته الشاب الجسور الذي كانوا يقولون عنه ذات زمان: «دَرَّاج كالشهاب، دَرَّاج لا يهاب، صُخور التِّلال، حينًا يخوضُ في الماء، وتارة في الفضاء، للشجاعة مِثال، طُموحه هو الكمال».

ما إن توصلتُ إلى هذا الاستنتاج حتى أضمرته في نفسي دون أن أفصح عنه، وفيما ظللتُ حائرًا في تلك اللحظات وأتساءل عن سبب وجوده في هذا المكان وعن الغاية التي جاء من أجلها، وفجأة، تعالت أصوات الأطفال المنشدين من جديد، فانصرف تركيزي نحوهم، شأني بذلك شأن الرَّجل الرِّيفيِّ. مكتبة سُر مَن قرأ

شنَّفتُ أذنيَّ على الفور، فسمعت صوتهم الفيَّاض بالحياة وهو يحاول معانقة السَّماء من فرط الشعور، وفي لحظة واحدة، خيِّل إليَّ أنني سمعتهم يهتفون ويرددون: «في دروب، هيَّا نغني، في المسارح والسَّاحات، في الحقول هيَّا نغني، ينطلق لحن الحياة..».

فانتشيتُ من فوري وأكملت النَّشيد بتلقائية الطِّفل بداخلي إذ مضيتُ أقول: «هيَّا للأفق البعيد، ننشد اللحن الجديد، فوق أسراب الغيوم، نهدي أقمارًا ونجوم..».

عند ذلك، وبشكل تلقائيٍّ مُدرك، لاح لي أنني عرفت هوية السيِّدة التي تجلس في المنتصف، ولتأكيد الشك الذي ساورني سألتُ الرَّجل الرِّيفيَّ عن هويتها، فقال وقد ضيَّق عينيه وصار يقول بشكل مؤثِّر:

- إنَّها سيِّدة تكرس حياتها لتعليم أحفادها حبَّ الحياة من خلال الموسيقى، سيِّدة تضجُّ ذاكرتها بلطخات الحروب ورائحة البارود!

استوضحت منه عن ماهية هذا الوصف الجريح، فأوضح يقول إنها عايشت الحرب التي عصفت في بلادهم ذات ردح من الزَّمان!

هززتُ رأسي حينها متفهمًا، وقد عدت بالذَّاكرة إلى الوراء ومضيتُ أستحضر تفاصيل قصة مربية الأطفال، تلك المربية التي استطاعت نيل قلوب أطفال السيِّد ربيع واستمالتهم نحوها قبل أن تصبح زوجته.

ندَّتْ عني تنهيدة، وتذكرت كيف كانت تُغنِّي للوطن حين فارقته، وكيف كانت تُغنِّي حين رجعت إلى أحضانه. كانت تغنِّي بصوت مُتهدِّجٍ مُغترب صابر: «لن تُباعدنا أيها السَّفر، نلتقي يومًا وفي الدنيا قمرُ»، وكأنها كانت تُصدِّق على حقيقة أنه مهما تباعدت المسافات لا بد من لقاء في نهاية الحكاية!

وعلى ما يبدو، ها هي رغم مرور السَّنوات، لم يَزَلْ فيها الوفاء عابقًا في وجدانها، ما تزال تُفتِّش الدروب وتُنقِّب بين المعاني باحثة عن ربيع الأمنيات، كما لو أنها ما فتئت في السَّنوات الماضية تُردِّدُ كلَّ صباح:

«غنُّوا للحب وهللوا، حُبُّنا نور وعيد، العصفور غنى مثلنا، منشدًا لحن الوجود، غنُّوا معي غنُّوا معي ما أجمل القيثارة، دومًا على أنغامها نستقبل النَّهارَ..».

لعلَّها ما تزال تُعانق فجر الذِّكريات عبر السَّلالم الموسيقيَّة التي أسندتها على جدران العُمر!

لعلَّها تحاول من خلال الموسيقى أن تخمد أصواتًا أخرى في داخلها!

ربَّما علينا أن نكون مثل الآنسة صفاء في هذه الحياة!

فما أحوجنا إلى أن نُنشد لحن الحياة بطريقتنا رغم كلِّ موسيقى الموت التي تصدح في حجرات صدورنا، لعلَّنا نستطيع الوصول إلى الأفق البعيد من أيَّام هذا العمر.

في غمار كلِّ هذه المشاعر، وفجأة، نفضتُ رأسي على صوت الرَّجل الذي كان يكرر سؤاله دون إدراك منِّي لما يقول:

- كأن هذا النَّشيد يعني لك شيئًا مهمًّا؟!

فوعيتُ حينها أنني وبينما كنت شاردًا في قصة هذه السيِّدة، كنت في الوقت ذاته أتمتم بكلمات النَّشيد بشكل مبرمَج دون أن أعي، فقلت بنبرة مفعمة بالحنين:

- لا أعلم.. أظن هذا، أعتقد أنني كنت أردد نشيدًا مثله حين كُنت طفلًا صغيرًا.

انتعشَ الرَّجل وقال على نحو غريب:

- أوووه.. هذا رائع يا صديقي.

ابتسمتُ بعفوية وتساءلت:

- ما هو الرَّائع بالتَّحديد؟!

- ما أروع أن يبقى الإنسان وفيًّا لطفولته، الجميع في هذا العالم يريد منك أن تنسى أنك كنت طفلًا ذات يوم...

عند ذلك، هززتُ رأسي مبتسمًا ابتسامة واسعة، وقد استشعرتُ عُمق الكلمات التي تفوه بها.

وللحظة، خطر لي أن أسأله عن طفولته، وعن الأغاني التي كان يرددها حين كان طفلًا.

ولكن، وبشكل مفاجئ، تغيرت سِحنَة الرَّجل ومال وجهه إلى الشُّحوب، وكأنَّما سُئل سؤالًا يتحاشى الغوص في إجابته لسبب مجهول!

ولَّى ظهرهُ بعد لحظات على نحو مبهم، وقد عمد إلى إحدى الشجيرات التي كانت على مقربة منه.

قطع غُصنًا مُتدلِّيًا منها دون ذريعة واضحة.

مرَّت وهلة من الوقت قبل أن يقول بصوت متأنٍّ، مُتحشرج، ودون أن ينظر إليَّ:

- كنت ولدًا مشاغبًا، ولدًا يكرهُ المدرسة والقوانين، ويحب المغامرة والمخاطرة أنَّى وجدَت، وعلى ما أذكر، كنت في تلك الأيَّام أردد مع أطفال القرية نشيدًا يقول: «حياتنا، مَسرَّة، غصنٌ نظير مُثمر، براءة، صداقة، حلمٌ جميلٌ أخضرُ».

قال تلك الكلمات وهو يلوِّح بالغُصن في يده، كما لو كان يتخيَّل نفسه طفلًا صغيرًا، قبل أن يقول بنبرة عاطفية:

- ذات زمان كانت الدهشة عارمة، وكانت الحياة بسيطة، وكان الفرح في المتناوَل، ولكن اليوم تغيَّر كلُّ شيء، وما عدنا نشعر بطعمِ الحياة!

استوضحتُ منه عن السَّبب، ولكنه لم يوضِّح أي شيء!

إنما اكتفى بابتسامة حاسرة على زاوية فمه، ومضى بقلبٍ مُشبع بالأسى يجرُّ العربة، مُكملًا طريقه بصمت مُطبق.

ظللتُ حينها مشدوهًا أطالع خطواته التي أخذت تبتعد شيئًا فشيئًا عن ناظري، وخطر لي أن هذا الرَّجل الحزين هو ذاته الصَّبيُّ الشقيُّ «توم سوير»، الصَّبيُّ الذي كانت تهتف الحياة في صدره وتواسيه قائلة: «مهلًا مهلًا، لا تتعجل وتمهل فالقادم أحلى..».

أمر غريب! على ما أذكر أن الحياة كافأته في نهاية القصة هو وصاحبه المشاكس «هاك»، وصارا بعد ذلك من أصحاب الأموال الطَّائلة، ويفترَض أنهما يعيشان الآن في كنف حياة هانئة رغيدة، فلم كلُّ هذا الحزن الذي يعتريه بعد كلِّ هذه السَّنوات؟! ما الذي يفتقده ويحتاج إليه في هذه الأيَّام؟! هل عادت الحياة لتوجعه بعد أن ظنَّ أنها أفلحت في مراضاته والتَّخفيف عنه؟!

تنهَّدتُ تنهيدة حائرة، ثم امتطيتُ الدراجة في سبيل استئناف رحلتي.

وفي غُضون نصف ساعة من الزَّمان، وما إن وصلتُ إلى نهاية الحقول الشَّاسعة، وشرعتْ أحراش الغاب في الظُّهور، حتى انقبض صدري بشكل مفاجئ، وانتابني شعور يشي بأن شيئًا ما على وشك الحدوث...

* * *

# 5

عالقون نحن في المنتصف، عالقون بين نضج عقولنا وطفولة قلوبنا، بين مرارة الوعي ولذته، وبين قسوة الجهل ونعمته، بين أطياف الماضي وخيالات المستقبل، بين حصار الذِّكريات وفظاعة الاحتمالات، بين نبضات قلوبنا القديمة، ولهفات قلوبنا الجديدة، بين تراث الجيل القديم وطقوس الجيل الجديدة، بين سطوة الزَّمن المتطور وبساطة الزَّمن الجميل، لسنا قادرين على الاندماج بسهولة في هذه الحياة، فنحن في حالة شعور دائم بأننا أصبحنا كبارًا، ولكن بداخلنا ما نزال أطفالًا، عالقين، ونخشى أن نظل هكذا إلى نهاية الحكاية...

بيد أنني في تلك اللحظة، كُنت عالقًا بين براثن مشاعر مضطربة من نوع آخر.

حيث إنني وما إن صرت على تُخوم الغابة، وتبدت لي الأدغال العميقة المترامية، حتى اكتسحني شعور غريب بالرَّهبة، واعتراني إحساس غريزيٌّ بالخطر، وصرت عالقًا بين ترددي المفاجئ، وولعي الشديد بالبرامج الكرتونية التي كانت تدور أحداثها في الغابات الخضراء!

كنَّا ذات زمان نُغنِّي ونهتف في «حكاية فرحان» بكل ما أوتينا من مرح واعتداد: «من بين كلِّ المخلوقات بالعقل امتاز الإنسان، رِحلتُنا بذكاء بدأت ونَمَتْ حتى الآن..».

كنَّا وقتها نتباهى بالعقل الممزوج بالخيال الطُّفولي الجامح، الخيال الذي كان يصوِّر لنا أن بإمكاننا أن نرسم غابة افتراضية بمجرد نثر بعض الحيوانات البلاستيكيَّة أمامنا.

كُنَّا نُحرِّك تلك القطع كيفما نشاء، نتقمص أصواتها، ونستنطِقُها، ونستعير فروها، ونُكشِّر عن أنيابها في تلك النِّزالات التي كُنَّا نختلقها بين تلك الكائنات!

أما في تلك اللحظة الرَّاهنة، فقد تبدلت الشجاعة التي كانت تعتريني في أثناء إدارتي لتلك الغابة الافتراضيَّة، إلى رهبة وحرص على نمو هذه الرِّحلة السبيستونيَّة، ولم أعرف ما الذي سيفعله العقل الآن أمام مخالب العالم البهيميِّ!

رأيت المشهد بعين الخوف، فأبصرت الكثير من الحيوانات المفترسة التي تسكن أحشاء الغابة، والفخاخ والمنحدرات الخطرة التي تقبع في جوفها، فصرتُ أبحث عن طريقة تمكِّنني من العبور بسلام وسط تربص الكائنات السَّاكنة في ثناياها!

وفي غمار هذا، وفجأة، أحسستُ بحركة في السَّماء، فرفعتُ رأسي ولمحت حينها طائرًا عملاقًا يحوم في المكان، يخفق بجناحين عظيمين، يفرد جناحيه بتوازن عجيب، ويهبط عموديًّا على نحو منساب، ثُمَّ يصعد من جديد بمنتهى الشُّموخ، كأنما هو طائر أسطوريٌّ!

اتَّسعت حدقتا عينيَّ وظللتُ مُشرئب العنق، مشدوهًا أنظر إليه.

في هذا الكوكب ليس من السُّهولة أن تستطيع التَّكهن بحقيقة المخلوقات التي تراها مُحلِّقة في السَّماء، فلم أستطع معرفة إلى أي فصيل من الطُّيور ينتمي!

أخذت أطيل النَّظر إليه فإذا به قد صار يُحلِّق فجأة بشكل حلقات دائريَّة واسعة، ويتصرَّف على نحو غريب مُبهم!

تساءلت وقتها عن معنى هذا، وأحسستُ لوهلة أنه يوجِّه إليَّ رسالة معينة عليَّ التقاطها وترجمتها، وربَّما يكون وجوده بمحض ذاته هو إشارة لشيء متعلِّق بالطَّريق!

في غمار هذه الحيرة العارمة، خفقتْ أجنحة ذكرى قديمة، وخطر لي أن يكون هذا الطَّائر شبيهًا بالطَّائر الذي سمعتُ عنه في حكايات الأدغال الافتراضية، ذلك الطَّائر الذي كان يُنادى عليه بصوت مفعم بالأمل: «يا طائري المُشرق، في أحلامي حلِّق، طيفًا للمُنى..».

بدا لي الأمر أنه ضرب من الجنون، ولكن لم يكن لدي أي تخمين آخر، وفي الوقت ذاته، خطر لي على نحو جنوني آخر أن أناديه بملء صوتي. أن أستجير به وأخبره بخوفي الشديد، لعلَّه يُسعفني ويحملني في جولة من فوق الغابة، أو يخبرني على الأقل بالخطوات التي يتعيَّن عليَّ فعلها كي أنجو من فخاخها وأنيابها!

بعد مدَّة قصيرة من هذا، وفي لحظة واحدة تشبه الخيال، سمعت صوت صدى غريب ينتقل إليَّ عبر الهواء، أصغيت للصوت وأغمضت عينيَّ، فانساب في مسامات جسدي شيء يشبه الهذيان، وخيِّل إليَّ أن الصَّوت يقول: «العقل لا يُجدي من دون التَّحدي وروح المغامرة»!

ظللتُ مُتخشِّبَ الملامح للحظات، ثم ما لبثتُ أن ابتسمتُ ابتسامة الذي خيِّل إليه أنه صار يفهم منطق الطَّير، وأنه فهم فحوى الرِّسالة التي وصلت إليه عبر الهواء!

فما كان مني إلا أن شددتُ أواصر المغامرة التي ارتخت للحظة من الزَّمن، وعلى مضض ضروريٍّ لا بد منه، أقنعت نفسي بفكرة أن سرعة الدَّراجة ستخفِّفُ عليَّ وطأة الأهوال والمخاطر، وأن الأرض التي أحببتها في شاشة طفولتي لن تغدر بي على أي حال من الأحوال!

واصلت السَّير مُحمَّلًا بهذه الأفكار الطَّريَّة التي لا ضمانات فعليَّة لها، وما إن صرت قاب ولوج إلى الغابة، وفي لحظة مفاجئة، حدث شيء لم يكن بالحسبان، حيث برز أمامي شخص غريب، وقد وقف في طريقي على نحو مريب!

ما إن طالعت هيئة الرَّجل حتى انقبض صدري انقباضًا شديدًا، إذ كانت هيئته مهيبة جدًّا؛ قوي البنية، مشدود الصَّدر بعضلات مفتولة، تلوح في عينيه نظرة شزرًا، وتلمعُ من خلفه رؤوس سهام متراصة في جُعبة يحملها على

كتفه العريضة، شأنه بهذه الهيئة شأن حُرَّاس الغابات الذين سمعنا عنهم في القصص التي كانت تُقَصُّ على مسامعنا قبل النَّوم!

توقفتُ كمن يتوقف على إشارة مرورية، ينتظر منها أن تسمح له بالعبور بابتسامتها الخضراء.

للحظة من الزَّمن، لم نتبادل أي تحية.

لم يبتسم الرَّجل ولا نصف ابتسامة، إنما مضى يخترقني بنظرات صارمة حادَّة، وشفاه مُتشقِّقة ممطوطة، قبل أن يقول بنبرة استجواب:

- ما الذّي جئت تبحث عنه في الغابة أيها الفتى؟! ماذا تريد من هنا؟!

ارتعشتْ أطرافي لوهلة، وكدت أن أتقازم أمامه في تلك اللحظة، ولكن ازدردتُ ريقي وقلت بنبرة جاهدت قدر المستطاع أن تكون نبرة إنسان واثق من نفسه:

- إنني متوجِّهٌ إلى البحر، ولا بد لي من عبور الغابة من أجل هذا المأرب.

زورني حينها زورة حادَّة قبل أن يقول بصوت أجش:

- على ما يبدو أنك غريب، ولا تعرف شيئًا عن المخاطر الموجودة في الداخل.

- بلى، بلى أعرف أن الطَّريق في منتهى الخطورة، ولكن يجب عليَّ العبور بأي طريقة.

- تعرف هذا وأتيت وحيدًا بمفردك؟!

- لا أحد يختار أن يكون وحيدًا بمحض إرادته، ولكن في بعض الأحيان تجد نفسك مرغمًا على خوض الطَّريق بمفردك..

- هذا جواب فلسفيٌّ لا قيمة له هنا في الغابة، من المفترض أن يكون معك كلب يحرسك، أو قوس يذود الخطر عنك على الأقل.

ثم أضاف يقول على نحو كنت أخشاه:

- الأفضل أن تثوب إلى رشدك أيها الفتى وتعود أدراجك من حيث أتيت.

عند ذلك، وفي ظلِّ صرامة أسلوبه الذي أخذ يتصاعد، كبحتُ ردَّة فعلي والتزمت الصَّمت للحظات، قبل أن أحاول مداراته وأستخدم طريقة فلسفية هادئة لعلَّها تُسعفني في العبور ومواصلة الرِّحلة.

قُلت:

- إنَّني أعلم أن الطَّريق في منتهى الخطورة، وأن الإقدام عليه يُعَدّ الجنون بعينه، ولكن هذا ليس دافعًا للتراجع، فأحيانًا لسنا نحن من نختار الطَّريق الذي نسلكه، نشعر أنه كُتب علينا من أجل اختبار قوة الحلم في صدورنا، ولهذا، نجد أنفسنا مدفوعين بقوَّة خارقة غريبة لمواصلة الرِّحلة مهما كلَّف الثمن.

حينها زوى الرَّجل ما بين عينيه، قبل أن يُقهقه متهكِّمًا ويقول بطريقة مستفزِّة:

- الجميع يستطيع ادِّعاء الشَّجاعة، هذا أمر سهل، أمر سهل جدًّا، يُتقنه أولئك الذين لا يعرفون ماذا ينتظرهم في الطَّريق، ويحترفه المجانين الذين لا يكترثون لشيء.

اندفعت حينها، وقلت بحذاقة كأنَّما ألقي ورقة رابحة في هذا النِّقاش:

- لعلَّ المجانين هم الأقدر على مواصلة المشوار...

بحلق إليَّ مستغربًا دون أن يُعقِّب، فانتهزتُ حالة التَّفوق في النِّقاش، ومضيتُ أخبره أنني تعلمت حكمًا عديدة من هذه الأرض، تحتم عليَّ أن أمضي في طريقي دون التَّفكير للحظة واحدة في الرجوع.

ثمَّة حكمة سبيستونيَّة تقول:

«من لا يحتمل الصِّعاب، دومًا يؤثر الانسحاب، لا يرى في الأفق إلا السَّراب.. يُبدع في رسم الفشل، يمشي ويدوس الأمل، لا يلقى في الدرب إلا العلل».

عند ذلك فحسب، لانت قسماتُ الرَّجل، وانحسرت علامات الوجوم عن وجهه بشكل جزئي.

لا أعرف إن كان فهم ما أعنيه، أو أنه استسلم لعنادي فحسب، بيد أنني أحسستُ وقتها أنني تمكَّنتُ من نيل جواز العبور والخلاص من نقطة التَّفتيش التي نسجها بتساؤلاته.

وهذا ما حدث بالفعل..

حيث راح فجأة يربت على كتفي، وصار يبارك رحلتي بملامح بقيت فاترة، كأنَّما هو رجل لا يعرف الابتسام.

على نحو مُلحٍّ، حثَّني على توخي الحيطة والحذر، قبل أن يقول على نحو ناصح:

- ستجدُ في طريقك كوخًا خشبيًّا قديمًا يسكنه رجل حكيم، هذا الرَّجل سيساعدك على تذليل العقبات التي ستواجهك. حاول العثور على هذا الكوخ قبل أن يجنَّ الليل عليك، وقبل أن تؤوب الطُّيور إلى أعشاشها. متى ما وجدت هذا الكوخ عليك اللجوء إليه، ولا تفكِّر في الخروج لأي سبب من الأسباب إلى بزوغ فجر اليوم الذي يليه.

هززتُ رأسي حينها وأنا بالكاد أستوعب ما سمعت، ولكن عنَّ ببالي أنني قد لا أجد هذا الكوخ، فسارعتُ إلى القول بشكل تشاؤميٍّ:

- أخشى أن لا أجد الكوخ، فماذا أفعل حينها؟!

- الموضوع ليس معقدًا كما تشعر، إن بقيت تمشي في الطَّريق بشكل مستقيم، ولم تستسلم لانحناءات الطَّريق ومُغرياته، سأضمنُ لك أن تبلغ مُرادك بأسرع مما تتوقع.

ابتسمتُ حينها على مضض، قبل أن أستمع إليه وهو يردف مُحذِّرًا على نحو غريب:

- وانتبه من اللصوص في رحلتك.

هززتُ رأسي مستغربًا من هذه النَّصيحة، قبل أن أقول باسمًا:

- اطمئن، ليس في جعبتي إلا ذاكرة طفل، وأطياف حكايات أشتاق الرُّجوع إليها، ورائحة فرح أتمنى معانقته، ورواية موقَّعة من أنامل كاتبها.

قطَّب وقتها الرَّجل جبينه، كأنَّما استغرب من هذا الرَّد!

ظلَّتْ ملامحه جامدة لفترة من الوقت، قبل أن يقول بنبرة ذات مغزى:

- احذر أن تُسرق إنسانيتك منك، فأنت تعيش في زمان أسود عجيب، يسلبُ من النَّاس إنسانيتهم علــى نحو مفاجئ، ويجعلهم على شكل جثث مُتحرِّكة، لا تعرف قيمة الحياة، وليس لديها أدنى شعور بغيرها.

اكتفيتُ حينها بهزٍّ رأسي، وقد خالجني شعور حائر بمغزى هذه العبارة الإنسانية، وعلاقتها الوطيدة برحلتي التي أخوض غمارها!

وفيما كنت أهمُّ بالعبور والدخول إلى الغابة، وفجأة، مد الرَّجل يده لاعتراض طريقي وهو يقول:

- لحظة، بقيت مشكلة واحدة.

- ما هي هذه المشكلة؟!

أجاب وقد سلَّط عينيه الجاحظتين نحو الدراجة:

- من الأفضل أن تدخل دون الدراجة.

وقع قلبي بين أقدامي:

- من المؤكد أنك تمزح...

- أبدًا، أنا لا أمزح مع أحد.

- طيب، ما المشكلة في أن تظل معي؟ إنني أشعر أنها ستساعدني كثيرًا في الداخل، إنني في أمسِّ الحاجة إليها.

- ستُشكِّل خطرًا كبيرًا عليك. صدقني، إن الغابة وعرة جدًّا. مليئة بالحفر والأشواك والشعاب المعقَّدة والمنحدرات الخطرة والوديان السَّحيقة. اسمع نصيحتي ولن تندم.

تبرمت متأففًا وانكمشت على نفسي..

ارتبتُ قليلًا في الأمر. ملأتُ فمي بكرة من الهواء، ومضيتُ أحرك الكرة يمينًا وشمالًا لمدة دقيقة كاملة.

خلال هذه الدقيقة، لم أتذكر إلا الرِّسالة التي استلمتها فور وصولي إلى هذا الكوكب، وأن ثمَّة إشارات عليَّ اتباعها حتى أتمكن من العبور بسلام نحو المحطة الختاميَّة، فارتأيت حينها أن آخذ بنصيحته وأن أترك الدَّراجة وأكمل رحلتي دونها.

والحسرة تملأ جوانحي، تناولت الحقيبة الجلدية من صندوق الدراجة. وضعت الحقيبة على كتفي، ثم ركنتُ الدراجة إلى إحدى الشجرات الهرِمة.

لم يخطر لي البتَّة أنني سأفقدها في هذا الفصل المبكِّر من الحكاية، ولكن على ما يبدو، من يرِد مواصلة رحلته، عليه أن يتحمل خسارة الأمور التي لم يتوقع خسارتها...

في تلك اللحظة، وعندما رآني الرَّجل أشيِّع الدراجة بعينين مفعمتين بالأسف، وعدني أنه لن يدع أي شخص يمسُّها في غيابي، وأنني سأجدها في انتظاري حال عودتي.

سخرتُ من هذه الفكرة وأبعادها..

هززتُ رأسي وابتلعت ريق استيائي على مضض. صافحتُ الرَّجل بهدوء كمن يبرم صفقة، ثم دلفتُ إلى الغابة بهدوء واحتراس رهيب، وقلب متوجِّس خائف مما سيحصل معه في الداخل!

* * *

# 6

اندسَّت مجموعة من الأرانب في جحورها. نعق أحد الغربان البعيدة، وتوارت ثُلَّة من السَّناجب خلف ظلال أشجار هرمة تشمخُ بقامتها عنان السَّماء.

رفَّ سربٌ من الحمامات المُعشِّشة في ثنايا إحدى الشَّجرات، فتطايرت أوراقها وتهادت هاوية رويدًا رويدًا أمام ناظري، تهاوتْ كما تتهاوى روح إنسان بعد ألف عام من الصُّمود.

ثمَّة شجرة عملاقة قُطعت حديثًا على الأغلب، وباتت تسدُّ الطَّريق، فعبرتُ من فوقها وواصلت السَّير تحت وقع تنهدات نسيم خفيٍّ، وأشعَّة شمس مُتكسِّرة، وحفيف أشجار رهيب.

مررتُ بغزال مبقور البطن، وقد تكوَّم عليه الذُّباب لدرجة تجلب الرُّعب والاشمئزاز. أشحت بوجهي عنه على الفور، وبعد وهلة بتُّ لا أنفكُّ عن مطالعة أحافير كائنات وأعقاب زواحف، ولا أتوقف عن الإصغاء لهمسات كائنات غير مرئية تنبعث من كلِّ زاوية في المكان.

غاصت قدماي في أعشاب كثيفة، واشتبكت حشائش في حذائي. دُست على كومة من أوراق الشجر اليابسة، فجفلت من صوت خشخشتها، قبل أن ترتطم حبَّة صنوبر بالأرض، وراحت تتدحرج أمام عيني.

توقف قلبي للحظة من الزَّمن.

اعتراني شعور مريب بأن ثمَّة من يُراقبني ويترصَّد خطواتي من بين الأشجار الباسقة الكثيفة، وفي زحام هذا الشعور، راحت تتعالى همهمات كائنات لا أستطيع إبصارها.

ثمَّة دمدمات تنسلُّ من بين أحشاء الأرض. طنين حشرات، قرقعة مجهولة، وفحيح غير مفهوم يتردَّدُ في مسامعي.

دبَّ القلق في صدري. هجست ببعض الوساوس والخيالات، فأوجست خيفة شديدة، وانتابني شعور أن الخطر قد بدأ بالتَّكشير عن أنيابه بشكل فعلي في هذه الرِّحلة!

بتلقائيَّة مدفوعة بالخوف، انحنيتُ بسرعة وتناولت أول غصن وجدته مُلقى على الأرض، ولكن الغصن الذي وجدته كان أضعف من أن يُستقوى به، فبحثت عن غصن آخر.

لم أتكبَّد أي عناء في مهمة البحث، فسُرعان ما عثرت على واحد أشد صلابة من الغصن الأول.

ما إن تناولته حتى رفعته من طرفه كمن يشهر سيفًا. طوَّحتُ به يمينًا وشمالًا، لأستشعر شيئًا من الأمان على وقع سياطه.

واكبتُ مسيري بخطوات مُرتعشة، راحت تجرُّ معها عقارب الوقت.

تسلَّطَ الإرهاق على نشاطي، واستحى الضِّياء وأخذت وجنته بالاحمرار، وراحت الشمس شيئًا فشيئًا تسحب خيوطها المتسلِّلة من بين الأجمات وأوراق الشجر.

في تلك الآونة، تعاظم شعوري بالخوف، وتذكرتُ الرَّجل الذي قابلته على مشارف الغابة وهو يُحذِّرني من فداحة السَّير في الظَّلام!

خلال هذا وبشكل لا إرادي، مرَّت في مخيلتي العبارة السبيستونيَّة التي تقول: «في ظُلمة الليل الدَّاكن، للشرِّ تلتمعُ براثن».

فلمعتْ تلك البراثن في عيني بشكل جليٍّ، ووقر الفزع في أعمق منطقة في صدري.

خشيتُ للحظة أنني كنت أنساق لتَعرُّجات الطَّريق بشكل لا إرادي دون أن أشعر، فطفقتُ مذعورًا أفتِّش في كلِّ الأرجاء عن كوخ الرَّجل الحكيم!

بقيت في طريق مستقيمٍ لا ألوي على شيء، أنبش في كلِّ زاوية تقع عليها عيني، كصيَّاد يُطارد فريسةً خفيَّة تُبقيه على قيد الحياة.

لم يعد الرُّجوع ممكنًا..

لا مجال للنظر إلى الخلف والتَّردد ولو للحظة واحدة، عليَّ أن أكمل هذا الطَّريق إلى نهايته مهما كلَّف الثمن.

مسحتُ قطرات العرق التي كانت تنزُّ من جبيني، وتمنيت للحظة لو بقيت الدراجة معي لكنت اختصرت الكثير من الوقت في عملية البحث.

رفعتُ رأسي بحثًا عن «الطَّائر المشرق» لعلَّني أجد أي إشارة تدلُّني وتخفف وطأة هذه الورطة عليَّ، ولكن حالت أغصان الأشجار المتشابكة دون رؤيتي السَّماء.

لم أستطع أن أظل مشرئبَّ العنق لفترة طويلة، فمضيتُ أطالع المكان من حولي.

بغتةً، حانت مني التفاتة، فلمحت في البعيد أرانب بيضاء لا أعرف من أين أتت!

كانت الأرانب تقفز في الأرجاء قفزًا، وتتمايل رؤوسها بانسيابية عجيبة، ولا تنفكُّ عن قضم عشب غير مرئي.

عند ذلك، وبحاسة الاستبصار الطُّفوليَّة التي ورثتها عن الحكايات الأسطوريَّة، غامت عيناي وأخذتني إلى متاهات بلاد العجائب، وتذكرت في تلك اللحظة كيف كانت أليس تتبع الأرنب الأبيض كلَّما تاهت السُّبل بها في تلك البلاد الافتراضية المسحورة!

ولكن الأرانب التي كانت أمامي في تلك اللحظة الرَّاهنة، كانت تتقافز بشكل تنافريٍّ في كلِّ مكان، فلم يكن بإمكاني حينها أن أقرر أيها عليَّ أن أتبع، فتبدَّدت فكرة أن تكون الأرانب البيضاء دلالة على شيء ما في هذه الرِّحلة.

مضيتُ أواصل البحث حتى كلَّت قدماي. أحسستُ بتعب شديد، ولكن لا وقت للاستلقاء في أثناء هذا الضياع، فهبوط الليل بات وشيكًا ولا سبيل إلا البحث عن الكوخ المنشود حتى أتخلَّص من كلِّ هذا العذاب!

أرغمت نفسي على السَّير..

مرَّت لحظات من البحث دون جدوى. أحسستُ ساعتها أن جهدي كلَّه قد ذهب سُدى. غَمرني شعورٌ عميق بالرهبة، واكتسحني شعورٌ بائس بالإحباط.

وفيما كانت الظُّلمة تتنحنح إذعانًا بقدومها، واستعد الليل لإرخاء سدوله بشكل كامل، في تلك اللحظة بالتَّحديد، وفجأة، خُيِّل إليَّ أنني لمحت شيئًا من خلف أيكة كثيفة من الأشجار.

حينها، وبسرعة البرق، دققت النَّظر كما لو كنت صيَّادًا ينظر إلى طريدته من عين بندقية.

بالكاد، تراءى لي جانب من بناء خشبيٍّ مسقوف بسعف نخل بطريقة فوضوية، فخفق قلبي وانتشيتُ نشوة الظَّفر بما أبحث عنه.

اندفعتُ إليه على عجل دون أي تفكير. أوشَكَتْ أن تصبح خطواتي السَّريعة هرولة، حتى إنني من فرط الاندفاع تعثَّرتُ بحجر وكدتُ أسقط على وجهي..

كان الخوف أكبر من أن يجعلني ألتقط أنفاسي المتعَبة عندما وصلت إلى باب الكوخ. طرقت الباب على الفور، طرقته غير مرَّة ولكن دون جواب!

ظللتُ متسمِّرًا حائرًا في مكاني، وفجأة، وفي لحظة مُرعبة، زعقت مجموعة من الطُّيور بشكل حاد، وخيِّل إليَّ أنني سمعت صوتًا غريبًا ينبعث من بين الحشائش، فأحسست أن هناك خطرًا وشيكًا..

ازدحم الدم في رأسي وارتعدت ساقاي.

حبستُ الأنفاس في صدري وسوَّل إليَّ الخوف أن أدفع الباب بسرعة دون تفكير. حينها، لم أعرف إن كان مِن حُسن حظِّي أن أجد الباب مفتوحًا، أم أنني كسرتُ تِرباسه من فرط خوفي، ولكن ما أعرفه أنني كنت داخل الكوخ في غمضة عين.

أوصدتُ الباب من خلفي وارتكزتُ عليه بكل جسدي المنهك المنتفض!

تنفَّستُ الصعداء بعمق شديد، لكن هذا لم يكن كافيًا لتهدأ ضربات قلبي المتواصلة. مضيتُ أنظر إلى ما أمامي بعينين لا تريان شيئًا. لا أثر لوجود أحد في المكان. كانت العتمة تبتلع الكوخ بشكل فظيع، ورغم هذا لم أكن لأجرؤ

على البحث عن مصدر الضَّوء في المكان، واستسلمت للعمى على أن أبصر الخوف.

استسلمت لرائحة الرُّطوبة التي كانت تفوح من زوايا المكان، واستكنت في صمت مسكون بالرهبة المُطبقة، صمتٌ يشبه صمت المقابر الهادئة في ليالي الصَّقيع الباردة.

مضيتُ أنتظر الرَّجل الحكيم، وفي غضون هذا، كنت أستمع لصوت صرصار الليل كما لو كنت أسمعه للمرة الأولى في حياتي!

ثمَّة أصوات أخرى كانت تتداخل معه، أصوات وحشية جارحة، أصوات تهارش وهمهمات، أصوات زعيق ونعيق، أصوات سائبة عصيَّة على التَّأويل، راحت تنبعثُ من أحشاء الظُّلمة وتتردَّد في حُجرات مسامعي على نحو مروع مخيف..

سرتْ تيَّارات من الرَّجفة في أركان جسدي، ولاح لي من نافذة الخوف خيالات ذات أنياب مفترسة، خيالات نمور ترقب مرتابة، وذئاب تتعاوى من بعيد في غلالة الضَّباب، وضِباعٌ تنهش في جِيَفٍ وتلوك عظام كائنات!

تخيَّلتها جميعها، تخيَّلتها تحوم في لجج الظَّلام من حول الكوخ ولا يفصلها عن الفتك بي سوى بابٍ خشبيٍّ واحد..

كانت الأصوات تنشبُ أظفارها في صدري، وما تلبث أن تهمد حتى تعود أشرس من ذي قبل، وكأنها تمزِّق كلَّ سُكون يحاول أن يضع قدمه داخل حدود صداها.

صرتُ مرعوبًا أذرع الكوخ المعتم جيئة وذهابًا، وقد صارت أخشاب أرضيته تئنُّ تحت خطواتي المرتجفة المنتظرة.

كانت دقيقة واحدة من الانتظار تزرع بداخلي ألف عام من الخوف!

حاولت بائسًا قشع فكرة الحيوانات الضَّارية عن مخيلتي. حاولتُ مواساة نفسي بفكرة أن الرَّجل الحكيم قادمٌ إلى الكوخ لا محالة، وإن تأخر في هذا.

حاولت التَّدثُّر بالذِّكريات الكرتونية، فخيِّل إليَّ من فرط الشعور أن أركان الكوخ صارت تواسيني وتهمسُ في أذني لحنًا سبيستونيًّا يقول بلهجة هادئة

على نحو رهيب: «في صوت الليل الغامض أنصت للخطوات، وابحث عن رجل سريٍّ في عينيه حكايات».

مضيتُ ألوك هذه الكلمات وأقلبها، لكن، لم تُمضع في فم خوفي، وظللتُ أعلكها مُتحسرًا..

وفيما كان العرق يَزربُ من كلِّ مكان في جسدي، وفيما بدأ نفسي يضيق بسبب الرُّطوبة والهواء الفاسد المحبوس في المكان، حينها، وددت لو كان بإمكاني أن أشقَّ باب الكوخ لتتسلَّل دفقة هواء واحدة أنعش بها صدري، ولكنَّ الرُّعب كان يردعني عن فعل ذلك!

وفجأة، وفي لحظة ذعر، تناهى إليَّ عواء ذئب قريب في المكان. انخلع قلبي وارتعبت. اصطكَّت أسناني. ارتجفت أضلاعي واهتجت اهتياجًا شديدًا.

حاولتُ تكذيب ما سمعت، ولعلَّه لم يكن لدي سوى هذا الحل حتى أنجو من هواجس اللحظة الرَّاهنة، ولكن دوي العواء مرة ثانية، أحبط في صدري كلَّ رجاء!

انتفضتُ هلعًا من قمة رأسي حتى أخمص قدميَّ. تَمَترسْتُ خلف الباب كالمجنون. ارتُجَّ الأمر عليَّ ولم أدرِ ما الذي عليَّ فعله بالتَّحديد. إنَّها المرَّة الأولى التي أسمع فيها صوت الذِّئب بهذا الوضوح الصَّارخ الذي يكاد يصمُّ الآذان!

بالفعل، شتَّان بين من يعيش في أعماق اللحظة، وبين من يراها كمتفرج عابر، الأول منهمك في محاربة الشعور، والثاني مشغول في التَّقييم وإصدار الأحكام. ذلك أنني كنت على شاشة التِّلفاز أرى بصوت الذِّئب كلَّ المهابة والكبرياء، وأراهن إن كان هناك كائن يضارعه في هيبته، أما اليوم فلا أرى في صوته سوى الموت والهلاك!

لعمري..

لا شيء يضاهي شعور المرء بالطمأنينة وسط كلِّ هذا العواء من حوله..

فجأة، وعلى نحو غريب، خفتت جميع الأصوات الصَّادحة وساد الصَّمت. في تلك اللحظة بالتَّحديد، خُيِّل إليَّ أنني بدأت أسمع وقع خطوات من نوع

مختلف. أصختُ السَّمع. كانت الخطوات ثقيلة ومتباطئة كأنما هي خطوات إنسان يقترب شيئًا فشيئًا من باب الكوخ!

انتفضتُ وتسارعتْ دقَّات قلبي بشكل لا يوصَف. ابتعدتُ من فوري عن البوابة. لم أعرف ما يتعين عليَّ فعله في تلك اللحظة، حبست أنفاسي وتكورت على نفسي، وأذعنتُ في صمت راجف أرقب فتح الباب، وانتظرتُ سماع صرير الباب في أي لحظة من اللحظات!

* * *

# 7

بِعُيونٍ مُشعشعة كالمسارج، ولحية شهباء كثيفة، أهلَّ رجل هشُّ القوام، كان يستر جسده بأسمال بالية، وتقيم غضون الزَّمان على جبينه وحول عينيه، وعلى قسمات وجهه مسحة من وقار كأنما هو راهب في صورة.

في غضون لحظات مُربكة تحبس الأنفاس، وعلى ضوءِ قِنديل أسرج لتوِّه في المكان، وفيما كانت حشرجة الرُّعب محمومة في صدري، والكلمات ترتجُّ في فمي، شرحت له قصتي وأوضحت له أن غايتي هي الوصول إلى البحر من خلال الغابة، وكيف أنني التقيت حارس الغابة وأرشدني إلى كوخه كي أحتمي به من أنياب الشرور.

لم يكن مسرورًا ولا غاضبًا. لم يكن مهتمًّا ولا متجاهلًا. كانت نظراته فارغة من أي معنى، وقلبه فارغًا من أي إحساس، وكأنَّما فقد دهشته منذ زمن بعيد وصارت الأمور لا تُحرِّكُ فيه أي نوع من الشعور.

اكتفى بالتَّرحيب بصوت هادئ لا نبرة فيه، وبملامح فاترة تخلو من الانفعال والبشاشة في الوقت ذاته.

أما أنا فقد مضيتُ بدوري أطالع حركاته مُنتظرًا طيف ابتسامة يعبر على شفتيه!

مع مرور الوقت وتتابع الكلمات انكسر إيقاع الصَّمت وصار الحال أطرى. ارتختْ قسمات الرَّجل وانساب شيء من الدفء في حديثه، فاستكنتُ في مكاني بعد أن همدت حِمم الخوف المستعرة في أعماقي إلى حد ما.

مع تجاذب أطراف الحديث، انتعش وجدان الرَّجل، فصار يتنهد ويتفوه بالعديد من الأمور الشفيفة التي تعتمل داخل صدره، وأوضح أنه منذ زمن لم يزره أي شخص بشري في هذا الكوخ!

أشار إلى أن آخر شخص زاره كان شخصًا عابرًا يتقصى عن أخبار الحيوانات وأسرارها، وقد كان يفعل هذا باهتمام يثير الشَّك والريبة على حد قوله.

حينئذ، ودون الكثير من التَّفكير والتَّحليل، كان أول ما تبادر إلى ذهني هو صورة صديق كلِّ الحيوانات «ايس فنتورا»، ذلك المحقق المرح النَّشيط صاحب القميص المُشجَّر، الذي كنت أتابعه على شاشة التِّلفاز، وما يزال صوته يرن في مسامعي إلى غاية اللحظة!

ولكن لم أكن متأكدًا من ذلك، وعلى سبيل استشفاف الأمر، انفرجت شفاهي بفضول، وسألته عن هوية الشخص وبعض التَّفاصيل عنه!

غمغم الرَّجل حينها وضيَّق عينيه:

- لا أذكر شيئًا يا بني، إن هذا الشيء حدث في يوم صار موغلًا في البعد.

قبل أن يستدرك ويقول مخمنًا:

- مهلًا، أظن أن اسمه كان يحمل صفة نادرة الوجود لدى الإنسان.

قلت وقد ألهبني الفضول:

- صفة نادرة؟!

هزَّ رأسه ولم يفُه بكلمة واحدة.

أطرقتُ حينها مفكرًا، وقد استعبدتُ صاحب القميص المُشجَّر من حساباتي.

شدَّني الفضول لمعرفة هوية هذا الشخص، فمضيتُ على مسامع الرَّجل، أتحزَّر الصِّفات الإنسانية واحدة تلو الأخرى، لعلَّه يتذكر شيئًا.

أخذت أقول وهو يهزُّ برأسه مع كلِّ صفة أقولها:

- الوفاء؟! الصِّدق؟! العدل؟! الحبُّ؟! الكرم؟! الإيثار؟! الأمانة؟! الإخلاص؟!

فجأة، فغر الرَّجل فاه، وتوقفت سلسلة هزَّات رأسه، وكأنه تذكر شيئًا. أومض عينيه ثم ما لبث أن قال:

- أظنها الصِّفة الأخيرة التي ذكرتها يا بنيَّ...

كما لو كنت أوقعه على اعتراف ما:

- الإخلاص؟! متأكد؟!

- ربَّما يا بنيَّ لست متأكدًا، فذاكرتي لم تعد قويَّة كما كانت عليه في السَّابق.

أومأت برأسي مُتفهمًا، ومضيتُ أقلب حروف الكلمة وأعيد تشكيلها على شفاهي، ولوهلة، خطر ببالي أن يكون الرَّجل المقصود هو «مخلص صديق الحيوان»!

انتشيتُ في أعماقي وابتسمتُ، لكنني أضمرت هذا الشيء ولم أفصح عنه، إنما عكفت بصمت على مراقبة حركات الرَّجل الحكيم، الذي عمد بدوره إلى أحد الرُّفوف المعلَّقة، واستل قِربة ماء، وراح يكرعُ المياه منها بنهم شديد.

ثمَّ نظر إليَّ وسأل عن حال الرَّجل الذي أرشدني إلى الكوخ، مُظهرًا احترامه الشديد له، وواصفًا إياه بأنه رجل شجاع مقدام يتمتع ببراعة مذهلة في رشق السِّهام، قبل أن يسأل سؤالًا على نحو ضاحك صادم في الوقت ذاته:

- هل ما يزال يعترض الأشخاص العابرين؟! هل ما يزال يسرق الذين يصادفهم على ناصية الطَّريق؟!

هنا، أحسست أن ثمَّة من صفعني على وجهي. انخطف لوني وانعقد لساني بشكل تام.

بعد لحظة، انفرجت شفاهي وتساءلت:

- أليس هذا الرَّجل هو حارس الغابة؟!

هزَّ الرَّجل الحكيم رأسه ضاحكًا:

- بلى، بإمكانك اعتباره كذلك.

- ولماذا يسرق النَّاس إذن؟

ضحك حينها وراح يقول:

- هي ليست سرقة بالمعنى الحرفي.. اسمع، إنه رجل لا يدين بالولاء لأحد، ويمقتُ الطَّبقات الاجتماعية التي تقيِّم النَّاس بشكل ماديٍّ لا إنساني...

مضيتُ أصغي لكلامه، وقد جعلني أستحضر من خلاله شخصية «روبن هود»، وقد راح صدى بوق هذه الشخصية الشهيرة يصدح في غابات الذَّاكرة الطُّفولية.

في غمار هذا، طفق الرَّجل يسألني عنه على نحو تتابعي:

- هل سألك عن العدالة الاجتماعية؟!

- لا.

- عن وضعك الاجتماعي والنُّقود التي بحوزتك؟!

- ربَّما بشكل غير مباشر.

- عن الإنسانيَّة؟!

- نعم، لقد قال كلامًا مشابهًا لهذا.

أوشكتُ حينها أن أخبره بأنه احتجز دراجتي عنده، ولكن، ابتلعت كلماتي خشية أن أبدو بصورة المغفل أمامه، وحاولت تجنب ذكر أي شيء عن هذا، ثم ما لبثتُ أن صرت أفكر في العديد من الأمور حول ذلك الرَّجل.

صحيح أنني لم ألحظ أي شبه بينه وبين «روبن هود» الذي عرفته في طفولتي، وأحسب أن ذلك الرَّجل قد انتهى به المطاف كبقية الخارجين عن القانون.

ولكن، ومع الواقع السَّاديِّ الذي نعيش فيه، ومع استفحال الفوضى، وغياب العدالة الاجتماعيَّة، واستبداد سطوة الظُّلم والفقر والجوع، من المرشَّح أن يكون ثمَّة من سار على نهج ابن غابات شيروود الثائر!

لست أدري، ولكن على نحو فلسفيٍّ، لعلَّ حالنا يشبه حال «روبن هود» إلى حد ما، فنحنُ نحاول التَّمرُّد على الأشياء التي لا تعجبنا، نحاول الثورة على القوانين والعادات التي لا تروق لنا، لنصنع عالمنا على طراز إنسانيتنا، والطَّبقة العاطفيَّة التي تنتمي إليها نبضات صدورنا.

حاولنا أن نكون للأصحاب خير صديق، وأن ننوِّر بالحبِّ كلَّ طريق نمرُّ به، ولكننا لم نُكافأ كما ينبغي، ولم نحصل على ما نستحق، ظللنا وحيدين في غابات أصالتنا، واتُّهمنا بالعديد من الاتهامات رغم تفانينا...

وحسْبُنا من كلِّ ما جرى معنا أننا لم نخسر شخصيتنا ولم نفقد احترامنا لأنفسنا، بقي الإنسان صامدًا في داخلنا على الرغم من كلِّ شيء، وقد ظلَّت «عيناه دومًا للسماء»!

بينما كانت هذه الأفكار تمور في خاطري، اعتدلتُ في جلستي وأحسستُ لوهلة أن أجواء الحنين قد عادت تلوح في أفق هذه الرِّحلة، بعد أن أفلحت أشباح الخوف في حَجبِها لبضع ساعات من الوقت.

في حين كان الرَّجل الحكيم قد وضَّب بدوره موقد النَّار وأضرمه، ثم شرع بتجهيز الطَّعام وقال بنبرة حانية مُتفهِّمة:

- لا شك أنك متعب وتتضوَّر من الجوع. أولًا، سنتناول الطَّعام ثم نجلس لنتحدَّث بكل روية.

ابتسمتُ حينها ابتسامة الأريب الذي يريد أن يُحافظ على لياقته في المكان، ومضيتُ خِلسة أبحلق في البخار المتصاعد من القدر، بحلقة الجائع الذي ينتظر ما يُسكت به خواء بطنه.

لم أكن أعرف ماهية الشيء الذي يطهوه الرَّجل، ولم أستطع تمييز الرَّوائح التي أخذت تنبعثُ من القدر، ولكن هذا لا يهم..

حينما تكون جائعًا لا يهم ما هو نوع الطَّعام الذي ستتناوله، ولا من أين مصدره، وليس هناك وقت للسؤال عن المقادير، أو تقييم الطَّبخة الموضوعة على النَّار، الأهم أن لا تبقى معدتك مُلتاعة على نار الجوع!

بعد بُرهة من الوقت، وفي اللحظة التي استعدتُ فيها انتظام دقات قلبي بشكل طبيعي، وفجأة، دوى عواء ذئب في الأرجاء، فتذكرتُ الهلع الذي كان رابضًا على صدري قبل قدوم الرَّجل الحكيم.

ما إن لحظ الرَّجل هذا حتى افترَّ ثغره عن ابتسامة ذات مغزى ومعنى.

مطَّ شفتيه، وقد قال بهدوء وهو ما يزال منكفئًا على تحريك الحساء:

- أراك ارتعدتَ بمجرد سماعك صوت الذِّئب!

ابتسمتُ بشكل متحرج دون أن أنبس بكلمة، وأصغيت له حينما أضاف واعظًا بطريقة غريبة:

- لا تخف عواء الذِّئب يا بنيَّ، على الأقل أنت تعرف من الصَّوت أنه ذئب حتى لو لم تره، أما الكائنات البشرية فلن تستطيع التَّنبؤ بحقيقتها حتى وأنت تراها بين أحضانك.

ابتسمتُ حينها ولم أعقب.

لم أكن أعرف ما مناسبة هذه المفارقة التي ذكرها، ولكن بدا لي أن خلفها شيئًا يحوك في صدره، فبقيت ملتزمًا الصَّمت المتحفظ، ريثما يوضِّح بنفسه المرمى الحقيقي من وراء كلامه.

بعد لحظات الانتظار، سكب الرَّجل الطَّعام أخيرًا، وما إن وضعه أمامي حتى غاص وجهي في القدر، وخلال لحظات سُرعان ما سكب لي مرَّة ثانية.

مع مرور الوقت، وبعد أن امتلأت البطون وثقلت الأجساد، نهض الرَّجل من مكانه وصار يتغرغر بمنقوع أعشاب كان قد خمَّرها من قبل على حد قوله.

عرض عليَّ تجربته، ولكن لم يكن لدي قابلية كبيرة لهذا، فتفهَّم الأمر بابتسامة، وحوَّل العرض إلى عصير جوز الهند، فقبلتُ حينها على مضض.

ثم ما لبثنا أن مضينا نتجاذب أطراف الحديث بمواضيع شتَّى، وقد اكتسبت الكلمات طابعًا دافئًا بشكل أعمق من ذي قبل.

تحدَّثنا عن العديد من الأمور العشوائيَّة المتنوِّعة، ولا أعرف كيف أفضت بنا الكلمات إلى المفارقة الحاصلة بين شريعة الغابة وشريعة الإنسان، إذ إن الرَّجل مضى يتحدث بإسهاب محموم عن هذا، كما لو كان ينتظر هذه اللحظة منذ سنوات طال اختمارها في صدره.

قال كلامًا فحواه أن الجميع يعرف أن شريعة الغاب هي شريعة البقاء للأقوى، ولكن هذه المعلومة ليست كاملة كما يعتقد البشر، فالحيوانات تقتل بعضها بدافع غريزة البقاء وحسب، أما في شريعة البشر، فالنَّاس تقتل بدوافع تُعَد ولا تُحصى.

إنهم يقتلون باسم الدين، يقتلون باسم الحب، يقتلون باسم الشرف، يقتلون بسبب الاختلاف في الأفكار والألوان والمعتقدات، يقتلون من أجل السُّلطة واتساع النُّفوذ، وقد يقتلون بدافع التَّسلية وإرضاء الرَّغبات وحسب، وكأن الطَّابع الإجراميَّ متأصلٌ فيهم منذ الأزل!

وبينما كان الرَّجل يواصل سيل كلماته التي تحاكم مجتمع البشر، ذهب بي التَّفكير بشكل تلقائي إلى الأسئلة السبيستونيَّة التي كنا نرددها ذات زمان:

«هل شاهدتم ذئبًا في البراري يأكل أخاه؟! هل شاهدتم يومًا كلبًا عض يدًا ترعاه؟! هل شاهدتم فيلًا يكذب، يسرقُ، يشهد زورًا، ينكر حقًّا، يُفشي سِرًّا، يمشي مغرورًا بأذاه؟!».

عندما كنا صغارًا لم نكن نعرف ما تعنيه هذه الأسئلة الاستنكارية، كان يكفينا الإيقاع السَّريع الذي تقال به حتى نشعر بنشوة الفرح وموسيقى المرح، ولكن عندما كبرنا وفهمنا حقيقتها العميقة والمعاني الموجعة التي كانت تتوارى خلفها، بكينا على الإنسانية المشوهة التي نعيشها، وعلى هذه الحياة الممزَّقة التي ننهشُ بعضنا فيها دون أدنى شعور بالرأفة.

مع استرسال الرَّجل بالحديث على نحو محموم، أحسست أنني أيقظت العديد من المشاعر الغافية في صدره، وقد شعرت في تلك اللحظة بالتَّحديد أن في عينيه شيئًا مألوفًا على نحو دافئ، وكأنني أعرفه منذ زمن بعيد.

وتزامنًا مع هذا، تبادر إليَّ أن الرَّجل يتحدث بصيغة يستثني فيها نفسه من الانتماء إلى البشر، وكأنه لا يحسب نفسه منهم، فاستغربت من هذا الأمر، وسارعت إلى سؤاله عن سر ذلك!

ابتسمَ وقتها ابتسامة باردة. زمَّ شفتيه متبرِّمًا. حدَّق إلى عينيَّ نظرة طويلة، ثم قال بصوت هادئ:

- إن مسألة الانتماء لها معايير مختلفة، لها معايير مختلفة كلِّيًا.

فاستوضحتُ منه عن هذا، فزفر بعمق شديد وأطرق رأسه وقد راح يقول بنبرة ذات معنى:

- مع أن دم الإنسان يجري في عروقي بغزارة، ولكن نبضات قلوبنا هي من تحدد هوية الأمكنة التي ننتمي إليها، وأظن أنني لا أستطيع الانتماء إلا إلى هذه الغابة.

هنا فحسب، خفق قلبي وساد الصَّمت، وقد تأكدت بشكل قطعي من هوية الرَّجل الحكيم الماثل أمامي!

تداعت بعض الصُّور القديمة في صفحات المخيِّلة، وظللتُ للحظة من الزَّمن أطالع قسمات الطِّفل الذي تربى في كنف الذِّئاب ذات زمان، مستغربًا من الهيئة التي صار عليها بهذه السُّرعة الزَّمنيَّة والفترة القياسيَّة.

لم أدر ما الذي ينبغي لي قوله، ولا أعرف الأمور التي جربها حين عاش في كنف البشر لفترة من الزَّمن، وقد سارعتْ في شيخوخته، وزادت من حنقه ونقمته على عالمهم!

بعد شيء من التَّردد، ودون أن أظهِر له معرفتي به، سألته إن كان قد جرب العيش مع البشر لفترة كافية، فلربَّما تبدلت بعض الانطباعات المحفورة في ذهنه، وشعر بشيء من الانتماء الفطريِّ إليهم.

أغمض عينيه وقتها، كأنما يتذكر موقفًا مريرًا عاشه، وقد علت قسمات وجهه مسحة حزن، قبل أن يقول متنهدًا:

- جربت هذا، ولم أستطع التَّأقلم مع عالمهم. حاولت البقاء، حاولت ذلك مرارًا وتكرارًا، ولكن لا يستطيع المرء أن يبقى طويلًا في الأمكنة التي لا يشعر بالانتماء إليها.

أمسك عن الكلام لوهلة، قبل أن يستأنف حديثه وقد تجمدت عيناه وغامتا بشكل مفاجئ:

- كنت أعتقد أن هناك جوانب مُشرقة في حياة البشر، وأنني لم أتمكن من معرفتها بسبب عدم العشرة والاختلاط الكافي معهم، ولكن تبين عكس هذا.

- مثل ماذا كنت تعتقد؟!

- كنت أعتقد أن محبة المرء لجميع من حوله ستجنبه طوفان الحقد الجارف، إن لم يكن سيسقيه الحب على أقل تقدير، وأن عدم الخوض

في أحاديث الانتقاص والسُّخرية سيُجنبه إياها، وأن حفظ لسان الإنسان عن الآخرين وانشغاله بنفسه سيحفظ لسان النَّاس عنه، كنت أعتقد أن الخير سيقابَل بالخير، وأن المحبة ستجلب المحبة، وأن الحياة ستمر بسلام بمجرد أن يكون قلبك عنوانًا للسَّلام، لم أكن أتصور كيف بإمكان النَّاس أن ينهشوا لحم بعضهم حتى وهُم أموات تحت التُّراب، وكيف أن الأمراض تتفشَّى في القلوب لألف سبب وسبب، مُوحشة هي قلوب البشر، موحشة، أوحش من عتمة هذه الغابة في عينيك.

ما إن فرغ من هذه الكلمات حتى سَعلَ سُعالًا شديدًا، سعل حتى انتفخت أوداجه وظهرت في عينيه غلالة من الدمع الشفيف، فأحسستُ حينها أنه كان يتقيأ مشاعره، أكثر من كونه يتحدث عنها وحسب.

ساد الصَّمت، فانتابني الحرج ساعتها لإحساسي بأنني حرَّكتُ مياهًا راكدة في سيل حسراته.

حاولتُ ترطيب الجو المتعكِّر، ومُلاطفة الذِّئب الموجود بداخله، فسألته إن كان قد سمع البشر وهم يقولون على سبيل الشجاعة: «إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذِّئاب».

على عكس ما أردت أن يحدث، وعلى نحو غير متوقَّع، انتفض على الفور وقال:

- نعم سمعتهم، ولكن أما سمعت أيضًا عن قصة تعلِّمونها لأطفالكم وقد حكمتم فيها على الذِّئب بشكل مُسبق، دون أن تسمعوا القصة منه؟!

حينها، أزمعت على أن أظل مُطبق الشَّفتين دون أن أحاول مجاراته في الحديث.

أصغيت لتكملة كلامه عن مجتمع البشر الوحشي على حد وصفه، قبل أن يختتم الحديث متنهدًا:

- بإمكانك الآن أن تعرف لماذا أعيش أنا في هذا الكوخ. فأن أعيش بشريًّا مع قطيع من الذِّئاب، أحب إليَّ من أن أكون إنسانًا بهيميًّا في غابة البشر!

إبَّان هذا..

انقبض صدري، وجاءني مشهد قديم من أدغال الذَّاكرة الكرتونية.

مرَّة من المرات، سأل الدب «بالو» النِّمر الأسود «باجيرا»:

«لماذا تُصِرُّ على إرسال ماوكلي إلى قرية البشر؟!».

أجابه حينها بحتميَّة بائسة:

«إنه ينتمي إلى هناك في نهاية الأمر».

انتفض وقتها الدب وراح يقول مذعورًا:

«سيدمرونه هناك، سيجعلونه بشريًّا مثلهم!».

لا أعرف لماذا أراني اليوم أتعمق في هذا الحوار بشكل مختلف عن ذي قبل، لعلَّه كان لا بد لفتى الأدغال أن يجرب مجتمع البشر بكل المفارقات الغريبة التي يعيشون تحت ظلالها، وكل الطُّقوس البائسة التي يمارسونها فيما بينهم، حتى يعود ليعيش في كنف قوانين الغابة التي فهمها وعمل بها منذ نعومة الأظافر.

عاد ليعيش في كنف القوانين التي لم يفهم مغزاها بنو الإنسان، «ساعد غيرك لو تدري، ما معنى حب الغير، ما أجمل أن تحيا في الأرض بلا نُكران ولا أظنُّهم سيفهمونها ذات يوم».

تنهدت بعمق الحسرة البشرية التي اجتاحتني، وبينما كان الصَّمت الرَّهيب يطبق على المكان بكل فلسفته، وفجأة، ودون مقدمات، شق هذا السُّكون عواء ذئب منبعث من الخارج...

في تلك اللحظة بالتَّحديد حدَّقتُ إلى عينَي الرَّجل الحكيم، وابتسمتُ ابتسامة واسعة، وقد انتابني شعور من نوع غريب، وبدا لي أن عواء الذِّئب غير مخيف!

* * *

# 8

عندما كنَّا صغارًا نتسمَّرُ أمام شاشة برامج الكرتون، كنا نرتعد من الخوف عند سماع المعزوفة الموسيقيَّة التي تسبقُ ظهور النِّمر الشرير «شريخان»!

كانت الكثير من مخاوفنا وقتذاك مختزلة في تلك النَّبرة الغليظة التي كان يتفوه بها ذلك النمر بمنتهى الشراهة، وتلك الضحكة المرعبة التي كانت تتجلجل في حنجرته، وقد كانت تُؤذن بوقوع شيء كارثيٍّ.

الغريب في الموضوع، أننا إلى هذا اليوم الذي نعيشه الآن، ما يزال هناك شيء في داخلنا يرتعش عند سماع تلك المعزوفة الموسيقيَّة، وكأنَّما صارت مرتبطة برائحة الخطر إلى الأبد!

وهذا ما حدث معي بالتَّحديد حين أراني ابن الذِّئب ألكسندر، جلد ذلك النِّمر الشرير، إذ ما يزال يحتفظ به كبرهان أزلي وعلامة دامغة على أنه استطاع الثأر لقطيع الذِّئاب والانتقام من قاتل أبيه الذي ضحَّى بحياته من أجله!

إن هذه الأمور لم تَشْغلنا عن الحديث عن الرِّحلة التي أخوضها، وعن الأمور التي من الممكن أن تَعتَوِر طريقي في الصَّباح المبكر من يوم غد.

أخبرني مُطمئنًا أنه وقبل انبلاج الصُّبح، سيوعز للذئاب أن لا تعترض طريقي، وأن تدعني أعبر الغابة بسلام، فتنفَّستُ حينها الصعداء وقد سكت عواء أحد المخاوف في أعماقي..

ثم سألته عن الطَّريق الأنسب للسير نحو البحر!

فقال إن هناك العديد من الطُّرق المناسبة التي بإمكاني أن أسلكها، قبل أن يُردف قائلًا:

- إن الطَّريق الصَّحيح مهما كان صحيحًا، لن تنجو من نباح الكلاب فيه.

انكمش وجهي بشكل فوري، وسمعت صوت الكلاب وهي تنبح في باحات صدري، قبل أن يستدرك الرَّجل ويقول محاولًا أن يُطمئنني:

- لا تقلق فهذا هو الوضع الطَّبيعي في الغابة لدينا، نحن تعوَّدنا أن الطَّريق الذي لا كلاب فيه طريق مشكوك في صحته، وعليك أن تضع هذا بعين الاعتبار في كلِّ طريق تسلكه.

قطبت جبيني حائرًا فيما يقول. ربَّما لم تكن حيرة بقدر ما كانت خوفًا وقلقًا وريبة من المجهول الذي ينتظرني، ولكن، ولكي أخفف من وطأة هذا الشعور على نفسيتي، سألته عن الطَّريق الأمثل لكي أتفادى الاصطدام بتلك الكلاب التي قال عنها.

قال:

- لا أعرف النَّصيحة المثالية التي عليَّ أن أقولها لك، فالأمر بحاجة إلى اعتياد ودُربة، ولكن...

أمسكَ عن الكلام لوهلة كأنَّما يرتِّب أفكاره.

ظللتُ فاغر الفاه منتظرًا ما سيقول، قبل أن يواصل حديثه:

- ولكن تذكَّرْ أن الكلاب تعرف الكثير عنك من خلال ردة فعلك، تعرف متى تكون خائفًا، ومتى تكون واثقًا من نفسك. كلُّ ما عليك فعله أن لا تأبه بعوائها، فإن أنت أظهرت لها خوفك واكتراثك بها انقضَّت عليك، وإن أنت تجاهلتَ وجودها اغتاظت منك وانتصرتَ عليها.

للأسف، لم تُفلح هذه الكلمات في أن تمنع قشعريرة الخوف من السَّرَيان في أوصالي.

أحس الرَّجل الحكيم بهذا الخوف الذي يتملكني، فامتعض كأنما يتعلَّق الأمر به بشكل شخصيٍّ، وهبَّ منفعلًا يقول كمن يقرأ عبارة عميقة من كتاب فلسفيٍّ:

- يا بُنيَّ، من يخشَ الكلاب، من الأجدر به أن لا يسلك أي طريق، وأن لا يخوض أي رحلة، عليه أن يعود من حيث أتى.

ساد صمت قصير بعد هذه العبارة، قبل أن يفرد الرَّجل خارطة الغابة أمامه، وقد راح يوضِّح موقعنا الجغرافيَّ، ويستعرض المناطق الموجودة من حولنا كما لو كان خبيرًا استراتيجيًّا للمنطقة.

أوضح أننا الآن في الجانب الشرقي من الغابة، وبحسب قوله فإن هذا الجانب هو الجانب الأقلُّ خطورة على الإنسان، ولكن الأهم أن لا يقترب البشريُّ من المنطقة الوسطى من الغابة، فهي منطقة في منتهى الخطورة.

اندفعتُ حينها بفضول الخائفين وسألته:

- وما هو مصدر خطورة هذه المنطقة؟!

فقال وكأنَّما ومضت في عينيه ذكرى أليمة مرَّ بها من قبل:

- إنَّها منطقة تنتشر فيها الدببة على نحو كثيف. إنَّ هناك دببة مفترسة لا ترحم أي كائن تصادفه في منطقتها، ولا يردعها رادعٌ من أن تشن الهجوم عليه.

هنا، انقبض صدري وارتجف قلبي. لا أعرف لماذا عنَّت ببالي صورة الدب «جبر الأعور» بشكل تلقائيٍّ، ذلك الدب السَّفاح الذي زرع الرُّعب فينا منذ الصِّغر، بشكل عينه المفقودة وحجم جسده المخيف، وبافتراسه للكثير من الكائنات المسالمة التي كانت تعيش في قصَّة «ذئب الرَّجل الأبيض»!

ازدردتُ ريقي. نفضت خيال ذلك الدب المفترس عنِّي، وخطر لي شيء ما، فسألته:

- كيف بإمكاني أن أعرف حدود تلك المنطقة وأنني لم أصل إليها بالفعل؟! لا أريد أن أجد نفسي في المنطقة الوسطى دون أن أعرف هذا.

هزَّ رأسه حينها وقد أجاب بنبرة صارمة:

- عليك التَّقهقر والنُّكوص على أعقابك حالما تجد آثار الدببة على جذوع الأشجار.

ثمَّ أوضح معقبًا:

- انظر جيدًا إلى لحاء الشجر الموجود. إنَّ الدببة تحك ظهورها بجذوع الشجر حد انتزاع اللحاء، وبذلك يترك الدب رائحة أثره عليها، فيعلم من في الغابة أن تلك المنطقة خاصة به، وأي اقتحام لتلك المنطقة يعد انتهاكًا صارخًا لحدود عالمه.

ثم طفق يتحدث عن عالم الدببة بشكل مفصَّل، وفي أثناء هذا، وفجأة، استفاقت ذكرى قديمة من بين ذكرياتي الكرتونية، وعنَّت ببالي نسمة من

المشاهد الرِّيفيَّة القديمة، ورأيت من خلالها الدبين الأخوين «لوز وسكر»، وهما يمرحان ويلعبان في أحضان الصَّديقين اللطيفين الطَّيبين «مجد» و«مايا»!

وقتذاك، كان «سُكَّر» يسأل «لوز» على الدوام: «هل ستملِّين منِّي في أحد الأيَّام؟!» فكانت (لوز) ترد عليه وتُطمئنه قائلة: «لا يا سُكر، الأيَّام دونك أصعب مما تظنُّ».

ولعلَّنا نشبه «لوز» إلى حد ما، فنحن لا نريد أن نفقد الأشخاص الذين وجدنا الدفء في أحضانهم، ولا نريد أن نعيش مرارة هذه الحياة دون «سُكَّر»!

ابتسمتُ بشكل تلقائي جراء هذا التَّفكير الوديع، ومددتُ جرار العسل في خيالي للدبين اللطيفين دون ذرَّة خوف واحدة، وقد نسيت لوهلة أمر جميع الدببة الفتاكة التي قال عنها الرَّجل.

ولكن لم يستمر هذا الأمر طويلًا، فسُرعان ما انتفض رأسي على نباح كلاب الطَّريق في زاوية أخرى في خيالي، فتجهَّمتْ أساريري في لحظة واحدة، وتذكرت المغامرة التي أنا مقبل عليها في الصَّباح!

واصلنا الحديث عن مناطق الغابة المتنوعة، وفي غمار هذا، وفجأة، انبطح الرَّجل الحكيم على جانبه، توسد ذراعه كما لو كانت وسادة. تجشأ بصوت حاد، ثم تثاءب وقد صار فمه مثل مغارة عميقة.

ثم مكث للحظات يهرشُ لحيته الكثيفة، وراح يطالع الفراغ بعينين ضيِّقتين، كما لو كان غارقًا في التَّفكير في أمر ما.

بقي على هذه الحال بُرهة من الوقت، قبل أن ينتفض فجأة، ويفغر فاه كما لو كان تذكر شيئًا:

- الطَّريق! هناك طريق آخر!

فاستفهمت منه بإيماءة من رأسي، فقال بحرارة:

- اسمع، لن أدعك تذهب وحيدًا، سأرافقك يوم غد، سنسلكُ طريقًا سريًّا في الصَّباح.

* * *

# 9

مع شقشقة الصُّبح وشعشعة النَّدى، وبينما كانت أشعة الشمس تطبعُ قبلة الصَّباح الهادئة على أوراق الشجر، كان الهواء مُضمخًا برائحة العشب البريِّ، وكانت أسراب مهاجرة من الطُّيور تخفق بأجنحتها نحو البعيد.

في هذا الوقت بالتَّحديد، وبين أدغال الغابة ودهاليزها المعقدة، وطئت بشكل مفاجئ أرضًا مترعة بنبات الفطر على نحو غريب.

مشيتُ الهوينى وخشيت أن أدوس بقدمي على إحدى تلك النَّباتات فأفسدها. كنتُ أنقل خطواتي باحتراس وحذر كما لو كنت أمشي في حقل واسع للألغام!

للحظة من الزَّمن، حدث شيء غريب لم يكن متوقَّعًا على الإطلاق، إذ جاء صوت مباغت لم يطرق مسامعي من قبل. أرخيتُ أذني. نطق الصَّوت في غضب مُستنفر: لقد دعست بيوتنا أيها العملاق الشرير.

توقَّفتُ على الفور وانحنيت، رنوتُ بعيني عند موطئ قدمي وقد شككتُ بالأمر. اتَّسعت حدقتا عيني حينها من فرط الدهشة، إذ خيِّل إليَّ أنني أرى كائنات زرقاء اللون تقفز في كلِّ مكان من حولي، كأنما تنسل من كلِّ فج عميق!

ظللتُ متسمرًا في مكاني كجذع شجرة. فركتُ عيني بسرعة وقد اعتراني شعور مضطرب عصيٌّ على الاستيعاب.

أغمضتُ عيني للحظات، ثم أرجعت البصر كمن يستفيق من نوم طويل!

نظرت عند موطئ قدمي من جديد. تعالت حينها الصَّيحات وراحت تتطاير في المدى، وقد خيِّل إليَّ للحظة من الزَّمن أنها تهتف باسم «شرشبيل»!

على الفور، هتفتُ في نفسي متسائلًا: أهي أحلام اليقظة أم أنني على قيد الهذيان؟! هل وصلتُ إلى القرية المفقودة؟! هل اقتحمتُ أرض السَّنافر التي سمعت عنها في حكايات الطُّفولة؟!

بقيتُ في حالة ذهول شديد، وبشكل ديناميكيٍّ سُرعان ما شرعت ذاكرتي باستحضار هذا الملف العتيق من أرشيف الطُّفولة. مُشعوذ أخرق بغيض يُلاحق كائنات مُسالمة زرقاء تعتمر قبعات بيضاء، يُلاحقها حانقًا وهو يصيح مُهدِّدًا مُتوعِّدًا بصوت غليظ: «أنا أكره السَّنافر، سأنتقم منكم، سأقضي عليكم ولو كان ذلك آخر يوم في حياتي».

أطلتُ التَّحديق إلى الكائنات الصَّغيرة الماثلة أمامي، وثمَّة خوف بداخلي من أن أهرس إحداها دون أن أنتبه، وثمَّة تحليلات صارت تدور في خلدي حول هذا المشهد.

على الرغم من أن الذِّكرى عبرت، فإن لوعتها تبقى مطمورة في مكان خفيٍّ في أعماق القلب. قد تستفيق في أي لحظة وتنهض أمام عينيك دفعة واحدة، تنهضُ كما ينهض ميت من قبره، وقد ظننتَ بشكل حتميٍّ أنه لن يعود إلى الأبد.

فعلى الرغم من مرور السَّنوات، ها هي لوعة ذلك المشعوذ الشِّرير ما برحت حجرات قلوب السَّنافر، ولم تنضَبْ نفوسها من رهبته، وما تزال تلتمسه في صورة كلِّ آدميٍّ عملاق يمر من قريتهم!

في غمار هذا التَّفكير، وبشكل فجائيٍّ، انتفضتْ أركان جسدي حين سمعت صوتًا آخر يصدح في المكان!

رفعتُ رأسي بسرعة والتفت من حولي، فإذا بالرجل الحكيم يصيح من بعيد، وقد تأخرت بخطواتي عنه.

عند ذلك، استدركتُ الأمر رأسًا، وهتفتُ موضِّحًا أنني علقت بين نباتات الفطر، وأحاول الخلاص منها كي أواصل السَّير!

فأطلق وقتها الحكيم صيحة استغراب، قبل أن يقول على نحو صادم:

- ولكن لا يوجد في هذه المنطقة أي نوع من الفطريات أو النَّباتات الطُّفيليَّة، هه، عن أي فطر تتحدث؟!

ما إن فَرِغَ من هذه العبارة حتى التفت بسرعة من حولي، رمشتُ عدة رمشات. فركتُ عيني، أطلقت بصري على كلِّ مكان من حولي، ولكن لم أجد أثرًا لنبات الفطر أو تلك الكائنات الزَّرقاء، وكأنَّما تبخرت، أو انشقَّت الأرض وبلعتها في لمحة عين!

تحنَّطتْ ملامحي وتخشبتُ في مكاني. انعقد لساني بشكل تام، ولم أستطع استيعاب ما حدث. لم يكن بإمكاني إلا أن أوازن من حقيبتي الموجودة على كتفي، وأن أسير بهذا الهذيان نحو الرَّجل، مترنِّحًا كمن يستفيق من حلم ثقيل داهم أجفانه، مُصغيًا في تلك اللحظة لصوت خفيٍّ زارني من زمن بعيد، وصار يردد في مسامعي:

*الغابــة عـــرس وبشائر*
*ومــروج خضـــر وظــلال*
*فيهــا أشــجار وســنافر*
*تفـــرح بالأطــفـــال.*

ما إن وصلت إلى الرَّجل الحكيم وشرعنا في استئناف السَّير، ظلَّ الأمر يشغل تفكيري ويُلحُّ عليَّ بشكل شديد.

لم أستطع كبح هذا الإلحاح، ولا أن أظل متشككًا في قدراتي العقلية الحالية وحقيقة ما يحدث معي، فسألته بشكل موارب إن كان قد سمع بوجود كائنات غريبة في الغابة!

بحلق في حينها بحلقة غير مفهومة!

فاستدركت موضحًا أنني لا أقصد الحيوانات والكائنات الطَّبيعية، إنما أقصد وجود كائنات نادرة، غير اعتيادية تعيش في الغابة!

لم يَحِرْ جوابًا في البداية، طال الصَّمت لهنيهة من الوقت، قبل أن يقول وقد برم شفتيه:

- نعم، سمعت شيئًا عن ذلك.

اندفعت بلهفة:

- مثل ماذا؟! ماذا سمعت؟!

أطرق للحظة، وراح يحكُّ لحيته وقد أغمض عينيه كما لو كان يتذكر أمرًا ما، قبل أن يقول:

- منذ سنوات خلَت، كان يُشاع بين حيوانات الغابة عن وجود كائنات غريبة على أطراف المنطقة.

- كائنات غريبة!

- نعم، كائنات بقوى خارقة مُذهلة، تتجاوز حدود المنطق والعقل والطَّبيعة الفيزيائية...

انقطع صوته كأنَّما هو متردِّدٌ فيما يقول.

تبادلنا نظرة متشككة، فحثثته برأسي على مواصلة الحديث، فواصل:

- يقال إن تلك الكائنات لها قدرة على أن تتخفى وتتوارى عن الأنظار بطريقة مُريبة، وكان البشر يصطادونها بطريقة عجيبة لا تُصدَّقُ ولا تخطر على بال أحد.

اندفعتُ حينها مستوضحًا عن هذه الطَّريقة العجيبة التي يقصدها، فندَّت عنه ضحكة خشخشتْ في حلقه:

- لا أريد أن تظنَّ أن العُمر قد تقدم بي حد الخرف، ولكنني سمعت أنهم يصطادون تلك الكائنات من خلال كرات سحريَّة.

هتفتُ بتلحين عفويٍّ مستغرب:

- كرات سحريَّة؟!

فهزَّ رأسه، وقد تبادلنا نظرة طويلة دون أن تطرف عينه، قبل أن يقول متلعثمًا:

- اسمع، أنا لست متأكدًا من هذه الرِّواية المتناقَلة، ولكن حسب ما سمعت، إنه وما إن يرمي الشخص كرته السِّحرية حتى يمتثل المخلوق داخل الكرة، ولا يخرج منها إلا لينصاع لأوامر صاحبها.

خفق قلبي في تلك اللحظة، واعتلج جوارحي إحساس طريٌّ لطيف.

قلت في نفسي: لا أعرف إمكانية أن يكون هذا الشيء مُمكنًا، ولكن لعلَّ هذه الكرات السِّحرية هي ذاتها كرات «البوكيمون» التي عرفتها في طفولتي!

ابتسمتُ، وبشكل تلقائيٍّ عادت بي الذَّاكرة إلى «آش»، ذلك الفتى الذي كان يحلم بأن يصبح أفضل لاعب بوكيمون، وكيف أصيب بخيبة أمل حينما استيقظ متأخرًا، ولم يحصل على أحد البوكيمونات التي كانت توزَّع في قريته، وقد كان يحلم بالحصول عليها.

ولكن الحظ أسعفه وابتسم له، على غير إدراك منه في ذلك الحين، فحصل على «بيكاتشو»، ذلك المخلوق الأصفر اللطيف الذي عانى في بادئ الأمر وهو يروِّضه، ويصبر على عفويَّة تياراته الكهربائية الصَّاعقة!

قبل أن ينطلق في مغامراته الشائقة المثيرة برفقة صديقيه «ميستي» و«بروك»، ويبتدئ خوض التَّحديات ورحلة جمع الأوسمة البرَّاقة والبوكيمونات العجيبة.

استحضرتُ شكل «بيكاتشو» وهو يدافع عن نفسه من خلال تيار الشحنات الكهربائية الخطيرة، واستحضرتُ من خلال هذا التيار بقية البوكيمونات التي كانت ترتع في ذلك العالم الافتراضي الغريب، «تشارمندر»، «بولباسور»، «سكويرتل» والعديد من البوكيمونات التي كنا ذات زمان مهووسين بجمع صورها بكل روح تنافسيَّة بريئة.

كنتُ في تلك الأيَّام أحلم مثل الكثيرين بامتلاك كرات «البوكيمون» والاستيلاء على الكائنات التي تروق لي.

كنت أرغب في أن أضع كلَّ الذين أحبهم في مكان لا يصل إليه أحد غيري، وأن أستعين بهم متى ما أريد، في المكان الذي أريد، وبالشكل الذي أريد!

تتالت السَّنوات وتبدَّلت الأحلام، واكتشفت أن العلاقات لا تصلح بأن تكون تملكًا وسيطرة، بقدر ما هي احترام لمساحة حرية الآخرين وحدود عالمهم الخاص، وبأنني لم أعد أحلم أن أكون الأفضل بين الجميع، بقدر ما أتمنى أن أعيش الحياة بمنتهى البساطة والسَّلام!

مضيتُ بتلك المشاعر أواصل السَّير برفقة الرَّجل الحكيم، الذي كان بدوره يتابع الحديث عن الكائنات الغريبة الموجودة في أحشاء الغابة.

قال إنه سمع عن وجود كائنات تشبه التَّنانين في شكلها غير أنها ليست كذلك على الإطلاق.

لها بيض كبير الحجم، ذو منظر يغري البشر على استلاله من أعشاشها، وبيعها بعد ذلك بالأسواق التِّجارية بباهظ الأثمان، على اعتبار أنها تنانين مسحورة تتعايش مع الإنسان وتخلق أجواء مَرِحة ولطيفة.

وأشار في هذا الصَّدد إلى أنه سمع أحد الأشخاص يقول إنه وجد واحدًا منها في حوزة البشر، يعيش معهم بشكل طبيعيٍّ في بيتهم، يُطعمونه ويعتنون به، كما أنهم لا يتوقفون عن النَّشيد له.

استغربتُ من موضوع النَّشيد، وأحسستُ أن الأمر يتعلق بالعالم الكرتونيِّ الغنائيِّ الذي أعرفه، فسألته بدافع الفضول:

- هل قال لك ذلك الشخص ما هو هذا النَّشيد الذي ينشدونه؟!

أجاب وقد اكتسب وجهه تعبيرًا مرحًا:

- بالطَّبع لا، لم أسأله من الأصل عن هذا. لم أشغل بالي بهذا الأمر المضحك والسَّخيف.

ما إن فرغ من هذه العبارة حتى ضحكَ ضحكة مجلجلة، ومضى يواصل خطواته المتهادية، في حين كنت بدوري مُنصاعًا لإلحاح ذاكرتي الكرتونية حول أولئك البشر الذين ينشدون للتنين.

قلت لنفسي بعد بُرهة تفكير وتحليل: لعلَّهم كانوا يُنشدون ويردِّدون: «تنين حلو ولطيف تنين أخضر، تنين مرحٌ ولطيف تنيني الأمهر» لا أحد يدري، كلُّ شيء جائز!

ابتسمتُ في سري، ومضيتُ أواصل السَّير إلى جوار الرَّجل، والأفكار تُعابثني ولا تتوقف عن خلق الفرضيات والاستنتاجات.

بعد فترة من السَّير الصَّامت، تذكر الرَّجل كائنًا غريبًا آخر، حيث أشار إلى وجود طائر يرمح كالسَّهم المنطلق، ولا يستطيع أحدهم أن يبصره بسهولة، بالإضافة إلى أنه يملك في حُنجرته صوتًا متقطِّعًا حادًّا، صوتًا يشبه صوت زوامير السَّيارات في عالم البشر على حد وصفه.

عند ذلك، ذهب بي التَّفكير بشكل تلقائي صوب «رود رانر» ذلك الطَّائر العداء السَّريع الذي كان من سابع المستحيلات أن يستطيع أحد الإمساك به!

أضمرت هذا الاستنتاج في نفسي، ومضينا نشق الطَّريق بين أشجار الغابة، ونواصل قطع الأمتار المتتالية، وفي غمار هذا، وفجأة، ودون سابق إنذار، طفقت مجموعة من القرود تقفز على أغصان الشَّجر من حولنا بطريقة شيطانية مشاغبة.

بقلبٍ مقبوض وبينما كانت عيناي تُنطنطان معها على كلِّ غصن، انفرجت شفاهي سائلة:

- هل وصلنا إلى منطقة القرود؟!

عند ذلك، أطلق الرَّجل الحكيم ضحكة ممطوطة وهو ينظر إليها بازدراء من زاوية عينه:

- لا منطقة لها ولا ما يحزنون.

ثم أخذ يوضح:

- منذ رحيل زعيم القرود «طرزان» والشمبانزي «شيتا» اختلف الحال بشكل تام، وتناستْ هذه القرود الوثابة كلَّ القوانين والنَّواميس والأعراف.

- وأين يكون مكانها المحدد؟!

لم يَجِرِ الرَّجل جوابًا بشكل مباشر، بل سكت لوهلة.

انكبَّ بعدها على الأرض ليجتثَّ عُشبة صفراء، قبل أن يقول بصوت هادئ ونبرة ذات مغزى:

- ليس لتلك القرود أي مكان محدد، إنها بلا هوية واضحة، تتغطرس وتتطاول وتطغى وتستبيح مناطق ليس لها أحقية بها، تحاول بسط

نفوذها على أكبر ما يمكنها من المساحات، ورغم اعتراف بعض الحيوانات بها، فإن ذلك لم يمنحها شرعية حقيقية لوجودها، حيث إن شريعة الغاب أصدرت قرارًا يقتضي بعدم الاعتراف بها، وبكل الحيوانات التي على شاكلتها.

ما إن قال هذه الكلمات حتى لحظ أنني أطيل التَّحديق إلى حركتها بصدر منقبض، فنصحني قائلًا:

- انس أمرها، من الأفضل أن لا تلتفت لها فتظنُّ نفسها ذات أهمية، في الوقت الذي يشعر فيه القرد أن ثمَّة من يهتم بأمره، سيبقى يقفز ويُنطنط دون كلل أو ملل.

حاولت حينها الإشاحة بنظري عنها قدر المستطاع، ومضينا نواصل السَّير بين الأجمات والزُّهور البرية ذات العيدان الطَّويلة.

في حين أدرك وقتها الرَّجل الحكيم أنه وجد في عدالة التَّعامل مع القرود فرصة سانحة لامتداح شريعة الغاب من جديد، فمضى يحدِّثني بكل انتماء واعتزاز عن بعض القوانين التي تنصُّ عليها هذه الشريعة.

أشار في حديثه إلى وجود أسد فيما مضى، كان يتبختر مختالًا متغطرسًا، ولا يتوانى بكل غرور عن ترديد عبارة تقول: «أنا زعيم الغابة، ببساطة أنا الزَّعيم، ربَّما لأنني الأقوى أو لأنني وسيم!».

ولفرط الغرور واستبداد الظُّلم تحت حكمه، قرر الجميع إزاحته عن عرشه بشتى السُّبل، وتمكَّنوا بعد العديد من المحاولات من الإطاحة به، وتعيين أسد أكثر منه عدلًا وطيبة.

في تلك اللحظة، حدق الرَّجل إليَّ، فرأى أمارات وجهي قد تغيَّرت وارتبكت، فاستدرك على جناح السُّرعة وقال في سبيل أن يُطمئنني:

- ليس هنالك داعٍ للخوف، إن هذا الأسد موجود في مكان بعيد عن هنا.
- وأين يكون مكانه؟!

فأجاب بهدوء:

- إنه عند التَّل بين قطعان الظِّباء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

# 10

- لقد وصلنا إلى الطَّريق السِّريِّ، هذا هو الطَّريق الذي أخبرتك عنه ليلة أمس!

ما إن هتف الرَّجل الحكيم بهذه العبارة المنتظَرة، حتى انعطفنا وصرنا في لحظة واحدة في دغل ضيِّق، وغاصت أقدامنا في طريق عويص غير طيِّع، طريق شائك التَّفاصيل، ومكلل بأشجار متشابكة ذات أغصان ملتوية كأنَّما هي هياكل عظمية، فأدركت حينها مقدار المشقة التي علينا مُكابدتها من أجل العبور، ولكن بحسب قول الرَّجل فإن هذا الأمر يهون، بل يهون جدًّا، ما دام سيوفِّر علينا هذا الطَّريق الكثير من الجهد والوقت، وتدرأ عنَّا المخاطر التي قد تعترضنا في الطَّريق الاعتياديِّ الرَّئيسيِّ نحو تلال البحر.

ثمَّة حشائش كثيفة قد أكلها الجدبُ فراحت توزع إبر أشواكها بطريقة شرسة حادة، كما لو أنها أخذت على نفسها ميثاقًا بأن لا تسمح للعابر بالمرور منها دون أن يناله من الوخز جانب.

اشتبكتْ تلك الحشائش المعقَّدة في حذائي غير مرَّة، ولكن مضيتُ بجهد بالغ أحاول التَّكيُّفَ مع الطَّريق بكل ما أوتيت من استبسال وصمود. أتلوَّى، أنحني، أترنَّح، أتماسك، أتعثَّر، أتوازن، أتفادى، أطأطئ الرَّأس، أدعسُ على جذع شجرة من هنا، وأقاوم مباغتة الأشواك من هناك.

أما الرَّجل الحكيم، فما يزال على ما يبدو فتى الأدغال الذي عرفته ذات زمان، فعلى الرغم من تقدم العمر، فإنه آثر التَّقدم في خطواته من خلال التَّنقل بين جذوع الأشجار، كما دأب طيلة حياته أن يفعل.

كان رابط الجأش، ساكن القسمات، يتنقل برشاقة فهد بريٍّ، ويتحرك بدراية الذي روَّضته الطَّبيعة وجعلته جزءًا منها، وكان ما بين الفينة والأخرى يُلقي النَّظر عليَّ من الأعلى ليستوضح عن أحوالي، ويحثني على الإسراع ما إن تباطأت خطواتي عن خطواته.

في لحظة ما، تلطَّخ حذائي بالطِّين بشكل يعيق تحرُّكي، فانحنيت ورحت أزيل ما علق بكعبه وأكشط الطِّين عن جوانبه، وواصلت السَّير على ضجر.

بعد حين، وبشكل مباغت، عَلِقتْ حقيبتي في أحد الجذوع الملتوية، فالتفَّت أغصان الشجر من حولي كالثعابين السَّامة التي تلتف حول فريستها، وانغرزت مجموعة من الأشواك المدبَّبة في جسدي، فاضطررت إلى التَّوقف لاقتلاعها.

في تلك اللحظة فحسب، أطلقت نداءً واستمهلت الرَّجل الحكيم، شاكيًا له وعورة الطَّريق الذي بالكاد أستطيع عبوره، فالتفت إليَّ ضاحك الثغر والعينين:

- هذا شيء طبيعي، فقد قلت لك إنه طريق سريٌّ، طريق مُختصَر، ولم أقل لك إنه طريق رائع سهل.

جاريته حينئذ في الدعابة وقلت:

- يا للخسارة، ظننته طريقًا مفروشًا بالورود.

فقال بنبرة ذات قصد:

- إن الطَّريق المفروش بالورود مُريح جدًّا، ولكن لن يوصلك إلى الوجهة التي تريدها.

ثم بعد قليل أضاف يقول بنبرة استنكارية:

- أتعلم؟ شخص غريب أنت، تخاف نباح الكلاب، ولا تتحمَّل أشواك الطَّريق، أخبرني، كيف ستعيش إذن؟!

حينها أومأت إيماءة حائرة، دون أن أنبس بكلمة، قبل أن يستعجلني في السَّير، وقد راح يواصل سيره ويقول:

- الوقت ليس في صالحك؛ إن بقيتَ تتوقف كلَّ لحظة لاقتلاع الشوك الذي يعلق بك، لن تصل إلا بعد غروب الشمس، عليك أن تتجاهلها وتواصل سيرك.

فلحقتُه وأخذت أجرجر نفسي بخطوات صامتة مُكافحة لا تدري ما ينتظرها من أشواك وعقبات.

ظللتُ بُرهة من الوقت على هذه السَّجية حتى بلغ مني الإعياء كلَّ مبلغ. صرت أجر قدميَّ جرًّا، وأجد صعوبة في مجاراة الرَّجل ومواصلة العبور، إلا أنني رغم هذا لم أجرؤ على أن أطلب منه التَّوقف دقيقة واحدة.

بعد مرور الوقت، انحدر الطَّريق بشكل مفاجئ، وصار شيئًا فشيئًا ينبسط ويصبح ممهدًا بشكل أفضل، حينها ودون توطئة أو مقدمات صاح الرَّجل الحكيم، وأشار إلى أننا وصلنا إلى مكان مفصلي في خريطة الغابة، مكان يتأتى لنا فيه أن ننال قسطًا من الرَّاحة، وفسحة خلابة للنظر.

في تلك اللحظة اللاهثة، وما إن وصلتُ إلى هذا المكان حتى نسيتُ تعبي بشكل تام. انتعشتْ جوارحي وذُهلت من روعة المشهد الماثل أمام نظري. اتَّسعت حدقتاي ولم تطرف عيني لوهلة، إذ ألفيت نفسي أقف على مطلٍّ منيف يُشرف على منظر بديع يحبس الأنفاس، ويكشف للرائي بقعة شاسعة من الجانب الشرقي للغابة.

هناك في أسفل المطلّ، ثمَّة سفوح مفروشة باللون الأخضر، وأحراش تتشابك نباتاتها على نحو كثيف، وأدغال معقدة عصيَّة، وهضاب متناسقة رغم فوضويَّة توزيعها.

في البعيد، ثمَّة سهول واسعة تتبدى على امتداد البصر، تترامى في أحضانها تلال تعانق السَّديم المصبوغ بألوان الطَّبيعة التي تخلب الألباب.

كان الرَّجل الحكيم شاخص العينين، ينظر إلى المنظر نظرة صافية باردة، وكأنه اعتاد الوقوف في هذا المكان لمرات عديدة.

لم تنفرج شفتاه إلا بعد بُرهة من الصَّمت، وقد أشار حينها بيده إلى أحد الأمكنة:

- أترى ذلك الكوخ البعيد؟!

وجَّهت حينها نظري حيث أشار. دققت النَّظر ولكن لم أرَ شيئًا في بادئ الأمر. ألقيت نظرات متتابعة على نحو أدق، فوقعت عيناي على كوخ متوارٍ في جوف الوادي، وغائصٍ بين مجموعة من الأشجار الباسقة.

للحظة من الزَّمن، وبشكل افتراضي منطقيٍّ، خُيِّل إليَّ أن ذلك الكوخ هو كوخه الذي أقمت فيه ليلة أمس، وقد التففنا عليه في الطَّريق قبل أن نصل إلى حيث نقفُ الآن، بيد أنه نفى هذا ضاحكًا، ثم ما لبث أن قال:

- في هذا الكوخ يعيش مجموعة من الأقزام. قابلتهم ذات يوم، وعرفت من خلال هذا اللقاء أنهم يحتطبون الأشجار ويتخذون من حفر المناجم والبحث عن الألماس صنعة يقتاتون منها.

عند ذلك خفق قلبي، وبشكل فوريٍّ بدَيهيٍّ عادت بي الذَّاكرة إلى الكوخ القديم في قصة «فلة والأقزام السَّبعة»!

أصغيت لكلام الرَّجل وهو يواصل حديثه عنهم:

- عرفت أيضًا أنهم يتجنبون التَّعامل مع البشر، ولا يستقبلون أحدًا منهم، وقد أخذوا على أنفسهم عهدًا بذلك، برًّا بوصيَّة آبائهم لهم.

- ألم يخبروك السَّبب وراء هذه النَّظرة الإقصائيَّة لعالم البشر؟!

أجاب الرَّجل الحكيم وقد حك لحيته مُتحيِّرًا مُتلعثمًا:

- بلى، أجابوني بكلمات غريبة لم أفهم المُراد منها.

قلت باندفاع:

- ألا تذكر شيئًا من تلك الكلمات؟!

أسدل حينها جفنيه لوهلة كما لو كان يحاول التَّذكر، ثم مضى يهمهم بكلمات غير مترابطة:

- هِمم.. أعتقد أنهم رددوا على مسامعي كلمات غريبة مثل كرة كريستال. امرأة شريرة.. مشط مسموم.. تفاحة مسمومة، وأشياء من هذا القبيل.

فاندفعتُ بحرارة وقلت مُفكِّرًا:

- ألم يقولوا أيضًا فتاة في منتهى الجمال.. أمير طيب القلب.. قبلة سحرية.. جمال الرُّوح.. أو أي شيء آخر؟!

قطب جبينه مستغربًا من اندفاعي وحرارتي في الحديث، قبل أن يهزَّ رأسه نافيًا سماعه أي شيء من هذا!

فأطرقتُ مفكرًا وقد طال إطراقي المملوء بالتَّساؤلات، فلحظ الرَّجل هذا، فسألني:

- أصدِقني القول، هل تعرف شيئًا عن أولئك الأقزام؟!

قُلت حينها بشكل مباشر:

- إن قصتهم تتشابه كثيرًا مع قصة شهيرة سمعت بها عندما كنت صغيرًا.

هنا، انتقل الفضول إليه واستوضح منِّي باهتمام وإصغاء عن تلك القصَّة. فلم أتردد حينها أن أقصَّ عليه قصَّة من قصص طفولة الزَّمن الجميل التي كنا ننام عليها دون أن نكترث بما يحدث من حولنا من أحداث في هذه الحياة.

أردت وصف بياض الثلج «فُلة»، فوجدت لساني يقول كما تقول الأغنية الكرتونية:

*جمـــالُ الرُّوح يُعطيهـــــا*
*صفاءً دافئًا للخير يهديهـــا*
*جمـــالُ الرُّوح يغنيهـــــا*
*عن التَّفكير فيمن لا يُراعيها.*

وشرحتُ له كيف أن زوجة الأب الشريرة لم تدرك قيمة هذه الكلمات، وراحت لا تكف عن المقارنة والكيد للفتاة الجميلة، والسَّعي للخلاص منها بشتى الطُّرق والوسائل.

فاستوعب من فوره ذلك الشعور المقيت الذي بقي عالقًا في ذاكرة الأقزام، وفهم فلسفة الخوف المفرط الذي دفعهم لإخفاء الجانب المشرق من تلك القصة عن أبنائهم، وتوصيتهم من باب الحيطة بتجنب استقبال البشر الذين يلجؤون إلى كوخهم!

بعد دقائق، وفي لحظة صمت متفكر، تنهدتُ قائلًا في نفسي وأنا أطالع ذلك الكوخ:

في هذا الزَّمن العجيب، لم يعد بإمكاننا التَّكهن بما سترينا إياه الكرة الكريستالية، لقد انتهى زمن التوقعات، وبات كل شــيء مُمكنًا بطريقة فظيعة!

نحن لا نعرفُ أين كوخ الأقزام الذي سيحوي مخاوفنا وضياعنا، ولعلَّ السُّؤال الذي صار يفرض نفسه علينا، يا تُرى كم تفاحة مسمومة وضعت الحياة على شرفة قلوبنا، وإلى كم قُبلة سحريَّة نحتاج حتى نستطيع النُّهوض بعد موتنا!

بعد بُرهة قصيرة، قطع الرَّجل عليَّ تفكيري وقد أشار بيده إلى مكان آخر من الرِّقعة التي أمامنا في المشهد، فحاولت التَّركيز معه، وحولت بصري إلى حيث أشار، مُصغيًا إليه وهو يقول: «هناك، تُهمهم أفواج كبيرة من النَّحل فوق براعم بساتين الغور الواسعة، تُهمهم بطريقة تجعل الحيوانات تفر هاربة ما إن سمعت بطنين ذلك النَّحل اللاسع».

أحسستُ وقتها بطنين تلك الأفواج في حُجرات مسامعي، حتى إنني من فرط الشعور كدت أن أضع أصابعي في أذنيَّ!

ثم ما لبثت أن سرحت في ذاكرتي الكرتونية، فسمعت طنينًا من نوع آخر، طنين ذكرى تنبعث من بساتين الطُّفولة العتيقة، وقد لاح لي حينها أن تكون تلك البساتين التي قال عنها الرَّجل هي ذاتها البساتين التي كانت فيها النَّحلة «زينة» «من وردة لوردة تطير، تجني العبير بين الحقول، تلعب مع صديقها نحول».

ابتسمتُ بشكل تلقائي جَرَّاء هذا التَّصوُّر الوديع، وبينما كانت هذه الابتسامة الطُّفولية لا تفارق ملامحي تابعت الإصغاء للرجل الحكيم، إذ أشار بعد لحظات إلى المنطقة المتاخمة لبساتين النَّحل!

قال إن في تلك البقعة تسكن كائنات قد اتخذت بساتين النَّحل ترسًا تتكفئ فيه على نفسها، فهي كائنات لا تريد إلا العيش بسلام ووئام على حد تعبيره.

في تلك اللحظة نبضت ذكرى قديمة في داخلي، وخطر لي على نحو عميق أن حال هذه الكائنات يشبه حال الكائنات التي كانت تهتف بصوت صادق ذات زمان، صوت صافٍ لا تشوبه شائبة من أي نوع:

*ما أحلى أن نعيش في خير وسلام، ما أحلى أن نكون في حب ووئام، لا شر يؤذينا، لا ظُلم يؤذينا، والدُّنيا تبقى، تبقى أمان للجميع.*

كنَّا نُردد كلمات هذه الأغنية في طفولتنا بقلب مفعم بالنَّقاء، وكنا بكل براءة نظنُّ أن هذا من الممكن أن يحدث بسهولة، ولكن عندما كبرنا أيقنا أن الأمر غاية في التَّعقيد، ولن تتركنا الأيَّام نحقق تلك الرَّغبة البسيطة، وعلى الرغم من هذا، ظلَّت هذه الأمنية تختصرُ ألف شعور في طيَّات صدورنا المتعَبة، وكأننا لا نريد غيرها من أيَّام هذا العمر!

بعد لحظات، قطع الرَّجل عليَّ تفكيري من جديد، إذ أشار إلى مكان آخر من الرِّقعة الجغرافيَّة التي أمامنا، وقد راح يقول:

- في تلك المنطقة يُشاع أنه هناك قرية مهجورة يحيطها الغموض والغرابة.
- كيف؟!
- يقولون إن فيها فواكه وخضراوات تتكلم كسائر الكائنات في الغابة، أو شيء من هذا القبيل.

ثم أضاف بمنطقية:

- أنا لم أرَ هذه الأمور بأم عيني، لهذا أظن أن هذا ضرب من الاختلاق الذي لا يتقبله العقل السَّليم.

خطر لي وقتها إمكانية أن يكون للنباتات لغة لا يعرفها الإنسان والحيوان، وبعد وهلة من التَّفكير، تذكرتُ شيئًا مشابهًا لهذا في إحدى الحكايات الكرتونيَّة القديمة، وقد قلت لنفسي: لعلَّ تلك القرية التي يحكي عنها تكون هي «قرية التُّوت» التي سمعت بها ذات زمان، حيث الأحلام تُعاش، والألحان تُصاغ، والأحزان تُنسى، والأشواق تُهدى..

أضمرتُ هذا الشيء في نفسي وواصلت الإصغاء لحديث الرَّجل على مضض.

بعد مرور دقائق، أشار إلى منطقة جديدة أخرى، هذه المرة أشار إلى منطقة زرقاء تحتل مكانة واسعة من المشهد، وقال إنها بحيرة هادئة تكثر فيها جماعات البط والإوز والبجع.

فابتسمتُ بشكل تلقائيٍّ، وخطر لي من خلال رائحة الوصف الذي ذكره أن هناك مسلسلًا كرتونيًّا يحمل اسم «بُحيرة البجع» ولكنني لم أتابع شيئًا من حلقاته، ولهذا، لا أعرف إن كانت تلك البحيرة هي البحيرة التي أمام أنظارنا الآن!

تداعت الصور في مخيلتي في تلك اللحظة وخطرت لي في الوقت ذاته قصَّة الفتى «نيلز»، ذلك الفتى الشقي الذي صُغِّر حجمه، واستطاع وقتها أن يفهم لغة الطُّيور ويعتلي أجنحتها.

تذكرتُ المشهد الختاميَّ المؤثر حين كبر وعاد إلى حجمه الطَّبيعي، لم تعرفه الطُّيور وقتها، فامتلأ قلبهُ بالحسرة واضطر إلى توديع سرب القائد «أكسا» وهو يهتف من أعماق قلبه: «عودوا في الرّبيع، سأفتقدكم كثيرًا..».

لعلَّ هذا الوداع يشبه وداعنا لأيَّام الطُّفولة والنَّقاء والصَّفاء، فقد كبرنا في العمر، وما زلنا ننتظر رجوع ربيع الأيَّام إلى صدورنا المتعَبة، مع أننا نعرف في قرارة أنفسنا أنه لن يعود أبدًا، وأن علينا التَّكيف مع بقية الفصول المكتوبة في رزنامة عمرنا.

تنهدت بعمق، وبمشاعر مبعثرة وعينين غائمتين ظللتُ مدة من الوقت أتأمل في تلك البحيرة الزَّرقاء، ثم ما لبثت أن رميت أنظاري إلى ما بعد البحيرة، فتراءت لي منطقة مترامية الأطراف تختلف في شكلها عن بقية المناطق.

سألتُ الرَّجل الحكيم عن تلك المنطقة القصيَّة الغريبة، فقال إنها مساحات خضراء شاسعة، تعود إلى غابات عصيَّة عميقة تُسمَّى «غابات تزمينيا»!

عند ذلك، استفاقت إحدى الذِّكريات الكرتونية في صدر طفولتي وتخيَّلت بشكل تلقائي صورة «تاز المشاكس»، ذلك المخلوق الذي كان يتحدث بطريقة غوغائية غير مفهومة، يخرج من خلالها لُعاب لسانه الكبير عند كلِّ كلمة يتفوه بها، بشكل يدعو للاشمئزاز والضَّحك في الوقت ذاته.

لست أدري، ولكن، لعلَّ الحياة تتحدث معنا بالطَّريقة ذاتها! في كثير من الأوقات، وتفترض أننا قادرون على فك رموزها وطلاسم لغتها، بمنتهى السهولة والبساطة!

بعد لحظات، وبينما كنت شاخص النَّظر في أعماق اللوحة الجغرافية التي أمامي، تركت عينيَّ تنتقلان رويدًا رويدًا على تفاصيلها والقصص التي مررنا بها في حديثنا، وكيف أن أطيافها ما تزال عالقة في ذاكرتي التِّلفزيونية إلى غاية اليوم!

في غمار كلِّ هذا الوقت، كنت أستندُ بظهري إلى جذع شجرة عتيقة من البلوط، وقد نسيت أمرها تمامًا من فرط الارتياح والانغماس في المشهد، ولكن، ما إن رفعت جسدي وتخلَّيتُ عنها، حتى وعيت أن هناك مادة صمغيَّة عَلِقتْ في يدي وثيابي من خلال لحائها.

فطفقتُ أفرك يديَّ علني أستطيع الخلاص من سطوة الدبق، ولكن، وفجأة، نسيت هذا الأمر بشكل تام، بعد أن نظرت نظرة مدققة إلى جذع الشجرة.

في تلك اللحظة، تسارعت دقات قلبي. تجمَّد الدم في عروقي وتلعثم لساني، التفت إليَّ الرَّجل قبل أن أنبس بكلمة واحدة، تلاقت نظراتي بنظراته، ثم نظر إلى الشجرة ذات اللحاء المنزوع، ففهم ما تبادر إلى ذهني على الفور، دون أن تندَّ عنه أي كلمة خوف، أو ترتجف له عين، بل ضحك ضحكة ممطوطة، واندفع يقول:

- إنَّ هذه ليست علامة على وجود الدببة أيها الأبله، هذا الشيء ليس له علاقة بها لا من قريب ولا من بعيد.

ابتلعت ريقي بسرعة، وركضَت الكلمات منطلقة من فمي بشكل متلجلج:

- طيب، ما معنى هذا الشيء؟!

فقال ضاحكًا:

- ألا ترى؟

إنها آثار نقر متواصلة، آثار نقر جعل لحاء الشَّجرة يبدو هكذا، لا ريب أنه منقار قوي متين، وعلى الأرجح أن هذا المنقار هو منقار «نقَّار الخشب»، لعلَّه مرَّ من هنا منذ وقت قريب.

عند ذلك زفرت وأخرجت كلَّ هواء الخوف من رئتي، ووجدت نفسي أستنشق هواء ذكرى كرتونية جديدة، وأغوص في بحر الخيال الطُّفولي الرَّائع، إذ تخيَّلت لحظتها النَّقار «وودي» وهو ينقر بشكل سريع متتابع على الخشب، ويشفع ذلك برنين ضحكته المستفزَّة الشهيرة التي كان يطلقها في الهواء.

تنهدتُ متمنيًا في نفسي:

يا ليت باستطاعتي استعارة ضحكة «نقار الخشب» لأضحك بها على كلِّ الأشياء التي تخشَّبتْ في حدائق عمري، ولم يعد لها قيمة في طيَّات الذَّاكرة العتيقة.

يا ليت بإمكاننا أن نطبِّق قاعدته اللامبالاة نحو الأشياء، قاعدته التي تقول: «أحب أكثر شيء، أن أقوم بفعل لا شيء، كي لا أشعر بأي شيء» فهذه الحياة لا تستحق كلَّ هذا الخوف الذي نستنزفه من أجلها، ولا تستحق كلَّ هذا الاهتمام المبالَغ الذي نمنحها إياه!

بعد بُرهة من الوقت..

وفي لحظة فارقة في المشوار، أشار فتى الأدغال الذي عرفته في ريعان طفولتي، وغدا اليوم رجلًا حكيمًا، أن دوره في رحلتي قد انتهى، وأنه لا يستطيع مرافقتي أكثر من ذلك، امتثالًا لقانون قطيع الذِّئاب الذي يحتِّم عليه أن لا يخرج عن حدود المنطقة التي ينتمون إليها!

تفهَّمتُ هذا الشيء بمشاعر متناقضة، مشاعر تحاول فهم حتمية أنني سأكمل الطَّريق بمفردي كما بدأت!

وبمفارقات غريبة تمور في صدري، أصغيتُ إليه وهو يوصيني قائلًا:

- اسمع، في قانون قطيع الذِّئاب، ثمَّة نصيحة جوهرية مختزلة في عبارة تقول: «فلتحذر أن تغتَر، استخدمْ عقلك أكثر، وحدَكَ عُود غضٌّ وطري، والجمعُ عصا لا تُكسر» وأنا أقول لك الشيء ذاته، ولا سيما أنك ستكمل الطَّريق بمفردك.

ثم أضاف بالنَّبرة الواعظة الحريصة ذاتها:

- رحلتك في الغابة لم تنتهِ بعد، فلتكن على قدر كبير من اليقظة والحذر، انتبه، فليست كلُّ الأنياب تستطيع رؤيتها أو التَّكهن بها، وما دمتَ تسير وحدك فتوقَّع كلَّ شيء في رحلتك، فالأعين المتربِّصة والنُّفوس المريضة يغريها من يستطيع السَّير وحيدًا، حتى لو لم يكن لها حاجة واضحة عنده.

ما إن قال تلك الكلمات الحكيمة حتى ربتَ على كتفي، وبوجه إنساني دافئ، أرشدني للطريق الذي يتعين عليَّ أن أسلكه نحو البحر، وتمنى لي التَّوفيق في رحلتي.

شكرته على كلِّ شيء قدَّمه لي، على إيوائي في كوخه، وحمايتي من براثن الغاب وأنياب الحيوانات، واصطحابي في الطَّريق السِّريِّ والصَّبر عليَّ، فلولاه لم أكن أعرف كيف سأتدبَّر أموري!

لم تكن المصافحة كافية لتبيِّن له عن سعادتي العميقة برؤيته، فعانقته من تلقاء نفسي دون أن أشعر، فتفهم هذا وبادلني الحرارة في العناق.

مضيتُ بعدها أواصل رحلتي في عالم الرُّسوم المتحركة، وقد اختمر في قرارة نفسي تصوُّر يتعلق بحياته التي يعيشها، أنه وعلى الرغم من حديثه المرير عن عالم البشر، وانتمائه الوجداني إلى عالم الغاب، فإنه يحمل في طياته قلب إنسان حقيقيٍّ...

ولكن، هكذا هم الأشخاص الحقيقيون، لا يستطيعون العيش في بيئة مزيفة لا ينتمون إليها، يبحثون دومًا عن الأمور الحقيقية التي تخفف عليهم غربتهم، ويفعلون أي شيء مقابل أن يشعروا بالانتماء إلى مكان يُشبههم وحسب.

ولعلَّ عزائي في هذا، هو أنني تركت له في الكوخ رواية إنسانية تتحدث عن عالم البشر، أقصد الرواية التي أهدتني إياها قاطنة مزرعة القمر الجديد في أول الرِّحلة.

لم أخبره بهذا، ولست أدري إن كان سيهتم كثيرًا بأمرها حالما يعثر عنهم، وتقع بين يديه.

لا أعرف لماذا فعلت هذا، ولكنني شعرت باستحقاقية أن يقرأها ويسبر أعماق النَّفس البشرية بطريقة مختلفة عن التي عهدها، أن يلامس المفارقات والتَّناقضات التي تحدث داخل جدران الإنسان، أن يتوسَّع في فهم النَّوازع والأسباب التي تسيطر على تصرفاته. أحسست أنه من الجدير أن يستمع لأفضل من يحكي عن الإنسانية من أبنائها، ولعمري، من أفضل من الكُتاب يستطيع فعل هذا بكل حياديَّة وشفافيَّة وإتقان!

على العموم، لست أدري إن كنا نشبه «ماوكلي» في مدى قدرتنا على تحمل حياة البشر، وهل وصلنا إلى هذه المرحلة الموحشة بالفعل، ولكن ما أحوجنا إلى أن نعيش حياتنا الإنسانية كما هي الحياة البهيمية في عينيه، «إخلاص، حُب دافئ، عيش فطريٌّ هانئ، لا ظلم ولا خوف لا غدر ولا أحزان».

فإنَّ قلوبنا تَعِبتْ من التَّعايش مع الوحوش البشرية التي تُحيطها من كلِّ جانب، والأنياب غير المرئيَّة التي تحاصرها، تَعِبتْ من الكائنات التي تحاول أن تفترس ما تبقى من حياة داخل غابات صدورنا الخائفة!

# 11

«قصصٌ شتَّى وحكايات حدثت في تلك الغابات
يرويها دُبٌّ محبوبٌ جاء يسلي الحيوانات»

بهذه الكلمات التي ما تزال عابقة بدهاليز الذِّكريات، مضيتُ أترنم سائرًا في طريق غابيٍّ موحش، أحاول من خلالها كسر شعور الوحشة الذي انتابني منذ أن فارقت الرَّجل الحكيم.

بعد انقضاء ساعتين كاملتين على اللحظة التي تركته فيها، تعاظم الشعور في صدري بشكل فظيع، وصار يُوشوش في مسامعي بفلسفة اللحظة الرَّاهنة التي أشعر بها:

ما أصعب الوحشة من بعد أنس، وما أبشع الخواء من بعد امتلاء، وما أقسى الرَّهبة من بعد طمأنينة، وما أشقى أن تشعر بالخوف بعد شعور غامر بالأمان، أن تتفقد من كان يسير معك في الطَّريق فلا تراه بجانبك، وتشعر أن أمامك دربًا طويلًا معقَّدًا ستسير فيه بمفردك!

لعلَّ الشيء الإيجابي الوحيد من هذا كلِّه هو أنني استطعت قطع مسافة لا بأس بها بين الشعاب والأدغال، ودنوت بشكل أكبر من شاطئ البحر المنشود، ولكن، وعلى حين غرَّة، داهمني شعور بالعطش، فحاولتُ العثور على منبع للماء في المنطقة التي وصلت إليها.

شيئًا فشيئًا طغى العطش واستبد في أوصالي، وصار حلقي جافًّا كالرماد. حثثت خطواتي، وبذلت قُصارى جهدي في البحث، ولكن الوقت مرَّ، ولم يسفر البحث عن قطرة ماء واحدة.

ماجت الأرض أمامي وتشابهت الطُّرق في عيني.

ما أوحش أن تصبح كلُّ الجهات متشابهة في عينيك، ولا تدري أي الطُّرق ستروي عطشك..

في غمار هذه المشاعر الظَّامئة الباحثة، وفجأة، طرق مسامعي صوت خرير للمياه.

انقبض صدري لوهلة، وشككتُ أن يكون هذا الصَّوت سرابًا!

عاد الصَّوت لطرق مسامعي، فأصخت السَّمع ومضيتُ أحاول اقتفاء صوت الخرير.

لعمري، ليس هناك بؤس يضاهي بؤس شخص عَطِشٍ يسمع هدير الماء من حوله، ولكن لا يعرف كيف السَّبيل إلى الوصول إليه والارتواء!

للحظة من الزَّمن، خيِّل إليَّ أنني أقترب من صوت الخرير بشكل أكبر.

خفق قلبي، تشوَّفت الجدول في خيالي، وقد رحت قائلًا في نفسي:

لعلَّ ما ترسمه في خيالك ستجده في أي لحظة أمام عينيك!

هذا ما حدث بالفعل، فما هي إلا بضع دقائق حتى التمع في عيني ما رسمته في خيالي. نبض قلبي العاطش، واتَّسعت عيناي الزَّائغتان من فرط التَّعب، فرأيت جدول مياه ينداح من بين السَّراخس والحشائش.

على الفور، وبلمح البصر، اندفعتُ هيمانًا على وجهي، مدفوعًا برغبة إخماد ثورة العطش التي تندلع في كلِّ ركن من أركان جسدي المنهَك.

ما إن وصلت إليه حتى انكببت جاثيًا على ركبتيَّ، ورحت أعبُّ من الماء بكلتا يديَّ.

وعلى الرغم من ملوحة المياه فإنني مضيتُ أشرب دون أن ألتقط نفسًا واحدًا. شربتُ حتى ثقل جسدي وصار كالبرميل المملوء.

حينها، لم يكن من السَّهل أن أنهض بشكل مباشر وأكمل الطَّريق، فجلست بُرهة من الوقت بين تلافيف المكان وبقبقة المياه، على وقع أصوات شتَّى

كانت تتسلَّل إلى مسامعي. نقيق ضفادع، نعيب غربان، أنغام حساسين وكنانير وبلابل، وطنين حشرات تُعد ولا تُحصى.

وفي اللحظة التي هممتُ فيها بالنُّهوض وإكمال السَّير نحو البحر، وفي لحظة مرعبة غير متوقَّعة، سمعت صوتًا غريبًا ينبعث من بين الحشائش. جفلت من فوري ورفعت رأسي، فإذا بكلب أبيض اللون كبير الحجم يلوح من بعيد.

ارتجفت وطار لُبِّي. انكمشتُ بسرعة على نفسي وتكوَّرت كما تتكور سلحفاة داخل قوقعتها عندما تشعر بالخطر المحدق من حولها.

كان الكلب على مبعدة صرخة خوف واحدة. لم أتزحزح من مكاني قيد أنملة، ولم أدرِ ماذا أفعل على وجه التَّحديد، إنما ظللتُ أتابع حركاته بقلب راجف، ودون أن تطرف عيني لحظة واحدة.

في خضم هذا، وفجأة، انبثق صوت الرَّجل الحكيم من حجرات الخيال، وأصغيت له وهو يُنبِّهني قائلًا:

- يا بنيَّ، تكتسب الكلاب قوتها من خلال خوف الآخرين من نباحها!

امتلأتُ حينها بالجسارة، وأيقنت أن الكلبَ سيحسُّ بوجودي عاجلًا أو آجلًا.

فاستجمعت قواي ومضيتُ أرفع جسدي شيئًا فشيئًا على نحو متباطئ، وما إن صرت في وضعية تشبه وضعية القُرفصاء، حتى لمحتُ رجلًا فارع القامة، ضامر الجسد، يمشي متهاديًا من خلف الكلب الأبيض.

عند ذلك، وفي لحظة واحدة انطلقت نوبات من النُّباح المتواصل الحاد فلحظ الرَّجل وجودي على الفور.

على الرغم من ارتجاف أوصالي فإنني ظللتُ متسمِّرًا في مكاني كما لو كنت مجرمًا تداهمه دورية للشرطة، ولا يعرف ما هي تهمته بالضَّبط!

ما إن دنا الرَّجل وكلبه مني وصارا على مبعدة كلمة واحدة، حتى توقف نُباح الكلب اللاهث، وهتف الرَّجل على نحو ودود غير متوقَّع:

- هل أنت بخير؟! ما الذي تفعله في الغابة وحدك؟! هل بإمكاني مساعدتك في شيء؟!

ابتلعت ريقي وقد استكان خوفي، وبشكل مباشر سألته عن مكان البحر، فأشار بنبرة تنم عن دراية ومعرفة بالمكان:

- لقد وصلت، أنت الآن على أعتاب البحر، وهذا الجدول الذي أمامك ما هو إلا انبثاق من فوالق الصَّخر الذي تحيط به، وما عليك سوى عبور المنحدر المفروش بالحصى حتى تنعتق من الغابة بشكل كامل.

انفرجتْ أساريري في تلك اللحظة، وفهمتُ سرَّ ملوحة المياه الدفاقة التي ارتويت منها، ولكن ما إن نبح الكلب بشكل مفاجئ حتى سرتْ رجفة في بدني.

انتبه الرَّجل لهذا فاستدرك بسرعة يمتدح الكلب ويقدمه إليَّ كأنما يقدِّم لي مدير أعماله الخاص:

- نسيتُ أن أعرِّفك على هذا الكلب اللطيف، إنه صديقي الوفي الذي يقف معي في كلِّ الظُّروف، إنه بجانبي في كلِّ وقت.

حينها، ازدردت ريقي، وبالكاد ارتسمت نصف ابتسامة على صفحة وجهي، فيما راح الكلب يلوِّح بذيله ويدلي لسانه الطَّويل، كما لو كان يوقِّع على كلام صاحبه.

وبينما كانت جوارحي ما تزال مضطربة وتشعر بالخطر إلى حد ما، أشار الرَّجل مُطمئنًا أن هذا المكان لا تصل إليه حيوانات الغابة، وإن المردَّ الحقيقي لهذا هو خوفها من الاقتراب من الإنسان الصَّياد الذي يرتاد شاطئ البحر.

هززتُ رأسي باسمًا، ثم ما لبثت أن غادرتهما بصمت، وتوجهت للمنحدر الذي أرشدني الرَّجل إليه، وخلال هذا، وفجأة، ومض في خيالي طيف من أطياف الذِّكريات الكرتونية القديمة.

لحقتُ الطَّيف وحثثت الخطوات، فوجدته يهتف في مسامعي:

- ما أشبه حال هذين الصَّديقين بحال «بيل وسبيستيان»!

فابتسمتُ حينها وقد انتعش قلبي على نحو طفولي مرح..

ومضيتُ أدندن بالمقطع الموسيقيِّ الذي يقول: «لا أحد يعلم من أينَ.. جاء بيل يسعى إلينا.. يومًا لاقى سبيستيان.. سارَ معه في كلِّ مكان!».

# 12

تحرَّش اليأس بي فنهرته. حاولتُ المحافظة على رباطة جأشي. أسلمت جسدي من جديد لسطح المنحدر المرصوف بالحصى، عقب عدَّة محاولات باءت بالفشل الذَّريع.

شددتُ عُرى حذائي المطاطيِّ. صمَّمتُ على بلوغ القمة مهما كلَّفني الأمر، وازنت من جسدي المتعَب، وصرت أغرس أقدامي في الحصى، حتى إذا ما شعرت أنني أصبحت راسخًا رسوخ الجبل، نقلتها برفق وحذر. ثابرت على هذا، وأحسستُ لوهلة بنجاعة الطَّريقة وفاعليتها، وأنني سأفلح هذه المرة في الوصول.

انهالت حفنة كبيرة من الحصى في لمحة عين. ترنَّحت، فقدتُ توازني. أوشكت الانزلاق والرجوع إلى حيث بدأت، ولكن وازنت من نفسي في اللحظة الأخيرة. تشبَّثتُ بحقيبتي الجلدية، وواصلت الصعود بعزيمة بطولية.

لهثت لهاثًا شديدًا، تعفَّرتُ بالتُّراب ووجدت نفسي أستف شيئًا منه عنوة عنِّي، فمضيتُ أتفله غير مرَّة دون جدوى، وصرت أتنفَّس بصعوبة بالغة.

تقرَّحَ باطنُ يديَّ، ومع هذا كافحت وشحذت همتي، وتتابعت خطواتي الملتاعة بالصُّعود، وعلى سبيل تناسي ما كنت أقاسيه في تلك اللحظة، مضيتُ أستعرض شريط الأحداث التي مررتُ بها منذ بداية الرِّحلة، في الوجوه التي قابلتها، في القصص التي سمعت بها، في الأمكنة التي تقصَّيتُ عوالمها وشممتُ أريج عطرها.

ثمَّ بشكل طامحٍ صرت أفكر في النَّاس الذين سأقابلهم على الشاطئ، وفي المحطات التي تنتظر قدومي إليها.

في سينما اللاوعي احتشدت كثير من المشاهد الفوتوغرافية في ذهني، فرأيت العديد من الأماكن التي تكتنز بالحكايات والأسرار، وتكتنف برائحة الغموض والتَّشويق والدهشة والطُّفولة.

في غمار هذا، كنت من آونة لأخرى أخشى الانزلاق والعودة إلى سفح المنحدر.

ليس هناك خيبة تُعادل خيبة من تقاعس في الأمتار الأخيرة قبل الوصول.

تحاملتُ على نفسي لئلا أذوق مرارة تلك الخيبة. تشوَّفت القمة وتشبثت بها بعينيَّ، وفي اللحظة التي أحسستُ فيها أنني وصلت، كنت قد وصلت بالفعل.

وصلتُ خائر القوى مقطوع الأنفاس. لم أتمكن من الوقوف على أقدامي، فارتميت من فوري متهالكًا على سطح قمة المنحدر، بثياب مغبرة كأنما هي خارجة من فم كلب مسعور.

مضيتُ ألهث وأحاول بجهد التقاط سلسلة من الأنفاس السَّريعة، ثم ما لبثت أن اكتفيت برفع رأسي لرؤية المكان من حولي.

حينها، وبعينين مُفعمتين بالدهشة والانبهار، رأيت السَّماء تشع وتتوشى بألوان الغروب، وهناك في البعيد تتراءى أمواج البحر العليل الممتد، الذي يشيع في الكون وميض زُرقته، ويبثُّ في النَّفس نفحات من الصَّفاء الدافئ!

استويتُ جالسًا وتنشقت الهواء ليهدأ تنفسي اللاهب، ثم ما لبثت أن نهضت متثاقلًا وصرت أنفض الغبار عن ثيابي، وقد مضيتُ أطالع المشهد المهيب البديع الماثل أمام ناظري.

كانت قمَّة المنحدر تُتيح للرائي النَّظر في آفاق مكشوفة الآماد، من خلفي استطعت أن أرى بجلاء الغابة التي عبرتُها، وتلك المنحدرات والأحراش المعقدة التي كنت غائصًا فيها.

لا شعور يُضاهي شعور أن تنظر من خلفك إلى المسافات التي قطعتها، والعراقيل التي تمكنت من اجتيازها، وخيالات الأشخاص الذين مررتُ بهم، ثم تقول متنهِّدًا بكل اعتزاز: لقد استطعت عبور كلِّ هذا!

بعينين احْتَشَدتْ بهما رؤى رائعة، أرسلت طرفي إلى البعيد، وتطلعت في الأفق الموسوم بالمغيب، فرأيت منطقة شاسعة ذات سطوة برية، خِلتُ من خلالها أنني أبصر قطعانًا من الحمر الوحشيَّة.

وفي بقعة أخرى من المنطقة ذاتها ثمَّة قطعان من الجواميس أو الوعول البريَّة، لست أدري ما هي على وجه التَّحديد، ولكنها لم تكن ساكنة كما هو حال الحمير الهادئة، بل كانت تعدو مُستنفرة في هيجان وغضب، كما لو كانت تفرُّ من خطر وشيك يُداهمها، أو هكذا تصوَّرت في تلك اللحظة.

انتقلت بعينيَّ وأبصرت في أحد الأركان ثُلَّة من التِّلال السَّامقة التي تعانق السَّديم الممتد، وقد انتحت كلُّ تلة مكانًا قصيًّا عن نظيراتها، بحيث إن الرَّائي يستطيع مشاهدة كلِّ واحدة منها على حدة.

فيما كنت أطيل التَّحديق إليها وأتخيَّل الأشياء التي تعتري أشجارها، نبشتُ بين تلال الذَّاكرة، ومضيتُ أقلب في أرشيف الطُّفولة، لعلَّني أكون حاضرًا لشيء من هذا على شاشة التِّلفاز الكرتونيَّة.

استغرق الأمر بضع لحظات، قبل أن يذهب بي الخيال الطُّفوليُّ إلى أن تكون هذه التِّلال هي ذاتها «تلال الفراولة»!

تلك التِّلال السَّاحرة التي كانت تجري فيها أنهار الفراولة بشكل لذيذ عجيب، وكانت تقطنها فتاة الفراولة الحمراء «ستروبوري شورت كيك» مع صديقاتها الطَّيبات ذوات المواهب الرَّائعة والفريدة، ولكن، على ما يبدو في هذه المرة، أنني أنا الذي أتيت من بلد بعيد!

هكذا قُلتُ في نفسي، على الرغم من أنني لم أكن متيقِّنًا من هذا الاستنتاج السبيستونيِّ الذي وصلت إليه.

وفيما كانت الابتسامة لا تفارق شفتي، أخفضتُ رأسي والتفتُّ نحو جهة أخرى، فأبصرتُ العديد من المروج الخضراء الممتدة، مروج على شكل تلال صغيرة، مرسومة بمنتهى الاتِّساق والانسجام كأنما هي لوحة دقيقة التَّفاصيل، مرسومة بريشة رسَّام مُتمرِّس.

أطلتُ التَّحديق إلى تلك التِّلال، وفي غمار هذا، وعلى نحو فجائي، لمحت حركة غريبة تحدث في بقعة منها، أسدلتُ أجفاني المُتعبة للحظات ثم أرجعت البصر من جديد.

جعلتُ يدي على شكل منظار ودققت النَّظر، فكأنَّما أبصرت حينها أربعة أجسام ملوَّنة تركض خلف بعضها بعضًا، ولكن، وفي غمضة عين، اختفت تلك الأجسام بشكل تتابعي واحدًا تلو الآخر، كما لو أنها سقطت في إحدى الحفر.

عند ذلك..

خفق قلبي الطُّفوليُّ وتسلل إليَّ مشهد من نافذة الذَّاكرة، فحدقت إليه بشعور جارف بالحنين، فهمس لي أن تلك الأرض الواسعة قد تكون ذاتها هي «أرض التيلتابيز»!

وبشكل تلقائيٍّ ومن خلال حاسة الاستبصار الطُّفوليَّة، رأيت نفسي في الخيال أجلس برفقتهم داخل منزلهم القابع تحت التِّلال الخضراء.

تخيَّلتُ أنني أتناول معهم ذلك البسكويت الشهي الذي كانوا يعدونه، ثم ألعب معهم بصدر مفعم بالحبِّ والحيويَّة والطُّفولة، دون أدنى نوع من التَّحفظ أو الخوف.

تخيَّلتُ أنني أحادثهم بالكثير من الأحاديث العالقة في صدر طفولتي، ثم ما إن ينقضي الوقت حتى ألوح لهم مُودِّعًا هاتفًا بما اعتدت سماعه عند إيوائهم للمنزل في لحظات الغروب: «إلى اللقاء تيلتابيز..».

وفيما كان المشهد ما يزال يبسط تأثيره علي، رفعت رأسي في تلك اللحظة، وألقيت نظرة على الشمس الغاربة التي تكاد تغطس في أفق البحر الرَّحيب.

تركزتْ نظراتي عليها بشكل دقيق، فلاح لي من فرط الشعور أنها تحمل وجه طفل ضاحكًا يحيِّيني، ولكن هذه المرة وعلى غير العادة، كانت تحمل وجهًا مختلفًا عن الوجه الاعتياديِّ الذي عرفته في هذا البرنامج!

خفق قلبي خفقانًا حادًّا، سرت قشعريرة في جسدي، وشعرت بنوع من الخدر في أطرافي. أمعنت النَّظر مشدوهًا، وقد أحسستُ لوهلة بأن وجه ذلك الطِّفل.. يُشبهني!

* * *

# 13

على مرأى النُّجوم المتلألئات، وما بين القواقع والأصداف، وشوشتْ أمواج البحر العطوف في مسامع الليل البهيم، أن ثمَّة عابرًا يسير على رمل الشاطئ، يحمل في صدره طفلًا يبحث عن ذكرياته، وسفينة يُبحر على متنها نحو الأفق الجديد من رحلته العجيبة.

ثمَّة بواخر تطلق صافراتها لتمتزج بصياح الملاحين. ثمَّة طيور غريبة تعابث الموج الهادر من خلال أصواتها وخفقان أجنحتها، ثمَّة صيادون يبسطون شباكهم فوق صخور الشاطئ، يرمون صناراتهم وآمالهم في عمق البحر الأشيب الجليل، وكلُّهم تَوْقٌ لأن يعلَق السَّمك في خطاطيفهم المتعطِّشة. يدندنون أناشيد البحر وتراتيله بكل شجن، تتمايل رؤوسهم من بين ظلال الظُّلمة الدامسة، كأنها رؤوس أشباح ترُفُّ على مياه المحيط الهادر.

ما إن دنوتُ من الصَّيادين بشكل أكبر حتى تعالت أصواتهم، وصارت التَّمتمات واضحة جلية النُّطق والمعنى. عند ذلك، وفي لحظة واحدة، سرت قشعريرة طفوليَّة في جوانحي، وانسابت بداخلي العديد من المشاعر المدغدغة، حيث سمعتهم يُنشدون بصوت جماعي واحد وإيقاع مُنتظم رتيب: «في البحيرات، في الأنهار، في الجداول، في عمق البحار، مع تباشير الصَّباح، برفقة هبَّات الرِّياح، زورق يرمي الشِّباك لاح».

عَلِق طعم تلك الكلمات في صنارة ذكرياتي بسهولة فائقة، وذهبتْ بي الذَّاكرة إلى زمن «رامي الصَّيَّاد الصَّغير».

ظللتُ مُتسمِّرًا بُرهة من الزَّمن في مكاني، ومضيتُ أصغي لدندناتهم...

في غمار هذا، وبشكل فجائيٍّ، ومن بين غلالة الظَّلام التي كانت تطوِّق المكان، لمحت طيف شبح يتقدم بخطواته نحوي!

ابتلعتُ ريقي، ومضيتُ مضطربًا أرقب ما يريد. وفي لحظة توتر حادٍّ، ولكي أبدِّد لحظة الرِّيبة التي حاصرتني، انبريت وأطلقت سؤالًا في الهواء:

- لو سمحت، إنني أبحث عن السَّفينة التي ستنطلق هذه الليلة في عُمق البحر، هلا دللتني عليها من فضلك؟

اقترب الرَّجل مني، وصار أمامي بشكل مباشر، وقد حالت الظُّلمة دون أن أستطيع تمييز ملامح وجهه.

على الرغم من تلقُّفِهِ للسؤال فإنه لم يَجِرْ جوابًا بشكل فوريٍّ، إنما تفحص شكلي وقال بعد فترة من الصَّمت وكأنَّما فتلَ شاربه وأشار بيده لحظتها:

- أترى تلك السَّفينة التي تنبعث الأضواء من صاريتها؟! أظن أن هذه السَّفينة هي التي عليها الدور في الإبحار لهذه الليلة، عليك أن تتأكد بنفسك.

نظرتُ إلى حيث أشار. سألته:

- هل تعرف متى ستنطلق بالتَّحديد؟!

فكأنَّما هز رأسه نافيًا وهو يقول:

- لا أعرف بالضَّبط أيها الغريب، ولكن لا أعتقد أنهم سيتأخرون في رفع مرساتها.

تحرَّكتْ شفاهي في تلك اللحظة، ولكن دون أن أنبس بكلمة.

لم أعرف ماذا أريد القول بالتَّحديد، ولعلَّني أردت أن أسأله عن الأغنية السبيستونيَّة التي يرددها الصَّيادون!

لكنني ترددت لسبب لا أعرفه، وارتأيت المضي نحو السَّفينة المُبحرة مجرجرًا أذيال الصَّمت من خلفي.

بعد بضع خطوات، وفجأة، وإذا بالرجل قد صار يهتفُ مُستدركًا مناديًا كأنما نسي أن يقول شيئًا، فوقفتُ في مكاني وانتظرت أن يدنو مني من جديد، ويفصح عن غايته، فوجدته يقول وهو يقترب:

- إني سمعتهم يقولون إن دعوة الغريب مستجابة يا أخي.

هززتُ رأسي حينها وسألته عن حاجته، فأفصح يقول:

- إن سبل الرِّزق ضاقت علينا مع انحسار أعداد الأسماك الموجودة في مرمى شباكنا على الشاطئ. ادعُ لنا أن يفرج الله أزمة الصَّيد التي نمر بها هذه الأيَّام، فإنها أيَّام عسيرة علينا نحن وعائلاتنا.

هززتُ رأسي آسفًا، وأبديت تعاطفي حيال هذا الأمر، وفي غمار هذا الشعور، وفجأة، صدحت حناجر الصَّيَّادين بنشيد «الصَّياد الصَّغير» من جديد، واستوقفني هذه المرة أنهم يرددون عبارة: «مع تباشير الصَّباح» على الرغم من العتمة التي تحيط بهم.

هنا، وبينما كان الرَّجل ما يزال على مقربة منِّي، صار لديَّ سبب وجيه للسؤال عن سر هذا النَّشيد لديهم، فانتهزت الفرصة واستوضحت عن الأمر.

سألت:

- لماذا يُغنون للصباح مع أنهم في الليل؟

فأوضح الرَّجل يقول بطريقة العارف بطقوس البحارة والصَّيادين على الشاطئ:

- هنا في البحر لا يوجد شيء اسمه صباح أو مساء، يظل الكون معتمًا في أعيننا حتى نظفر بالصَّيد، وحينها يكون الصَّباح الحقيقي قد أشرق.

فهززتُ رأسي وسألته:

- وهل هذه الأغنية ترمز لشيء آخر بالنِّسبة إليكم؟

- إن ثمَّة اعتقادًا سائدًا بين الصَّيادين أن هذه الأغنية تجلب الفأل الحسن والصَّيد الوفير.

- ربَّما أكون متطفلًا بعض الشيء، ولكن ما مردُّ هذا الاعتقاد؟! هل له قصَّة معينة؟!

- إن مرده يعود إلى قصة كانت تشاع منذ قديم الزَّمان، عن وجود صيَّاد صغير كان يردد هذه الكلمات على هذا الشاطئ بالتَّحديد، فيبتسم الحظُّ في وجهه، ويستطيع اصطياد أعتى الأسماك وأكبرها، ولهذا، يردد الصَّيَّادون هذه الكلمات على أمل أن يصادفهم الحظ السَّعيد ذاته.

هنا، هربت الكلمات من فمي وقلت:

- ربَّما كان يُقال عن ذلك الصَّياد أيضًا إنه صياد «يُغامر لا يهاب، لا الرَّعد ولا الضَّباب يهوى الطَّبيعة لا يخشى الصِّعاب!».

استغرب الرَّجل مما تفوهت به، وكأنَّما تدلت شفته السُّفلية، فاستدركت على عجل وقلت:

- لا لا، لا شيء، أقصد القول إنه ولد محظوظ لا أكثر.

ضحك الرَّجل وقال:

- وأنا أشاطرك الرَّأي ذاته.

هُنا، وفي لحظة هيمن فيها الصَّمت على الأجواء، أدركت رمزية حكاية الصَّياد الصَّغير في نفوس البحارة والصَّيادين الذين أتوا من بعده على الشاطئ ذاته، ولكن على ما يبدو، لا أحد يعرف القصَّة كاملة!

لا أحد يعرفُ القصة الحقيقية للأشخاص مهما توهَّم النَّاس أنهم يعرفونها، فالظاهر أنهم لا يعرفون عن ذلك الصَّياد سوى أنه كان ذا حظ عظيم، دون أن تصل إليهم أخبار صبره، ومثابرته البطولية، وعزيمته المتوقدة في كلِّ محاولة للاصطياد.

في غمار هذا التَّفكير، التقت عيناي عينَي الرَّجل، فسألته بشيء من المرح:

- حسنًا، عرفنا ماذا تنشدون قبل الاصطياد، ولكن ماذا تنشدون بعد أن تظفروا بالصَّيد؟!

أجاب الرَّجل بصوت نحيل:

- عندها، جرت العادة في العرف البحريِّ أن ينشد الصَّيادون وهم آيبون إلى بيوتهم: «من زُرقة بحيراتنا، وصفاء أحلامنا، علاء أهدافنا والتَّصميم، ومن سُمرة جباهنا، وجمال صبرنا، ثمرة جهدنا حلم قديم».

فانتشيتُ في تلك اللحظة وانتعشت جوارحي من جديد، إذ سمعت تلك الكلمات مُلحَّنة على الرغم من النَّبرة العادية التي قالها الرَّجل.

وبشكل فوري تعالت أمواج قصة «الصَّيَّاد الجريء» في بحار ذاكرتي، وأكملت الأغنية في داخلي قائلًا: «ومن دموع سواعدنا، ضحكات عيوننا، صيحات نجاحنا هدف عظيم».

ربتُّ وقتها على كتف الرَّجل، وقلت بنبرة حانية فيَّاضة بالأمنيات السَّعيدة:

- إذن، لعلَّكم تُنشدون هذه الأغنية الليلة، فأنتم تستحقون هذا بلا ريب.

فابتسم الرَّجل، وهز رأسه متأملًا دون أن ينبس بحرف واحد.

ثم ما لبثَ أن أظهر حرصه على رحلتي البحرية، فصار يوصيني أن أبتلع أقراصًا لمنع دوار البحر، إن كنت غير معتادٍ خوض لجج المياه العميقة.

فتفهَّمْتُ هذا دون أن آخذ وصيته على محمل الجد، ثم مضيتُ أحثُّ الخطوات نحو السَّفينة التي أشار إليها من قبل.

خطوة فخطوة، وما إن اختفى ظله وتلاشى في جنح الظَّلام حتى زارتني أطياف قصة أخرى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمغامرات الصَّيد وهذه الأجواء!

ذات زمان كنا نردد أغنية «القناص» بكل شغف، دون أن نتمعن في الكثير من معاني تلك الأغنية ومدلولاتها الخفيَّة. كان كلُّ ما يهمنا في ذلك الوقت هو أن تلمع عيوننا ونحن مُتسمِّرون أمام شاشة برامج الكرتون!

ولكن عندما كبرنا وتلاطمت أمواج الحياة حول سفينة قلوبنا، تبدَّلت المعطيات وصرنا ننظر إلى الكلمات من زاوية تراجيدية مختلفة، حيث إننا ومن فرط الخيبات والصَّدمات والانكسارات، لم تلمع عيوننا إلا دمعًا، ولم تخفق قلوبنا إلا حُزنًا، ضاعت الكثير من الأحلام، وفقدنا إحساسنا بشكل فظيع!

لم يعد بإمكاننا سوى الجلوس على شاطئ الانتظار، وأن نرمي صنارتنا من أجل اصطياد لحظة فرح واحدة، لم نعد على أهبة الاستعداد لشيء، ولم نعد متأكدين إن كنا قادرين على إنصاف قلوبنا بشكل حقيقيٍّ، إنما نعدُّ السَّنوات التي تتكدَّس في ذاكرة عُمرنا، ونتساءل كلَّ ليلة في قرارة أنفسنا: «من هو الصَّامد المغامر في وجه السَّيل؟!».

* * *

# 14

صفقَ الموج جانب السَّفينة صفقًا موشوشًا رتيبًا في إيقاع موسيقيٍّ واحد.. ووش ش ش.. ووش ش ش.. وقد بدا البحر وقتها مثل حورية غاوية ليس لها مثيل، أو هكذا تخيَّلت من فرط الشعور!

اتخذت مكانًا منزويًا على سطح السَّفينة. استرخيت في مقعدي واحتجبتُ بالتَّرقب والسُّكوت، مُكتفيًا بمناجاة البحر الرَّائق، مستعرضًا نسمة الهواء التي كانت تهفو برونق مدغدغ لطيف، وتحمل معها رائحة البحر الرَّطبة المالحة، والعديد من الصور المائيَّة القادمة من زمن الحكايات والأساطير الكرتونيَّة.

عرفت من الرُّكاب أن هذه السَّفينة تحوك شباكها من هذا الشاطئ ثم تنقُضها بين مجموعة من الجزر المتباعدة في أرجاء المحيط الرَّحيب، قبل أن تحطَّ راسية على مرافئ البلدة القديمة، البلدة التي يتعين الوصول إليها كما جاء في الرِّسالة التي تلقيتها في اللحظة الأولى التي هبطت فيها المركبة الفضائيَّة إلى أرض الرُّسوم المتحركة!

مع مرور الدقائق..

وفي سبيل تزجية الوقت، مضيتُ أطالع حركة الرُّكاب من حولي، الجالسين في أماكنهم، والصَّاعدين تِباعًا إلى سطح السَّفينة، مضيتُ أتنقَّل بهدوء من وجه لآخر، لعلَّني أصادف وجهًا كرتونيًّا عرفته في شاشة طفولتي، ولكن

لم تُسعفني الأضواء المعلقة على صارية السَّفينة وجوانبها في تمييز ملامح الرُّكاب بوضوح وجلاء.

ولكن خلتُ أن ثمَّة وجوهًا ذابلة تنم عن الحزن والانكسار، وتهجع في محطات انتظار الأمل، وثمَّة وجوه يطل النُّور من عينيها رغم العتمة من حولها، وثمَّة وجوه ما إن نظرت إليها حتى شعرت بأنك تعرفها منذ زمن، ولكن لا تدري أين التقيتها!

ثمَّة وجوه لفرط سكونها لا تستطيع التَّنبؤ بما يضج في أعماقها، وثمَّة وجوه متلهفة تنتظر الإبحار نحو وجهتها المنشودة، ولا تعرف ماذا سينتظرها.

أرخيتُ أذني ورحت ألتقطُ ما يتطاير من أحاديث متبادلة بين الرُّكاب؛ مناوشات فجَّة مبهَمة، مفردات ملاحية غريبة، ورطانة بحريَّة لا عهد لي بها من قبل، ضحكات ناشفة ممطوطة تَنُدُّ من بين الأشداق، وشتائم وديَّة تتراشق من هنا وهناك.

في غمار هذا، تناهى إلى مسامعي أطراف حديث كان يدور بين ثلة من الرُّكاب الذين يجاورون مقعدي.

أصغيتُ باهتمام صامت لما يقولون، وخلاف الحديث السَّائد عن إشكالية انحسار الأسماك على الشاطئ، ومشكلات الملاحة المتعارَف عليها بين البحارة، سمعتهم يتحدَّثون عن سيِّدة ألقت بنفسها في عُرض البحر ذات ظروف غامضة!

من بين التَّحليلات المطروحة على طاولة النِّقاش، رجَّح أحدهم أن تكون فعلت هذا بعد أن داهمتها نوبة حادَّة من الاكتئاب، جرَّاء موت قردها وحصانها!

ضحك بعض الرُّكاب على هذا التَّحليل، حيث بدا تحليلًا غريبًا، وربَّما يكون ساذجًا للوهلة الأولى؛ هل ينهي الإنسان حياته من أجل فراق حيواناته؟!

ولكن بعد لحظات، تأدبتُ في مقام الموت، وفطنتُ أن فلسفة الفراق العميقة أبلغ من لغة المنطق السَّطحية، وأن بعض مشاعر الفقد عصيَّة على الاستيعاب، ولو أفنى صاحبها العمر كلَّه وهو يحاول ذلك..

شيئًا فشيئًا وجدتُ نفسي أوغل في التَّفكير في هذه القصَّة السَّوداء، وقد عادت بي الذَّاكرة السبيستونيَّة إلى قصَّة فتاة قويَّة كانت تُشاكس الأولاد!

تمتلكُ عضلات مفتولة وثقة بالغة، ولا تنفكُّ تُنفذ الأفكار التي تطرأ في بالها على الفور، وكانوا يقولون عنها إنها «تمضي وتغامر في كلِّ مكان، مع قرد ماكر وحصان».

لا أعرف إن كانت هذه القصة متعلقة بالقصة الرَّائجة بين الرُّكاب الذين أجلس إلى جوارهم، ولكن إن كانت هي بالفعل، فمن سيتخيل أن «بيبي الشقية» تلك الفتاة المرحة التي تشعُّ طاقة، قد انتحرت في نهاية الحكاية من فرط الاكتئاب!

لا أعرف كيف تنتهي الحكايات السَّعيدة بهذا الشكل المأسَاوي المفاجئ، وكيف يتحوَّل أصحابها من قمَّة الضحك المجلجل إلى هاوية الموت المريع!

بعد لحظات..

سمعتُ رجلًا آخر يحادث مجموعة من الرُّكاب من حوله في موضوع آخر. كان الرَّجل يقول ضاحكًا: «يومًا ما في عُرض البحر ضَربتْ عاصفة زورقي، أمواج البحر غَزَت البرَّ، وكاد الشيب يغزو مفرقي..».

حينها، وعلى الفور، أومضت عيني وقد لاح لي أنني سمعت هذه الكلمات من قبل.

حاولتُ عصر ذاكرتي، ولكنني لم أهتدِ لشيء واضح المسمى، ولعلَّ أكثر ما أثار استغرابي وقتها هو أن الرَّجل كان يروي قصته المأسَاوية بطريقة هزلية، فحَضَرتني حكمة عميقة كُنت قد قرأتها ذات زمان.

عندما تصل إلى المرحلة التي تروي بها قصَّة مُعاناتك على اعتبار أنها قصة مُسليَّة حدثت معك ذات زمان، فاعلم أنك استطعت عبور هذه القصَّة بسلام، وإن لم تصل إلى هذه المرحلة، فاعلم أن القصَّة ما تزال تجرحك بحوافها الحادَّة وتحزُّ عنق الأيَّام التي تعيشها، وتذكرك بالألم الذي ما يزال يستوطن صدرك المذبوح!

مضيتُ أفكر بهذه الفلسفة التَّراجيدية الممزوجة بنشوة النَّجاة المفقودة، إلى أن هب صمت ثقيل على سطح السَّفينة بشكل مفاجئ غريب، حيث أهلَّ رجل فارع القامة، ثقيل الخطوات، طويل القد، عريض المنكبين، صاحب وجه نديب، تتدلَّى على سترته ضفيرة سوداء، وثمَّة رقعة سوداء تغطي إحدى عينيه على نحو مريع. كانت يده اليمنى مبتورة، وقد برز من كمِّه خطاف أسود، شأنه بهذه الهيئة شأن القراصنة الذين سمعنا عنهم في الحكايات وقصص المحيط الأسطوريَّة!

بعيون كالزُّجاج، ألقى القرصان نظرة طويلة حادَّة على رُكَّاب السَّفينة، قبل أن يقتعد مقعدًا بالقرب منِّي.

هنا، انقبض صدري وانكمشتُ على نفسي، ومن حين لآخر صرت أختلس النَّظر إليه بطرف عيني.

بمنتهى الفضاضة، استلَّ القرصان إحدى الكؤوس من نادل كان يجوب أرجاء السَّفينة.

شرب الكأس جرعة واحدة، قبل أن يرميها من خلفه في عُرض المياه. بصق ثم مسح فاه بكم سترته مغمورًا بنظرات ازدراء من أغلب ركاب السَّفينة.

في تلك اللحظة، ألحَّت عليَّ فكرة أن أنهض وأبدِّل مقعدي، ولكن التَّردد طعن هذه الرَّغبة العارمة ولم أفعل، إنما لبثت على مضض في مكاني ويداي هامدتان في حجري.

بعد لحظات، وبينما كان الصَّمت يخيِّم على الأرجاء صاح رجل بغتة من مقدمة السَّفينة: الطَّقس مثاليٌّ في هذه السَّاعة، إن الرِّياح مواتية للإبحار.

تهلَّلت حينها وجوه الرُّكاب بالبهجة، ففهمتُ أن السَّفينة على وشك الانطلاق، فشعرت بشيء من الحماسة، ذلك أنني خشيت أن يكون موعد انطلاق الرِّحلة مرهونًا بامتلاء مقاعد السَّفينة.

في غضون وقت وجيز، وفي لحظة مُفعمة بالتَّرقب، نفخ البحَّار المنوط بانطلاق السُّفن في بوقه، ورُفِعَت الأشرعة البيضاء ودار المحرِّك البخاريُّ.

ارتخت عقد الحبال الملتفة على خشبات المرسى، وتفلتت السَّفينة من أحضانها وانسلت رويدًا رويدًا تروم المياه العميقة للمحيط، بينما اضطربت الطَّحالب وماج الماء وتعالى الزَّبد من حولنا.

مرَّت لحظات وسُرعان ما استسلمت السَّفينة لإغواء الأمواج الهادرة، وابتلع الظَّلام آخر أثر لليابسة.

للحظة من الزَّمن، ساد الصَّمت وهجع جميع الرُّكاب في أماكنهم، ولكن هذا لم يستمر طويلًا كما كنت أتخيَّل، إذ إن القرصان ذاته، شرع بالتَّصفير على نحو مفاجئ، وصار يصدر أصواتًا غريبة تمتزج مع هدير الموج.

لم تتوقف عيناه لحظتها عن التَّحديق إلى وجوه الرُّكاب من حوله. لم تكن نظراته رخوة عاديَّة، إنما كانت نظرات تقدح بالشرر وتقطر بالكثير من الأمور التي تُنذر بخطر قريب، وبينما كنت أشعر بهذا الشعور على نحو عميق، وفجأة، وفي لحظة امتلأتُ فيها بالرهبة، التقت عيناي عينيه، فارتبكتُ وأشحت النَّظر على الفور، وقد اتخذت وضعية المتأمل في أمواج البحر، ولم أجْسُر على النَّظر صوبه لبُرهة من الوقت.

مع مرور الدقائق..

تناول القرصان كأسًا ثانية، ثم أتبعها بالثالثة، وراح يرتشف منها بشكل متقطع متمهل لا عجلة فيه، وقد لاح لي حينها أن علائم الثمالة أخذت تسيطر على تصرفاته، إذ صار يترنَّح ويهتف بنبرة مُلحنة وصوت غليظ حاد يتكلَّف العُذوبة: «خمسة عشر رجلًا ماتوا من أجل صندوق».

هنا، ارتعش قلبي وغمرني الذُّهول، وبشكل فوري تلاطمت أمواج قصة «جزيرة الكنز» حول سفينة ذاكرتي الطُّفولية، وتساءلت في نفسي مستغربًا: هل ما يزال البحَّارة يرددون هذه الأغنية إلى يومنا هذا؟!

الأغنية الجنائزيَّة التي كانت تُغنى بتلكؤ وارتعاش ورهبة، وكانت الألسن لا تتوقف عن اللهج بها طوال تلك القصَّة البحريَّة الدمويَّة الشهيرة!

وسط حيرتي وريبتي في الأمر، كرَّر القُبطان اللحن غير مرَّة، بصوت غليظ يحاول ترقيقه، وقد صار بعدها يَرْطُن بكلمات غير مفهومة، كأنما يُخاطب شبحًا خفيًّا يجلس إلى جواره.

حينها، هبَّت رهبة ثقيلة على أرجاء السَّفينة. تسلَّق الرُّعب وجوه بعض الرُّكاب، واستقرَّت أشباح القلق في حدقات ركاب آخرين، كأنما يعرف الجميع بقصَّة هذه الأغنية الجنائزيَّة.

مرَّت دقائق من الصَّمت المطبق، لا تجرؤ إلا أمواج البحر على كسر إيقاعه ورتابته.

ولكن، فجأة، وفي لحظة واحدة، نهض القرصان على قدميه، وهتف بصوت غليظ، وقد خبط بيده على الطَّاولة كأنما هو قاضٍ يرفع جلسة في إحدى المحاكم.

ارتفعت الرُّؤوس المرخية، وتسمَّرتْ أبصار الرُّكاب بشكل سريع، وراحت تتابع حديث الرَّجل الذي طفق يتحدث بكلامٍ فحواه أنه شاعر بتعاسة الجميع من حوله، ويتفهَّم المشاعر التي تسكن صدور البحارة بسبب حياة الكَفاف التي يعيشونها، والضَّرائب والديون التي تُكبِّلهم، والأعباء المتفاقمة التي يرزحون تحتها، ولا سيما مع مشكلات الملاحة وضائقة انحسار أعداد الأسماك في مياه المحيط.

استفاض الرَّجل في حديثه بالطَّريقة ذاتها التي تشبه الخطابات الانتخابية المستهلكة لأحد المُرشحين الجشعين الذي يبيع الكلمات العاطفية من أجل غاياته النَّرجسيَّة الدفينة.

توسَّعَ في الكلام الشعبويِّ العاطفيِّ، واستطاع بسرعة بالغة أن يستميل الرُّكاب ويحرِّك مواجعهم الغافية، وأن يمسح بيديه على وجوههم الطَّافحة بالبؤس والشقاء!

عند ذلك، تملَّكني الفضول لاستشفاف ما وراء هذا الكلام، والغاية التي يضمرها الرَّجل من كلِّ هذا.

تتابعت اللحظات، وسُرعان ما انجلى المغزى الحقيقيُّ من وراء خطابه الانتخابي، إذ أشار بعد توطئة مشوبة بالإثارة والغموض إلى وجود كنز مدفون في إحدى الجزر المهجورة على ضفاف المحيط!

حلَّ بالسَّفينة خرس رهيب، وفي جو مشحون بالتَّوتر مضى القرصان يخبر النَّاس كيف بإمكان الذَّهب أن يغيِّر حياتهم بشكل جذري، ويحول فقرهم المدقع إلى نعيم مُغدق، ثم ما لبث أن صار يحفزهم ويُلحُّ عليهم مُردِّدًا كالببغاء، بنغمة تكاد تكون شبيهة بنغمة الأغنية السبيستونيَّة القديمة التي تقول: «الكنز في الجزيرة، بانتظار الجميع، الكنز في الجزيرة، كنزنا لن يضيع..». مكتبة سُر مَن قرأ

في ظلِّ حيرة الرُّكاب وحديثهم فيما بينهم، انبرى أحد الذين تظهر عليهم سيماء البحارة، فقال متجاسرًا، وقد انفرجت شفتاه:

- كنز؟! لا صحة لهذه الأمور يا رجل. دع عنك خُرافات البحر وقصصه الخياليَّة. قبل قليل كنت تغني الأغنية التي يتشاءم البحارة قاطبة منها. أتعلم كم عدد الذين أُريقت دماؤهم من أجل كنوز لا وجود لها؟!

حدَّق القرصان إلى الرجل بنظرة حادَّة. مطَّ شفتيه ولكن لم يفُه بحرف، تاركًا الرَّجل يُكمل حديثه:

- ولا تقل لي إنك تصدق حكاية الرَّجل صاحب السَّاق الخشبيَّة الواحدة؟!

خطر في ذهني حينها أنه يقصد قبطان جزيرة الكنز الذي عرفته في تلك القصة الشهيرة، ثم سمعته يطرح سؤالًا آخر بعد فاصل قصير من الصَّمت: ولا تقل لي إن أحدًا يصدق حكاية الرَّجل المطاطيِّ الغريب التي يتناقلها بعض البحارة الأغبياء!

قطَّبَ القُرصان جبينه، وتساءل بامتعاض عن هوية هذا الرَّجل المطاطي، فقال الرَّجل:

- سمعتُ أن هناك رجلًا مطاطيًّا يقود جماعة يُطلقون على أنفسهم «قراصنة قبعة القش» ويبحثون عن كنز مزعوم خلف البحار البعيدة.

انتشيتُ حينها نشوة طفوليَّة، وعادت بي الذَّاكرة بشكل تلقائي إلى فاكهة المطاط التي تناولها الفتى «لوفي» ذات زمان، وقد صدحت في مسامعي الشارة الغنائيَّة التي كانت ترفع نسبة الأدرينالين لدى جيل بأكمله، على الرغم من خلوها من كلمة واحدة.

اكتفيتُ بالصَّمت ومضيتُ أستمع للحديث وأقلِّب نظري في أرجاء المكان لأتبين ردَّة فعل الرُّكاب حول هذا الموضوع.

قال أحدهم على نحو غريب: «مدٌّ، جَزرٌ، خيرٌ، شر، تلك حياة البحر، أملٌ يسطع، عينٌ تلمع، بين خيوط الفجر» بدت لي تلك الكلمات أشبه ما تكون بتعويذة ما، وقد انتابني شعور أنني سمعت بها من قبل، ولكن لا أعرف أين ومتى على وجه التَّحديد!

وسط هذه الحيرة، وفجأة، ضحك القرصان ضحكة مجلجلة، ثم سُرعان ما رسم ابتسامة ماكرة على شفتيه، وقال على نحو ذكيٍّ عميق لا ينقصه التَّغابي:

- لا أعرف شيئًا عن هذه القصص التي تروونها، ولكن ما أعرفه أن بعض القصص الخرافية التي نسمع عنها، نحن قادرون على تحويلها إلى قصص حقيقية إن أردنا ذلك، فقط إن أردنا ذلك، عندها يصبح كلُّ شيء ممكنًا وقابلًا للتحقيق.

ثم انتقل بحديثه وهو ينظرُ إلى الرُّكاب، ومضى واثقًا يتحدث عن إيمانه بوجود الكنز بشكل حتميٍّ، مشيرًا إلى وجود مجموعة من الرِّجال ينتظرونه على ضفاف إحدى الجزر، وأنه يسعى لجلب أكبر قدر من الرِّجال كي تسهُلَ المهمة وتُكلل باللمعان المنشود.

على هذه الوتيرة، ووسط اصطفاق أمواج البحر حول السَّفينة، أخذ القرصان يمر على المقاعد بشكل تتابعي، محاولًا إقناع كلِّ واحد على انفراد.

ومع مرور الوقت..

وفيما كانت الحيرة تستوطِنُ ملامح بعض الوجوه الكادحة والنُّفوس المتلعثمة، أيقنت أن دوري قادم لا محالة، فلبثتُ في مقعدي بقلب قلق مُضطرب، ومضيتُ أقلب كفَّي يدي وأفركهما ببعضهما من حين لآخر.

بعد مدَّة لم أستطع تقديرها، وما إن جاءت اللحظة الحاسمة حتى ارتبكت واعتدلت في جلستي.

لمحتُ خياله بطرف عيني، وقد تناهى إليَّ صوت زفيره الحار وانبعثت رائحة فمه الكريهة. ثمَّ في لحظة صمت رهيب، انساب صوت يشبه الفحيح في مسامعي: وأنت أيها الفتى الغريب؟! ماذا عنك؟!

جفلت على الرغم من توقعي لكلماته، وبقيت ملتزمًا الصَّمت، فأضاف حينها منفعلًا وقد ارتفعت نبرة صوته قليلًا:

- اللعنة، تبدو مسالمًا أكثر مما ينبغي.

ثم استدرك وكبح انفعاله، وما لبث أن عاد إلى النبرة الأولى:

- أخبرني، ألا تريد الذَّهاب معنا إلى جزيرة الذَّهب؟! ألا تريد أن تصبح غنيًّا وتتخلص من أعباء هذه الحياة الحقيرة؟!

ازدردتُ ريقي وتجمدت ملامحي للحظة من الزَّمن.

لم أستطع التَّحديق إلى عينيه بشكل مباشر، واكتفيت بالإطراق والتفوُّه ببعض عبارات مقتضبة خجولة، أشرح فيها أنني مجرد مسافر أتى من بلاد بعيدة، وعليَّ مهمة يجب أن أنجزها، ولا وقت لدي لخوض أي نوع من المغامرات على هامش هذه الرِّحلة.

أبدى إعجابه بحديثي على نحو مُفتعل. نظرَ إليَّ من الأعلى إلى الأسفل، قبل أن يرمق حقيبتي الجلدية، وقد تساءل حينها بجشعٍ يُعشعِشُ في داخله:

- وهل هذه المهمة ستجلب لك ثروة ما؟!

أجبت بشجاعة لا أعرف من أين أتيت بها:

- لا أعرف ما هو مفهومك لهذه الكلمة، ولكن بالنِّسبة إليَّ، فنعم، ستجلب لي ثروة لا تعوَّض ولا تتكرر، ولكن، ربَّما تكون بالنِّسبة إلى غيري مجرد أشياء لا قيمة لها، وقد انتهت صلاحيتها منذ زمن بعيد.

صار حينها يُفكِّر ويتساءل، وقد تعاظمت حيرته:

- يبدو أن الأمر معقَّد قليلًا على رجل مثلي، والأرجح أن لا علاقة له بالذَّهب الذي أسعى إليه!

قبل أن يضيف في سبيل أن يعرف طينتي:

- قل لي، ما هي أثمن الكنوز التي تعرفها في هذه الحياة؟!

قلت حينها دون الكثير من التَّفكير:

- لا أريد شيئًا من هذه الحياة سوى طفولة قلبي، لعلَّه هو الكنز الوحيد الذي يستحق أن نسعى إليه.

زوى حينها القرصان ما بين عينيه، ثم ما لبث أن أطلق نوبات من الضَّحكات العارمة في الهواء، قبل أن يربت على كتفي بإشفاق مُفتعل:

- سأتركك أيها الطِّفل تفكر في الأمر، لعلَّك تنظر إلى الحياة من زاوية أفضل، فهذه الفلسفة الورديَّة لا قيمة لها، لن تطعمك خبزًا ولن تسقيك خمرًا!

ما إن فرغ من هذه الكلمات، حتى نهض وانتقل لإقناع شخص آخر.

تنهَّدتُ حينها بعمق، وظللتُ مطرق الرَّأس أفكر في الكثير من المفارقات والأبعاد، وقد أبحرت بي الذَّاكرة إلى قصَّة جزيرة الكنز من جديد، ولكن هذه المرة بشكل مختلف. في تلك القصة، وجدنا أنفسنا دون مقدمات على متن سفينة للقراصنة. رفعنا الرَّايات السَّوداء المريعة، وحملنا في جيوبنا الجماجم المخيفة، وقد أشهرنا السُّيوف دفاعًا عن كنز لا نعرف عنه أي شيء إنما كان صوتًا يتردَّد في حجرات صدورنا ويقول: «ها نحن ذا، على دروب كنزنا، نسير معًا وآمالنا تسير قبلنا» ولكن عندما كبرنا اكتشفنا أن الكنوز التي نبحث عنها تختلف كلَّ الاختلاف عن الكنوز التي يتهافت الجميع عليها، وكأن ما يغريهم لا نستطيع إبصاره، وما يرويهم لا يستطيع أن يبلَّ ريقنا، وما يُضحكهم لا يستطيع أن يرسم طيف ابتسامة واحدة على صفحة وجوهنا!

فنحن لا نريد امتلاك أرصدة أو ثروات، لا نبحث عن ألقاب رفيعة وبرستيجات فارغة، لسنا مهووسين بلغة الأرقام بقدر اهتمامنا بفلسفة النَّبضات ولغة المشاعر.

لا تُغرينا الكنوز الماديَّة، بقدر ما تغرينا الكنوز الوجدانيَّة، والأشياء الحقيقية التي لا تُباع ولا تُشترى في سوق الأيَّام المنهوب وبازار العمر المسروق!

نبحثُ عن حياةٍ مسكونة بأطياف الرِّضا والهدوء وراحة البال. نبحث عن دفء البيوت ورائحة الحب المعتق في صناديق الزَّمن الجميل الذي نحنُّ إلى كلِّ تفاصيله.

نبحثُ عن الأمان الذي سُرق من جيوب مشاعرنا، عن الفرح الذي كان يُثري خزائن أعمارنا، عن الضَّحكات التي كانت ترفع من قيمة أسهم طفولتنا في بورصة الحياة، إننا نبحث عن أشياء بسيطة تشبه قلوبنا وحسب.

تَورَّطنا في هذه العقلية الزَّاهدة، ولم نستسلم لإغواء الطَّمع حين راودنا عن نفسه ودعانا للانصياع لرغباته، وتبديل وجوهنا الحقيقيَّة من أجل عينيه، فاتُّهِمنا بالسَّذاجة العمياء، وعدم قراءتنا للواقع بطريقة استثماريَّة ماديَّة ترتكز على الأنانية والنِّفاق والمصالح والأموال!

ولقاء هذا..

عزَّت علينا أنفسنا في كثير من المحطات، واعترانا شعور بقلة الحيلة والعجز في السَّير في المتاهات الماديَّة، مع هذا، ظللنا على استعداد أن نخسر كلَّ كنوز هذا الكون، كلَّ كنوز هذا الكون، مقابل أن نربح نبضات قلوبنا الأصيلة، وأي صفقة تُحافظ على دهشة الأيَّام، وحياة الطِّفل الماكث في أعماقنا.

في خضم هذه المشاعر المستعصية التي لن يفهمها إلا من يتجرَّع من الكأس التي نتجرع منها ذاتها، وشعر بالمرارة التي شعرنا بها ذاتها، وشيئًا فشيئًا، وجدتني قد غفوتُ وأسلمتُ نفسي لأمواج النَّوم لتسحبني حيثما تشاء.

ولكن، لم تُفلح تلك الأمواج في سحبي إلى أعماقها..

ذلك أنني استفقتُ بعد بُرهة من الزَّمن على جلبة أشخاص كانوا يقفون على سياج السَّفينة، كجياد مستنفرة ذاهبة إلى أحد الحروب، وقد رفع كلُّ واحد منهم مشعل نار في يده.

بدا المشهد مألوفًا أمام ناظري، وأن القصص تجتهد في تكرار نفسها، واستنساخ تفاصيلها بشكل فظيع، لدرجة أنك تشعر أنك مررت بهذه الأحداث من قبل.

فجأة، نفضت رأسي على صوت واعظ يقول من مكان ما:

- صدِّقوني، أنتم تذهبون إلى حتوفكم، لا تنذروا أعماركم من أجل بريق كاذب، لا تضحوا بحياتكم من أجل كنوز وهمية لا قيمة لها.

استدرتُ والتفتُّ بسرعة نحو مصدر الصَّوت، فإذا بعجوز يظهر في سيماء غريبة. ضيَّقت عيني وأنعمت النَّظر، فخيِّل إليَّ من بين الظَّلام أنه ضامر الجسد، أحدب الظَّهر، تغور رقبته بين كتفيه، وتسطع عيناه في العتمة مثل القطط. كان يجلس منزويًا في زاوية السَّفينة بثياب مهلهلة قديمة تشي ببؤس حاله، وأظن أنه لم يتفوه سوى بهذه العبارة منذ أن انطلقت السَّفينة!

ردَّ عليه أحد البحارة الذين انصاعوا لبريق الكنز المزعوم، وقال بلسان سليط:

- اسكت أيها العجوز الخرف. اسكت واجلس على أطلال زمانك، أما نحن فدعنا نرى حياتنا مثلما نود ونشتهي.

أضاف بحار آخر وهو يعدل حزام خصره:

- لقد حسمنا أمرنا وانتهى الأمر، هذه وجهتنا ولن نتراجع عنها مهما حدث.

ضحك حينها الرَّجل العجوز ضحكة غريبة، وراح يقول كأنما يقرأ الإجابة من قرطاس:

- من كان بلا وجهة حقيقيَّة في هذه الحياة، من السَّهل أن يذهب إلى أي مكان.

ساد بعدها صمت ضبابي رهيب على الأجواء، وخلال مدة قصيرة من الزَّمن كانت السَّفينة تدنو شيئًا فشيئًا من ساحل الجزيرة المنتظَرة التي يترقبها الجميع.

من بين غلالة الظَّلام التي كانت تطوِّق المحيط، رأينا جزيرة يكتنفها الضَّباب بشكل فظيع، وكأنما طمست العفاريت والأشباح هويتها ومعالمها.

في رهبة الظَّلام الدامس، نزل النَّاذرون حياتهم من أجل الحصول على الذَّهب، ملوِّحين بمشاعل رغباتهم وانصياعهم لخطط القرصان.

ما إن تمَّ الأمر، ومضت السَّفينة تستأنفُ رحلتها نحو بقية الجزر المجدولة في لائحة الإبحار، حتى تنهد العجوز الأحدب وقال بصوت متحسر وبلهجة مُتحشرجة تكاد لا تسمع كلماتها:

- كُنت أعتقد بمجرد أن أجد الكنز ستتغير حياتي، وأجد ما كُنت أعتقد أنه أهم شيء فيها.. ولكن فشلت وخسرت كلَّ شيء، كلَّ شيء.

لم يفهمْ أحد ما يعنيه العجوز من هذا الكلام الغرائبيِّ المبهم، وأغلب الظَّن أن المعظم قد ذهب به التَّفكير إلى أن الخرف قد نال من الرَّجل، وجعله يشطح بالخيال ويهذي بأمور ليست مفهومة، فلم يتعمَّق أحد بأبعاد كلماته التي تفوه بها.

أما أنا، فقد بدت لي الكلمات ذات دلالة عميقة، ولكنني التزمت الصَّمت واكتفيت بالتَّحديق إلى هيئة الرَّجل العجوز.

ظللتُ على هذه الحال إلى أن نهض متثاقلًا ومشى بخطوات مترنحة نحو سياج السَّفينة.

في تلك اللحظة بالتَّحديد، وفجأة، خفق قلبي خفقانًا شديدًا، صُعقت من هول الصَّدمة وفرط الشعور، ذلك أنني رأيت الرَّجل العجوز يسير على ساق خشبية واحدة!

انعقد لساني من الذُّهول. حبستُ أنفاسي وقد قلتُ في نفسي في لحظة زاخرة بالإثارة والشكوك: لعلَّه الرَّجل الذي كرَّس حياته من أجل الحصول على الكنز، لعلَّه يكون القبطان «سيلفر»!

* * *

# 15

مع بزوغ شمس صباح اليوم الذي يليه في بحر عالم الرُّسوم المتحركة، كانت السَّفينة تمخرُ عُباب الماء وتواصل التَّمايل بين أمواج المحيط الهادر.

اتَّضحت ملامح الرُّكاب الموجودين في السَّفينة، كما لو كانوا أشخاصًا مختلفين بشكل كامل عن تلك الظِّلال التي كانت جالسة في ديجور ليلة البارحة.

هذا ما بدا لي للوهلة الأولى، ولكن من خلال حديث الرُّكاب، فهمت أن السَّفينة قد حطَّت في أثناء نومي بأكثر من جزيرة. نزل أشخاص، وصعد على متنها أشخاص آخرون، كما تبيَّن أن هنالك ركابًا قد أصابهم الإعياء بسبب دوار البحر!

مع مرور الوقت..

وبينما كانت السَّفينة تدنو شيئًا فشيئًا من شاطئ إحدى الجزر الخضراء، نظرت من حولي فإذا بشخص يقف على سياج السَّفينة على أهبة الاستعداد، بعينين متحفِّزتين يقفز الشوق منهما، على نحو شاعريٍّ ملحوظ للعيان.

على متناول مسامعي، سأله رجل فضولي عن هوية الجزيرة التي سينزل إليها، فحسب قوله لا يرى على امتداد بصره سوى واحات واسعة تكسوها الحشائش الخضراء والأشجار الكثيفة.

ردَّ عليه الرَّجل المتأهب للنزول وقد مرر ابتسامة انتماء على شفتيه، وقال بنبرة مفعمة بالحب والحنين:

- إنَّ في هذه الجزيرة الكثير من النَّخيل الرَّائع. هنا بالتَّحديد عشت طفولتي. إنها مدينتي التي أتحرق لرؤيتها بعد أن غبت عنها لسنوات طويلة.

ثم ما لبث أن أضاف من تلقاء نفسه ومضى يصفُ مدينته كما لو كان شاعرًا يصف محاسن محبوبته، إذ قال بطريقة شاعريَّة ونبرة مُتهدِّجة متأنية:

«في مدينة النَّخيل، كلُّ شيء جميل، الغروب والشروق والهواء العليل. ضياء القمر في السَّماء، ونجوم المساء، شمس الصَّباح، والرياح، والطَّريق الطَّويل. لون الشاطئ، لون البحر، أحلى في مدينة النَّخيل».

عند ذلك..

انتابني شعور طريٌّ رائع، إذ سمعت هذه الكلمات بإيقاع موسيقيٍّ سلسٍ منبعث من واحات النَّخيل في طفولتي. ارتسمت ابتسامة واسعة على شفاهي، وقد تذكرت قصة هذه المدينة، والأجواء التي كانت تحيط بها.

في أثناء استرسال الرَّجل في حديثه الحميميِّ عن مدينته، طالعت وجوه النَّاس من حوله لأتبين ردة فعلهم حول عاطفة الرَّجل وانتمائه.

فبدا لي أنهم يشعرون بمبالغة الرَّجل في الوصف، وإسرافه في عاطفته كما لو كان طفلًا صغيرًا، فضلًا عن أنني لمحت شيئًا من السُّخرية يطل من عيون بعضهم.

أطرقت وقتها متفكرًا..

وقد أحسستُ لوهلة أن حال هذا الرَّجل يشبه نوعًا ما حالي في هذه الرِّحلة التي أخوض غمارها، فمهما حاول الإنسان إيصال شعوره نحو الأمكنة التي ينتمي إليها، والطُّفولة التي يحنُّ إليها، لن يستطيع أحدٌ أن يفهم هذا.

لا أحد يفهم مشاعرنا تجاه الأمكنة التي تنتمي إليها نبضات قلوبنا، تلك الأمكنة التي عشنا فيها أصدق مشاعرنا وأنقى أيَّام عمرنا، ولا نستطيع إلا أن نكون كالأطفال في أحضانها.

نبوح لها بطريقة خفيَّة بكل ما يختلج في خواطرنا، وكل ما هو عالق في صدورنا، فتُنصِت إلينا محاولةً مواساتنا واحتواء أطياف الحزن السَّاكن فينا، تفعل هذا بشكل استثنائيٍّ عجيب، كما لو أنها تفهم لغة صمتنا قبل أن نتحدث إليها، وترى ظلالنا قبل أن نقرر زيارتها، وتعرف ماذا حلَّ بنا منذ أن فارقناها، ولهذا، يكون للعودة إليها طابع حميميٌّ مختلف، يجعلنا نشعر أننا عدنا إلى أنفسنا بعد فترة طويلة من الغياب والاغتراب.

استغرق الأمر بُرهة من الوقت، لم تلبث السَّفينة فيها أن رست على شاطئ تلك الجزيرة، حتى عادت تمخُر العُباب وتواصل رحلة إبحارها.

بعد هذا، ومع مرور الوقت، تملكني ملل فظيع، وأحسستُ بتيبس أطرافي، وتشنج كلِّ عضلة من عضلات جسدي، فرحت أدلِّك رقبتي المتصلِّبة، ونهضت أتمطَّى وأتلوى، وأمطِّط ذراعي يمنة ويسرة قدر المستطاع، ثم أردت تحريك قدميَّ، فمضيتُ أسير على سطح السَّفينة.

مضيتُ بخطوات متراخية لا عجلة فيها، وفي غضون سيري، اجتذبني صوت أنثويٌّ يعود لسيِّدة كانت تتحدث عن حكايات البحر التي تعرفها بطريقة لافتة، فاسترعى هذا الأمر انتباهي، ومضيتُ أختلس السَّمع والنَّظر، واقفًا بين مجموعة من الرُّكاب كانوا يزجون وقتهم بالاستماع لهذه السيِّدة المسافرة.

كانت السيِّدة أنيقة الهندام، ذات عينين لوزيتين، تعتمر قبعة من القش والخرز الملون على نحو تقليديٍّ بسيط، وتتحدَّثُ دون أن تحرك أطراف جسدها كما لو كانت مذيعة تجلس خلف طاولة في استديو إخباريٍّ.

في أثناء هذا، طلب منها أحد الرُّكاب أن تروي قصتها التي كانت تصفها قبل لحظات بأنها قصَّة شائقة مملوءة بالمغامرات العجيبة، فابتسمت السيِّدة واعتدَلتْ في جلستها، قبل أن تقول بنبرة الذي يروي حكاية ما، وقد عقفَت أصابع يديها: «على جزيرة، غريبة مثيرة، أخذنا الموج ورسونا..».

في تلك اللحظة، رقصت ابتسامة الطِّفل على وجهي، وعرفتُ هوية السيِّدة على الفور، إنها الفتاة المغامرة الشُّجاعة التي لا تفكر إلا في اللحظة التي تعيشها، ولا تنشغل إلا بما يجول في خاطرها مهما كان الشيء خارج حدود المألوف.

فكرت في قصتها، وتذكرتُ كمية المعاناة التي كابدتها، وكيف تمكنت هي وأسرتها من التَّكيف والتَّأقلم في تلك الجزيرة المهجورة، وكيف استطاعوا الحفاظ على حياتهم وسط الوحوش والمستنقعات وأنياب الطَّبيعة وتقلُّبات مزاجها.

رفعت رأسي في تلك الآونة، ونظرت في البعيد إلى حيث تتجه السَّفينة.

في الحقيقة، لم أكن أعرف إن كانت الجزيرة المقبلة التي سنحط بها هي جزيرة «روبنسون كروزو» أو لا، إنما ظللتُ أستمع للسيِّدة، وأستحضر ما ترويه من أحداث كما لو كانت ماثلة أمام عيني.

بعد بُرهة من الوقت، غامت عيناي من فرط التَّخيُّل والتَّعمق والتَّحليل، ففطنت لحظتها أن نظرات عيني قد استقرت على أحد الرُّكاب بشكل لا إرادي، فنفضت رأسي على الفور.

ألفيتُ حينها رجلًا أسمر اللون يطالعني بوجه أمرد بشوش. كان يطالعني بابتسامة حائرة ترتسم على شفتيه، فما كان مني إلا أن بادلته الابتسامة، ولرفع الحرج عني خطوت نحوه وسلَّمتُ عليه دون أي تردد.

تبادلنا بعض العبارات الكلاسيكية، ومن باب التَّحبب الخَجِل، ودون سبب وجيه لذلك، سألته عن الوجهة التي يقصدها في رحلته!

ففاجأني إذ قال باسمًا بهدوء جم:

- إنني أقصد مدينة رائعة البساطة والجمال، مدينة كان وظلَّ اسمها منذ الأزل «مدينة الصَّفصاف».

عند ذلك، اتَّسعت ابتسامتي واختلجت أعماقي لهذا الاسم، فلحظ الرَّجل هذا على جناح السُّرعة، وقد خامره شك لحظيٌّ بأنني أعرف شيئًا عن المدينة التي يقصدها، فاستوضح مني عن هذا بشكل فوري!

احترتُ وقتها ولم أعرف بماذا عليَّ أن أجيب، إنما قلت بشكل تشويقيٍّ دراميٍّ:

- أليس شعار مدينتكم يقول: «هيَّا نبني، نبني بيتًا للأمل، هيَّا نشدو، نشدو حبًّا للعمل..»!

فتهلَّلتْ حينها ملامح الرَّجل بالبهجة والاستغراب في الوقت ذاته، وردَّ يقول بحرارة وقد فغر فاه واتَّسعت عيناه:

- أخبرني بسرعة، كيف تعرف ترانيم مدينتنا وشعاراتها؟! أنَّى لك هذا أيها الغريب؟!

قُلت بنبرة هادئة:

- سمعتُ عن أخبار مدينتكم حينما كنت صغيرًا، أظنُّ أخبار مدينتكم تتناقلها الأجيال جيلًا بعد جيل.

هنا، اكتسبت ملامح الرَّجل تعبيرًا من الزَّهو والافتخار، وعرض عليَّ بشكل مباشر، وبكل كرم ولباقة وترحاب، أن أنزل برفقته إلى المدينة حالما نصل إليها، فاعتذرتُ منه بسبب الوقت المحدود في رحلتي، فتفهَّم هذا بسهولة متناهية.

صافحتهُ بحرارة كأنما أعرفه منذ زمن بعيد، ثم تركته في مقعده يواصل ما كان يفعله قبل أن تلتقيه عيناي، ومضيتُ بدوري أواصل التَّجوُّل على سطح السَّفينة.

مشيتُ على الجانب الآخر منها، بخطوات هادئة لا عجلة فيها. استقرت قدماي هذه المرة عند رهط من النَّاس كانوا يتحلقون حول رجل مريب الهيئة، مبروم الشاربين، مأفون العينين، مُندلق البطن، ويتلفَّع بعباءة غريبة من ديباج.

وبينما كانت العيون مشدوهة والأفواه فاغرة أمام ناظري، دنوت من الجمع بدافع الفضول وحب الاستطلاع، واستوحيت من الكلمات التي التقطتها لحظتئذ، أن الرَّجل يسرد لمن حوله قصة ماسة ذات قدرات خارقة، ولون أزرق مُشع يبعث في نفس من يمتلكها طاقة فريدة هائلة!

فيما كانت ملامح الجشع بادية على الرَّجل وهو لا يتوقف عن برم شاربيه بأطراف أصابعه، كأنما سمعته يصف تلك الماسة قائلًا: «بريقها يخفي أسرارًا، ويخطف الأبصار..».

فرمقتُهُ بطرف عيني ورددت عليه مُستنكرًا في داخلي:

«خيرٌ هي بيد الخير، شرٌ بيد الأشرار..»؟!

ثم مضيتُ أستحضر قصة «الماسة الزَّرقاء»، وقد توهجتْ من بين تلافيف الذَّاكرة الطُّفولية.

تذكرتُ المفارقات التي حصلت في تلك القصَّة، وكيف كان الجميع يسعى للوصول إلى الماسة والظفر بها.

واصلتُ السَّير على سطح السَّفينة مُثقلًا بمجموعة من المشاهد، إلى أن وقعت عيناي على ولد يتململ مشاكسًا في مقعده.

كان الولد يثرثر بجانب والدته ولا يتوقف عن طرح الأسئلة الفضوليَّة عن عالم البحار!

كان يسأل بالتَّحديد عن كائنات غريبة تسكن الأعماق، في حين كانت الأم تكتفي بهز رأسها، تحاول مسايرته دون أن تتفوه بإجابات حاسمة تضعها في مأزق وتفتح الباب على أسئلة فضولية أخرى.

إنَّ تلك الأسئلة جعلتني أطالع أمواج البحر بنظرات رخوة متأملة، وقد أسندت باطن كفي على السِّياج، وأخذت أطيل النَّظر إلى الأفق المائي الممتد.

طاف بذهني العديد من الصُّور المنبعثة من بحار الذِّكريات، ووجدت نفسي بعدئذ أترحَّمُ على أيَّام كنت فيها في عُمر هذا الولد الصَّغير، وكان السُّؤال الصَّعب الذي يراودني وقتها: «لماذا يعيش السَّمك في الماء؟!».

كنا نتلمَّظ مِلح البحار ونسبُرُ قيعان المحيطات، ونحن جالسون أمام شاشة كرتونية دون أن نتحرك من مكاننا. نردد مع الأغنية السبيستونيَّة التي تقول: «للبحر الأزرق خُلجان، يسكنها سمك ومرجان، بحرٌ يزهو بالألوان.. رينبو فيش».

ربَّما لن تفهم الأجيال اللاحقة هذه الأجواء التي أعنيها، مثلما أننا نحن الجيل السبيستونيَّ، لن نفهم أجواء الأجيال التي غَطَسَت في أعماق البحار من بعدنا، وراحت على سبيل المثال تتنفَّس في قاع يُدعى «قاع الهامور»، وتراقب ما تفعله إسفنجة صفراء ضاحكة!

بهذه المشاعر التي تعتمل صدري بين تعاقب الأجيال واختلاف الثقافات والذِّكريات والأرشيف الصوريِّ والموسيقيِّ لدى كل واحد منها، مضيتُ أطالع أمواج البحر المتكسِّرة حول السَّفينة.

ولكن، فجأة، ودون سابق إنذار، شعرت أن الشمس تطبخ رأسي طبخًا. أحسستُ بصداع غريب يستبد بي. خارت قدماي وغامت عيناي وقد فقدت اتزاني بشكل تام!

وفي لحظة واحدة، خُيِّل إليَّ أنني أشاهد جسدًا يتحرك من تحت السَّفينة، كما لو كان حوتًا هائل الضَّخامة يموج من تحت المياه، وعلى وشك الهجوم والانقضاض علينا في أي لحظة!

انقبض صدري انقباضًا ليس له مثيل، وأحسستُ لوهلة أن جسد السَّفينة يهتز بشكل كامل، وأنَّ هناك شيئًا خطيرًا على وشك الحدوث!

* * *

# 16

دعكتُ عينيَّ وحاولت استجماع قواي، وصرتُ أرى أشباه وجوه تحتشد من حولي، وعبارات متسائلة عن صحتي تتطاير من هنا وهناك. حاولت جاهدًا لملمة الكلمات في فمي، ولكن دون جدوى، ظللتُ على هذه الحال بضع دقائق..

بعد ذلك، وللحظة من الزَّمن، فززتُ كالملدوغ وطفقت أسأل وأتحدث عن الحوت الذي رأيته على صفحات المياه..

لم يُعرني أحد من الرُّكاب أي نوع من الاهتمام، وأعزوا الأمر ببساطة إلى دوار البحر الذي أصابني، وجعلني مشوَّشًا أتوهم أمورًا ليس لها وجود!

حاولت الاقتناع بهذا الأمر لعلِّي أتمكن من تهدئة روعي ونسيان ما تخيَّلت، وخلال هذا، وجدت ثلة من الأشخاص قد ألهمهم الحدث الذي يعتقدون أنني توهمته، ليسترجعوا قصة شائعة بين البحارة منذ زمن، عن أن هنالك حوتًا أسطوريًّا نادرًا من نوع العنبر، يحمل بعض الصِّفات التي ذكرتها، حوتًا هائل الحجم، مُضيئًا ذا طاقة خرافية، يقبع في أعماق المحيطات، ولا يظهر على سطح المياه إلا ما ندر!

عند ذلك، خالجني شعور غريب حائر. أومضت عيني وقد أحسستُ في تلك اللحظة أنني سمعت قصَّة كهذه في برامج الرُّسوم المتحركة. أبحرتُ في خيالي، وعبرتُ بالعديد من نجمات البحر وحوريَّاته، ووصلتْ بي الذَّاكرة إلى قصة «أسرار المحيط»!

تذكرتُ تلك الرِّحلة البحرية الاستكشافية التي قام بها أحد علماء البحار برفقة ابنته التي كانت تسمى «منارة»، وبصحبتهم أنثى حوت كانت تسمى «لؤلؤة»، إذ إنهم كانوا يحاولون بشتى السُّبل أن يصلوا إلى حوت عملاق يُدعى العنبر المتوهج!

وقتذاك، كانت أمواج البحر العليل تعبقُ بكلمات سبيستونيَّة تقول: «لؤلؤتي تُريد، أن نُبحر من جديد، نحو هلال أبيض يسبح بالأفق البعيد..».

مضيتُ أدندنُ بشكل لا إرادي بكلمات هذه الأغنية، متذكِّرًا كيف رحلت «لؤلؤة» في ظروف استثنائية عصيبة مُتَّشحة بالحزن والاكتئاب، وكيف بقي الحوت العنبر المتوهج حرًّا طليقًا يجوب المحيطات وأعماقها السَّحيقة، ولم يفلح أي شخص في اصطياده!

ما إن فكرت في كل هذا حتى عاد الشك يجوس في صدري حول صحة ما رأيته على صفحات المياه.

حاولت أن أقشع هذه الفكرة عن ذهني، وأن أقنع نفسي بفكرة أنني أشعر بالتَّشوش من فرط الأمور التي شاهدتها لغاية اللحظة في رحلتي..

وبينما كنت أشعر بغثيان شديد يجتاح أحشائي، حانت مني التفاتة من حولي فإذا بسيِّدة تُحدِّق إليَّ وتبادرني الابتسامة، كأنما تريد مواساتي والتَّخفيف عنِّي.

بادلتها الابتسامة على مضض، فوجدتها قد تحمَّسَتْ ونهضتْ على قدميها، واتجهت من فورها نحو مقعدي.

ما إن وصلت إليَّ حتى مدت يدها وناولتني حبَّة علكة على سبيل تهدئتي والتَّخفيف من الغثيان وآثار دوار البحر.

تناولتُ الحبة وشكرتها بابتسامة مهذبة، وقد ظننت أنها ستعود إلى مقعدها وينتهي الأمر إلى هنا، إلا أنَّها ظلَّت واقفة أمامي وراحت تُحدِّقُ إليَّ على نحو غير مفهوم، وفجأة، ربتت على كتفي، وقالت بصوت هادئ غامض:

- لا تقلق بشأن ذلك الحوت الذي تراءى لك. لا أعرف إن كان ما رأيته هو خيال أو حقيقة، ولكن ما أعرفه أن مخيلتنا تقودنا في بعض الأحيان إلى أمور عجيبة لا تخطر على بال أحد.

سألتها في سبيل مجاراتها في الحديث، وقد شرعتُ أمضغ العلكة التي ناولتني إياها:

- ربَّما هذا صحيح، ولكن هل في هذا خلل برأيك؟!

ابتسمت السيِّدة حينئذ ابتسامة مبهمة المعنى، وقد جلستْ إلى جانبي على نحو غير متوقع، كأنما في جعبتها بعض الأحاديث التي تريد الإفضاء بها.

قالت:

- لا أظن هذا.

ثم استمرَّت بعد أن تنهدت بجذل:

- أنا سيِّدة تستخدم مخيلتها لكي تعيش، أومن أن علينا أن نستخدم الخيال حتى نتمكن من الهروب من فوضى هذه الحياة الباهتة، لولا الخيال لشاخت أرواحنا منذ زمن بعيد، وفقدنا روح الطُّفولة إلى الأبد.

خفق قلبي واستفزتني كلمة «الطُّفولة» وموقعها في العبارة التي تفوهت بها، فوجدت نفسي أقول:

- سنظل أطفالًا ما دمنا قادرين على صنع الخيال والهروب إليه. أهذا ما قصدته؟!

ابتسمت السيِّدة وكأنما أعجبها الاستنتاج!

قبل أن تمرِّر لسانها على شفتيها، وتقول بعد أن ضيَّقت عينيها، وكأنَّما تشكو لي أمرًا مزمنًا تعانيه:

- إن المشكلة الكبيرة تكمُن في أنَّ من لهم مخيلة خصبة سيُعانون في حياتهم التي يعيشونها، سيُنهكون من فرط التَّفاصيل والمشاهد التي يرسمونها في خيالهم، فهم يخشون في قرارة أنفسهم أن يمرَّ العمر بهم، وهم يتخيلون أمورًا لا يمكن حدوثها إلا في عالم موازٍ بعيد لا يعرف به أحد من حولهم، أن يعيشوا حياة لا تشبه الحياة التي يتنفسون بها في خيالهم.

قُلتُ حينها معقبًا كأنَّما أكمل الحديث عنها:

- عدا عن أنهم سيتهمونهم أيضًا بالجنون وعدم انتمائهم إلى الواقع الذي يعيشون فيه.

أطرقت السيِّدة للحظات، ثم ما لبثت أن زفرت زفرة شعرت بحرَّتها.

قالت بنبرة هادئة وشاحبة:

- أتعرف؟! عندما كنت طفلة صغيرة كانوا يتهمونني أنني غريبة الأطوار، ومن الأفضل أن أحادث نفسي بدلًا من أن أحادث الآخرين.

ثم أضافت بنبرة مختلفة:

- ولكنني لم أكن أهتم لكل ما يُقال عني، أتعلم لماذا؟!
- لماذا؟
- لأنني كنت أشعر أنني بطلة هاربة من رواية منسية، ولا يتمكن من قراءتها إلا من يمتلك لغة نادرة الوجود. نعم، لا تحدِّق إليَّ هكذا، لطالما كنت أراضي نفسي بهذه الفكرة، هه، أتعرف؟ ربَّما ما زلت أشعر بهذا حتى هذه اللحظة.

في تلك اللحظة فحسب، بدا لي أن السيِّدة ذات حسٍّ خيالي مُفرط. تشعر بالغُربة لأنها تعيش في عالم لا يفهم تفاصيلها والأشياء العميقة التي تحبها.

تركتها تتحدث بانطلاق، ومضيتُ أمعن النَّظر في هيئتها وقد أحسستُ بشكل عميق أنني أعرفها من قبل.

إنها سيِّدة صهباء، هزيلة الجسد، لها جبهة عريضة، ووجه طفولي موشى بالنَّمش، وعينان خضراوان نجلاوان. تلوِّح بيدها وتهف الهواء من حولها من خلال مروحة مخرمة، وتعتمر قبعة مكللة بالزُّهور، تنسلُّ منها خصلات شعر حمراء اللون، وينسدلُ على جسدها فستان تركوازيٌّ بأكمام منسوجة من الدانتيل، ومزموم عند خصرها الرَّهيف بحزام رفيع، كأنَّما هي هاربة من حلم ريفيٍّ قديم.

أحسستُ لوهلة أنني عرفت هوية السيِّدة بالفعل، ولكن لم أشأ أن أستبق الأمر، فلبثت أستمع لكلماتها المتسلسلة بغرابة، إلى أن وجدتها تسألني على نحو فضولي متدفق:

- أخبرني، هل أتيت من عالم القصص والحكايات الخيالية؟! هل أتيت تبحث عن شيء مفقود في هذا العالم؟! في أي جزيرة ستنزل يا ترى؟!

أتوقع أنك تقوم برحلة في منتهى الأهمية، مِممم.. هل مخيلتك هي من جعلتك تقوم بهذه الرِّحلة؟!

تجمدت قسمات وجهي من فرط الشعور الذي اعتراني في تلك اللحظة. انعقد لساني ولم أنبس بكلمة واحدة.

كنتُ بحاجة إلى بعض الوقت لكي أستوعب نزق أسئلتها المباغتة، فظللتُ صامتًا إلى أن استدركت السيِّدة اندفاعها، وراحت تقول بنبرة مُبرِّرة تدافع فيها عن نفسها:

- هل أسرفت في الكلام؟! هل أزعجتك؟! النَّاس تقول إنني ثرثارة، ولكن في الحقيقة لا أكون هكذا إلا مع الأشخاص الذين أعتقد أن بداخلهم شيئًا يشبهني.

ظللتُ ساكتًا ولم أفه بحرف واحد، وإزاء هذا على ما يبدو، تسلل إلى السيِّد بعض الإحراج، ففترت رغبتها في الحديث وقد عادت تهفُّ بالهواء من خلال مروحتها.

أحسستُ حينها بافتقار بعض اللباقة والاحترام، فوجدت نفسي أقول بعد لحظة:

- نعم، صدق إحساسك، إنني أقوم برحلة مهمة بالنِّسبة إليَّ.

فاندفعت السيِّدة بحرارة، وقد عادت الحيوية إلى ملامحها بسرعة عجيبة:

- حقًّا! ما نوع هذه الرِّحلة التي تخوضها؟! أخبرني، أخبرني ولا عليك.

حينها، اعتدلتُ في جلستي، ونظرتُ إلى الأفق البعيد.

لم أكن أعرف بما سأجيب على وجه التَّحديد، وما هو الشيء الذي سيرضي فضول هذه السيِّدة الخيالية الثرثارة، ولكن وجدت شفاهي تنفرج وتقول:

- إنها رحلة البحث عن ينبوع الأحلام، والحكايات المبتورة، والدهشة المفقودة، والطُّفولة الغائبة، والعالم الذي كنت أشعر من خلاله بالفرح والبساطة والسَّلام.

شعَّ في عينَي السيِّدة بريق غريب، وسألتْ على جناح اللهفة:

- وهل هذه الرِّحلة يقودها الخيال يا تُرى؟!

عند ذلك، وقبل أن أجيب عن سؤالها..

خطر لي أننا كنا نسمع ذات زمان أغنية سبيستونيَّة تقول: «خيالنا عالم كامل فيه ما نشتهي، نجول فيه بخفَّة كل ما فيه خفيٌّ» وكانت هذه الأغنية تحفزنا لنُحلِّق بخيالنا ونرسم الأشياء التي نريدها دون حدود.

فابتسمتُ حينها، وقد انتابني الكثير من الأحاسيس المختلطة، ووجدت نفسي أعترف في فورة صدق خالصة:

- لست أدري إن كان الخيال هو من ينسج تفاصيل هذه الرِّحلة، ولست أعلم إن كانت هذه الرِّحلة مجرد منام عابر، لهذا أخشى أن أستيقظ في أي لحظة، دون أن أكمل الحلم إلى نهايته! إن ما أعلمه على وجه التَّحديد، وربَّما تستغربين من هذا، هو أنني لا أتخيل نفسي إلا طفلًا وادعًا يجلس أمام شاشة التِّلفاز، ولا يريد لأحد أن يقلب المحطة.

ابتسمت السيِّدة في تلك اللحظة، وهتفت كما لو كانت رابحة في رهان ما:

- أرأيت؟! لم يخطئ حدسي على الإطلاق، أنت شخص عاطفيٌّ وخيالي، وإلا لما قمت بهذه الرِّحلة من الأساس.

بادلتها الابتسامة بحنوٍّ، وساد صمت حينها أبلغ من الكلمات، إلا أن هذا الصَّمت لم يستمر طويلًا، فسُرعان ما سألت السيِّدة من جديد:

- حسنًا، ماذا أطلقت اسمًا على هذه الرِّحلة؟!

- لماذا؟! هل عليَّ أن أختار اسمًا لها؟!

- بالتَّأكيد، هذا ما تعودت عليه في الحياة.

- كيف؟!

- أحبُّ أن أعيد تسمية الأشياء على طريقتي، وأحب أن أطلق مسميات خاصة على الأشياء التي أحبها، دون الاكتراث بقاموس المجتمع، إنني أجد متعة كبيرة في هذا، وعليك أن تفعل الشيء ذاته مع رحلتك.

- رائع... مممم... ماذا برأيك عليَّ أن أسميها؟!

- لا أعرف، أنت صاحب الحكاية، وصاحب الحكاية هو الأجدر بتسمية حكايته، ولكن ما أعرفه أنه «حين تمتلك أفكارًا عظيمة، عليك استخدام كلمات عظيمة للتعبير عنها».

- حسنًا، سأفكر في اسمٍ لهذه الرِّحلة حالما أنتهي منها، وأعود من حيث أتيت.

فقالت بتشجيع وحماسٍ وكأنها ستُسمِّي الرِّحلة بالنِّيابة عني:

- حاول أن يكون الاسم ذا طابع موسيقيٍّ وعاطفيٍّ في الوقت ذاته، حاول ذلك من فضلك.

ضحكت حينها من نزقها العفوي المُتحمِّس، وقلتُ على مضض:

- حسنًا، سأحاول هذا قدر المستطاع.

في تلك اللحظة فحسب، تأكدتُ من هوية السيِّدة التي تجلس إلى جانبي.

ما زالت كما هي رغم مرور السَّنوات، بداخلها شيء يجعلها تشعُّ الحياة على الآخرين. بداخلها نبع متدفق من الكلمات لا ينضب. إنها مفعمة بالحياة ومتعطِّشة لفهم ما يجول في أذهان الآخرين ومخيلاتهم. لا يفهم أحد عالمها بقدر ما هي تشعر بجماليته من أعماقها، ولعلَّها بهذا الأمر تشبه الكثير من أفراد الجيل السبيستونيِّ المُتعب!

في تلك الآونة، كانت إحدى الجزر تفتح ذراعيها لاستقبال سفينتنا المسافرة، فلم أستطع كبح خيالي حتى تكتمل الصُّورة بشكل تام في مخيلتي، فغزلت افتراضًا يلائم حسَّ السيِّدة ذات الخيال الواسع، وقلت في نفسي: لعلنا وصلنا إلى «جزيرة الأمير إدوارد»!

* * *

# 17

في عُرض المحيط، وبينما كانت السَّفينة تواصل إبحارها بين الجزر التي تُرصِّع البحر الأزرق الممتد، وفيما كانت وجوه الرُّكاب تتبدَّل من حولي من حين إلى آخر، حانت مني التفاتة نحو مقدِّمة السَّفينة، فإذا برجل غريب الهيئة، يقف في معزلٍ عن بقية الرُّكاب الآخرين.

كان ساهم النَّظر، مُسرفًا في الهدوء، يولي وجهه شطر أمواج المحيط، دون أن يسترعي انتباهه أي شيء يحدث على سطح السَّفينة، يجعلك تشعر لوهلة أنه يُبصر من تحت المياه حضارة غارقة وقصورًا من بلور، أو يحادث حوريات البحر بلغة العيون، أو أي شيء غرائبيٍّ من هذا القبيل.

شيء ما شدَّني نحوه، فدنوت منه بخطوات فضولية دون غاية واضحة.

حين صرتُ على مَقربة منه، تمكنت من التَّحديق إلى سيمائه بنظرات فاحصة دقيقة، فوجدته كهلًا قصير القامة، يعتمر عمامة بيضاء، ينتعل خفًّا ذهبيَّ اللون، ويرتدي ثيابًا فضفاضة مُطرزة بالعديد من الأحجار الكريمة، وكأنَّما يلبس خاتمًا مُرصَّعًا باللازورد، شأنه بهذه الهيئة، شأن شهبندر تجار عريق، كان قد استأنس التِّجارة منذ زمن بعيد.

خفق قلبي، ولاحت في الأفق قصص قديمة منبعثة من زمن الحكايات السِّحريَّة، وفاح في الأرجاء عبير ألف ليلة وليلة، ولكن تريثت ولم أستبق الأحداث.

تنحنحتُ قاطعًا عليه خلوته، فالتفتَ إليَّ بوجه مستدير وابتسامة رائقة.

بادرته السَّلام فردَّه ببشاشة وترحاب.

تورَّطتُ حينها ولم أعرف كيف سأفتح حديثًا معه، فطفقت أبدي إعجابي بهندامه الغريب الذي يتأنق به، وبهدوئه اللافت في ظل ازدحام الأحاديث من حوله، ثم ما لبثت أن سألته:

- يا ترى من أي البلاد تكون يا عم؟!

فقال بلكنة فصيحة ولسان منطلق:

- بحَّار عربيٌّ وتاجر من بغداد يا بُنيَّ.

خفق قلبي بين جوانحي، وانفرجت شفاهي قائلة:

- لعمري إنك السِّندباد الذي سمعنا عنه في الحكايات.

فقال وقد هز رأسه ضاحكًا:

- أنا هو بشحمه ولحمه يا بنيَّ.

تلعثمت حينها وانعقد لساني. بقيت فريسة الدهشة للحظات، وهتفت في نفسي طائرًا من الشعور: من سيصدِّق أنني قابلت السِّندباد في هذه الرِّحلة؟!

يقولون في مستهل إحدى الأغنيات الكرتونية العتيقة: «أعوام تمضي والدنيا أسفار» وعلى ما يبدو أن التَّاجر البغداديَّ ما يزال يواصل رحلاته البحريَّة، ويجوب إلى هذه اللحظة أقاصي البلاد النَّائية قبل الدانية!

على الرغم من ملامح وجهه التي تغوص في التَّجاعيد، وأعراف العمر الذي وصل إليه، فإن نظرته ما تزال ترفل بالتَّحدي وروح المغامرة.

تلك المغامرة التي طالما كانت تُعرِّفُ به بالنيابة عنه، وهي تردد بكل شجاعة وإقدام: «أنا سندباد المُغتربُ، أبعد أبحر أغتربُ، لا أهاب الموج أبدًا حين يعلو ويضطربُ..».

مضينا نتجاذب أطراف الحديث، وقد استذكرنا خلاله كيف استطاع هو ورفاقه الانتصار على المشعوذين وقهر زعيمهم الجنيِّ الأزرق كما حدث في ختام سلسلة الحكاية.

ابتهج الرَّجل حينها وانبشَّ لمعرفتي بهذا الإنجاز الأسطوري الذي يعني له الكثير. انتشى وكأنما طار به السُّرور كلَّ مطار، فرجحت من خلال هذا أنه

يظن نفسه شخصيَّة منسيَّة في طيات الحكايات وما عادت الأجيال تكترث بوجوده بينهم!

دون أن أتطرق للحديث ونسج التَّساؤلات عن هذا الموضوع، أفصح من تلقاء نفسه عن سبب وجوده في هذه السَّفينة، إذ قال بنبرة آسفة موضحة:

- لقد اكتريتُ مركبًا مستقلًّا لأخوض فيه رحلاتي، ولكنه تعطَّل قبل أيَّام، فارتأيت أن لا تتوقف رحلتي الجديدة بسبب هذا العذر السَّخيف، فاستقللتُ هذه السَّفينة المُسافرة كما ترى.

هززتُ رأسي متفهمًا، وشاعرًا بحسن الحظ الذي جعلني ألتقيه على متن السَّفينة.

بعد لحظات..

خطر لي أن أسأله عن حال الثلاثيِّ المغامر الذي كان يرافقه في كلِّ رحلاته: الأميرة المسحورة، صاحب مغارة اللصوص، وصاحب المصباح السِّحريِّ..

ولكن، وبما أنهم ليسوا برفقته في هذه اللحظة، تسلل إليَّ شعور أنني بتساؤلاتي ربَّما أنكأ جرحًا أو أحرِّك لوعة، ولا سيما أنني لا أعرف ماذا حدث بعد كلِّ هذه السَّنوات، فاكتفيت بالصَّمت، ومضيتُ أستذكر قصص تلك الشخصيات المشهورة.

ثم ما لبثتُ أن فكرت في الموضوع بشكل تحليلي أعمق، إذ أسقطتُ قصصهم الخيالية على الواقع الذي نعيشه، وصرت أقول في نفسي:

ما أشبه حكاياتنا بحكاية السِّندباد ورفاقه الأوفياء المغامرين، فنحن نحاول مواصلة السَّير على الرغم من كلِّ الصُّعوبات والأهوال التي تداهمنا. نحاول أن نفكَّ السِّحر عن طيورنا العاطفيَّة المسحورة. أن نحل لغز المغامرة التي تدُسُّ الحياة فيها ما سرقته من قوافل صدورنا ونحن في غفلة عنها.

نحاول أن ندعك المصباح السِّحريَّ بكل ما أوتينا من حُلم وأمل ورجاء، لعلَّ المارد الماكث بداخلنا يستيقظ من سُباته الطَّويل، ويحقق أمنية واحدة، أمنية واحدة من أماني قلوبنا المُتعبة!

مع مرور الوقت، وبينما كان السِّندباد يُحدِّثني عن رحلاته التِّجارية في أقطار مختلفة حول العالم، والشعوب المتنوِّعة التي مرَّ بها، صدحت في

مسامعي الأغنية الكرتونيَّة القديمة التي تقول: «في قصص الشعوب، طرائف لا تنتهي، وعالم حُلو بهي، يسكن في القلوب..».

فتنبَّهتُ حينها إلى أن هناك أماكن في عالم الرُّسوم المتحركة لن أتمكن من زيارتها أو معرفة أخبار ساكنيها، فلم أشأ تفويت فرصة أن أتعرف على بعضها من خلال اطلاعه المتبحر الواسع، فطلبتُ منه أن يحدثني عن الأخبار الشَّائقة العجيبة التي مرَّت به في أثناء رحلاته العديدة.

مرَّر السِّندباد لسانه على شفتيه بعد أن هزَّ رأسه متفهمًا، تنحنح ليجلو حنجرته، ثم أخذ يتحدث عن الغرائب التي شاهدها أو سمع بها في رحلاته.

قال في هذا الصَّدد إنه مرَّ ببلاد تحكمها ملكة استطاعت الوصول إلى عرش البلاد من خلال فردة حذائها النَّادرة التي كانت تنتعلها ذات حفل ملكي.

عند ذلك، وعلى نحو بدَيهيٍّ، اتجهت بوصلة تفكيري نحو القصة الكلاسيكية المعهودة، إلى تلك الفتاة الطَّيبة التي تعرضت للظلم في أول حياتها، وكانت أطياف الحياة تلقبها «الوردة البيضاء»، وكانت تواسيها وتهمس في مسامعها: «كلَّما قست الأيَّام، زِدتِ إيمانًا ونقاء، قلبُكِ أحلى بل وأغلى من كلِّ الأشياء..».

مضى السِّندباد يتحدث عن عادات النَّاس في تلك البلاد، وكيف أنها صارت من أوائل البلاد المصنِّعة للأحذية الفريدة النَّادرة، فابتسمتُ مشدوهًا وقد تبادر إلى ذهني العديد من الأمور التي لم أفكر فيها من قبل.

خطر لي أننا لا نعرف مقاس الحذاء الكريستاليِّ الذي أوصل «سندريلا» إلى قصر الأمير «شارل»، وأن فكرة وجود حذاء يُناسب سيِّدة واحدة في البلاد بأسرها ربَّما يكون أمرًا مقتصرًا على بلاد الكرتون والقصص والعجائب، ولكن ما نعرفه على وجه اليقين أن بداخل كلِّ واحد فينا شيئًا يُميِّزه عن الآخرين، شيئًا فريدًا لن يُبصره فينا إلا من يعرف قياسات قلوبنا التي لا تُشبهها أي قياسات، لن يبصره إلا من يجعل قلبه قصرًا يليق بإقامتنا الفاخرة على عرشه، ويجبر الحياة أن تحنو علينا بكل ما أوتيت من عطف وتقدير واحترام، وأن تنحني لصدق إحساسنا النَّبيل، وصبر فؤادنا الطَّويل، لتهدينا وردة بيضاء تعويضًا عن كلِّ لحظات السَّواد التي مررنا بها في دروب هذا العمر!

تنهدتُ ونفضتُ رأسي بعد لحظات، وقد فطنتُ وقتها أن السِّندباد أخذ يكمل حديثه عن بقية الغرائب التي عرفها أو سمع بها في أثناء ترحاله.

قال على نحو غامض مريب:

- مررتُ بأقوام يستطيعون معرفة قوة النَّاس وطاقتهم، من خلال مؤشر للقوى يضعونه على عيونهم!

قطبت جبيني واستوضحت قائلًا:

- وما حاجتهم إلى ذلك؟!

- إنهم يتقاتلون فيما بينهم بطريقة عدوانية شرسة حد الفناء.

- ولماذا يفعلون هذا؟!

- إنهم يلهثون خلف كرات نارية غريبة.

- كرات ناريَّة! وماذا تفعل هذه الكرات؟!

- إنهم يعتقدون أن من يجمع هذه الكرات يستطيع استجلاب تنين خارق يتمكن من تحقيق الأمنيات المستحيلة.

في تلك اللحظة، خفق الوجدان الطُّفولي في أعماقي، وخطر لي بشكل تلقائي أنه يقصد كرات «دراجون بول» الشهيرة.

حاولت استرجاع تفاصيل تلك الحكاية الأسطورية التي عرفتها في شاشة التِّلفاز السبيستونيَّة، وكيف كان الجميع يتهافت على تلك الكرات ويُضحِّي بحياته من أجلها.

تخيَّلتُ البطل المدهش لشعب «السَّاينز»، وكيف كان يستثير الغوريلا العملاقة في أي وقت يريد، وكيف رحل إلى كوكب بعيد كي يتمرَّن ويُطوِّر من مهاراته القتالية، ويُضاعف من قدرته على الدفاع عن نفسه، في سبيل إنقاذ أهله وكوكبه وعالمه.

ولكن تذكَّرتُ في الوقت ذاته أنني انشغلت ولم أكمل مشاهدة سلسلة الأجزاء المتتالية من هذا البرنامج الملحميِّ، ولهذا لا أعرف ماذا حدث في النِّهاية على وجه التَّحديد.

ولكن ما أستطيع قوله الآن، أننا بشكل أو بآخر، نحاول تطبيق بعض الأمور التي تعلمناها مع «جوجو» في ذلك الزَّمن الجميل، فكلما حدثتنا الحياة عن التَّحدي ركضنا نتمسك بالأمل، وكلما حدثتنا عن الشجاعة حاولنا مواصلة العمل!

بطريقة ذاتية خالصة، نُحاول إيقاظ الرُّؤى والهمم في نفوسنا على الرغم من صعوبة الأمر، في ظل المعطيات المحبطة والطَّبيعة الجغرافية والمجتمعية التي نعيش فيها.

نحاول أن نزيل غبار الماضي عن وجه الحنين الذي يبقينا على قيد الذِّكريات التي تحيينا، وأن نعود بالزَّمن إلى حيث نشتاق ونريد، لكي نرسم حروف قصتنا بعمق حجر الأصالة التي تليق بقلوبنا الثمينة!

بعد حين من مراودة هذه المشاعر لمخيلتي وعاطفتي، رفعت رأسي وقد وعيتُ أن السِّندباد يواصل سرده للقصص الغريبة التي سمع بها.

هذه المرة، قال وقد بدا متعجبًا مما يقول:

- سمعت عن أقوام يحكمهم فأر استطاع غسيل أدمغتهم واللعب بعقولهم.

ران الصَّمت ولم أنبس بكلمة، إنما ظللتُ فاغر الفاه أنتظر منه أن يكمل حديثه، فضحك وأضاف:

- لا أعلم صحة هذا الأمر، ولكنهم يقولون إنه استطاع أن يتحدث إليهم بلغتهم التي يفهمونها، ولهذا نجح في مهمته.

لعبَ الفأر في عبِّي في تلك اللحظة، وقد لاحت في المخيِّلة حكاية فأرين كانا يعيشان في أحد المختبرات القديمة، ويحاولان كلَّ يوم السَّيطرة على العالم بكل السُّبل الممكنة.

بسيمفونية شهيرة معتادة، كان «بينكي» يسأل «برين» على الدوام: «ماذا سنفعل الليلة؟» فيُجيبه بلهجة حازمة: «سنفعل ما نفعله كلَّ ليلة، سنحاول السَّيطرة على العالم»

وفي كلِّ مرة كان «برين» يضع خطَّة عبقريَّة مدروسة، إلا أن غباء «بينكي» وتفكيره في الطَّعام بشكل جنوني، كانا يُفسدان عليه أن تتكلَّل هذه الخطط بالنَّجاح.

لطالما كنت أقول في نفسي متفكرًا: لو أنه يتخلَّص منه لربَّما نجحت خُططه الذَّكية المُحكَمة، واستطاع السَّيطرة على العالم. ولكن الآن، وفي ظلِّ المعطيات التي نعيشها في هذا الزَّمن الغريب، أعتقد أنه فعلها وتخلَّص منه بالفعل!

* * *

# 18

«فوق الموج العالي تحملنا الرِّياح، تنقلنا من بحر الليل إلى بحر الصَّباح»

كانت هذه الكلمات المألوفة هي آخر ما تفوه به السِّندباد البحريُّ، قبل أن يودِّعني ويستقلَّ سفينة أخرى تعينه على مواصلة رحلته، التي أظنها رحلة مضنية وممتعة في الوقت ذاته، رحلة إلى بلاد ما وراء البحار السَّوداء والحكايات المنسيَّة العجيبة، وعالمٌ ساحر يشبه العالم الذي كان يطوفُ به متاجرًا هو وأصدقاؤه، هكذا خلت الأمر تمامًا في نفسي.

أما رحلتي الكرتونية التي أخوض غمارها، فقد هفَّت عليها رياح القلق بشكل مفاجئ، إذ صرت نافد الصَّبر والانتظار دون أي مقدمات. خامرني الشك وضجَّت بداخلي العديد من الوساوس حول موعد الوصول إلى البلدة القديمة التي أقصدها!

مررتُ بجزر مختلفة ومحطات عديدة كانت تنبثُّ في كلِّ مكان من أطراف المحيط الواسع، تبدلت الكثير من الوجوه على السَّفينة، طال الوقت وانقضى يوم جديد، وما زلت منتظرًا متى يحين دوري في النُّزول!

الانتظار ليس مشكلة على الإطلاق، المشكلة الحقيقية أن لا أجني شيئًا من كلِّ هذا الانتظار، وأن لا تقودني كلُّ تلك الأميال التي أبحرتها إلى الوجهة التي أريد الوصول إليها، أو أكون قد تجاوزتها في غفلة منِّي دون أن أشعر.

كُنت أدمدم بتلك التَّخوفات بيني وبين نفسي، وخلال هذا، ارتفع صوتي قليلًا وتطاير في الأرجاء على ما يبدو، إذ تلقَّفه أحدهم وسألني عن الوجهة التي أبتغيها!

ما إن أخبرته حتى أشار مُطمئنًا أن ثمَّة جزيرة واحدة مُتبقية تفصل بيني وبين مُرادي، فما كان مني إلا أن شكرته، وقد أحسستُ بالارتياح المكانيِّ في تلك الآونة، ومضيتُ أحدِّقُ إلى أمواج البحر العليل وأنا لابث بهدوء في مقعدي.

مع مرور الوقت وجدت نفسي أحدق بطرف عيني إلى الرجل ذاته دون أن يكون لي حاجة في هذا، فوجدته مربوع القامة، عريض الوجه واسع العينين، له أنف أفطس وشعرٌ بنيٌّ منفوش كأنَّما لم يزُره المشط منذ الأزل. يُقيم في زاوية فمه عودٌ يابسٌ لا أعرف الهدف من وجوده، بالإضافة إلى أنه كان يُحرِّك فاه بطريقة غريبة كما لو كان يمضغ شيئًا!

للحظة، تبادلنا نظرة فارغة من أي معنى، ثم ما لبث بعد بُرهة أن شرع بالتَّصرف بطريقة صبيانيَّة، فصار تارة يتقلب في مقعده كأنَّما ينخزه دبُّوس مُدبَّب، وطورًا يلعب في أنفه على نحو مثير للاشمئزاز، وآونة يثرثر بحديث محشو بعبارات بالية يعوزها اللزوم، راكلًا بهذا أبسط قواعد اللياقة لراكب عابر على متن سفينة مسافرة!

وفيما كنت أشعر نحوه بشيء من النُّفور، رنا إليَّ بشكل مفاجئ وقد ندَّت عنه زفرة متبرمة على نحو لم أفهمه، شممتُ من خلالها رائحة كريهة انبعثت من فمه، ثم سمعته يقول في أذني بصوت خفيض كأنما يشكو لي الحال التي وصل إليها:

- أتعلم؟ ما أتعس حياة المرء دون حبٍّ، مهما ادعينا أننا نستطيع الاكتفاء بأنفسنا، نظلُّ بحاجة إلى من يخفف علينا سواد الأيَّام.

رمقتهُ مُستغربًا من مُناسبة هذه الكلمات، ومن الطَّريقة الحكيمة التي تفوه بها. اكتفيت في تلك اللحظة بهزِّ رأسي دون أن أنبس ببنت شفة، فحثَّني على التَّجاوب معه قائلًا:

- ما رأيك؟! ألا تتفق معي في هذا؟!

فقلتُ باقتضاب وقد ابتسمتُ نصف ابتسامة:

- صحيح كلامك.

حملق بي بنظرات غريبة، قبل أن يقول بصوت أخنف:

- ولكن الحياة لا تمنحنا دائمًا الحب الذي نستحقه، الحياة ليست عادلة على سطح هذا الكوكب البائس.

ثم استدرك وقد كان وجهه في تلك اللحظة يُفصح عن بلاهة مفاجئة:

- ولكنها تكون عادلة في بعض الأحيان، فهي تمنحنا الكثير مما نريد من الطَّعام اللذيذ، تمنحنا الكثير من الضَّفادع الشهية لكي نأكلها وتتحول أمعاؤنا إلى مستنقعات رائعة، وعندما نأكل السَّحالي المقرمشة تتحول معدتنا إلى صحارٍ واسعة، الأمر ممتع جدًّا.

هنا، تجمدت ملامحي، وبقيت ملتزمًا الصَّمت من فرط الاستغراب دون أن أطرف طرفة واحدة.

وجدته يسترسل في الحديث ويقول:

- اسمع، الأمر معقد بالنِّسبة إليَّ، أحيانًا أراها حياة عادلة وأحيانًا لا، ولكنني متأكد من أن الحب شيء رائع، شيء يُشبه الضَّفادع والكائنات الجميلة.

حاولت استجماع تركيزي ومعرفة نزق هذا الشخص. شككتُ لوهلة بقدراته العقلية، وتساءلت في نفسي إن كان جادًّا في مسألة هذه الضَّفادع، وما علاقتها بالحب الذي ينقصه، أتراه يمزح معي؟

وقبل أن أكتشف جواب هذا السُّؤال بشكل فعلي، تثاءب الرَّجل بشكل مباغت، فظهرت أسنانه الصَّفراء المتآكلة، وانبعثتْ رائحة كريهة من فمه، فطغى عليَّ ضرب من التَّقزز ورغبة عنيفة في إنهاء الكلام.

وضع الرَّجل راحة كفِّه على خدِّه بمنتهى البلادة. زفر وصار يحدِّق إلى المياه، وفي اللحظة التي توقعت فيها أنه سيلتزم الصَّمت، مطَّ رأسه نحوي وقال بصوت هامس:

- اسمع، انظر هناك بهدوء دون أن تلتفت.

قلت على مضض:

- أنظر إلى أين؟!

- هناك نحو الرَّجل والمرأة اللذين يجلسان في تلك الزَّاوية.

أحسست أنني سأنخرط في حديث سخيف لا قيمة له، ومع هذا جاريته في رغبته على مضض، وخطفتُ نظرة سريعة إلى حيث أشار.

وجدت حينها رجلًا بملامح خشنة وبريئة في الوقت ذاته، يجلس بجانب سيِّدة رقيقة الملامح، ناعمة التَّفاصيل، وكان كلٌّ واحد منهما يحدِّق إلى الآخر بعيون تشع بالحب وتروي الكثير من القصص الدافئة.

عاودتُ النَّظر إلى الرَّجل الذي يجلس بجواري، وسألته عن علاقته بهما، فأخذ يقول:

- إن هذا الرَّجل هو رفيق عمري.

حينها، حدَّقتُ إلى عينيه بشكل مباشر. التزمتُ الصَّمت وانتظرته أن يتابع حديثه.

قال بعد لحظات:

- كان فيما مضى بائسًا مثلي، كنا نتشارك الهموم معًا ونتبادل الأسرار والمكنونات، كنت أحس أنه فرد حقيقيٌّ من عائلتي، ولكن، وعلى الأيَّام، اختلفت حياته بمجرد أن تزوج هذه السيِّدة، لقد اختلفت رأسًا على عقب.

سألته مستوضحًا:

- وكيف حدث هذا؟!

زمَّ شفتيه، ثم قال وقد شرع في قضم أظافره:

- لا أعرف، ولكنها اختلفت.

ثم استدرك على نحو صريح:

- اسمع لا تنظر إليَّ هكذا، أنا فاشل في وصف الأشياء، وبخاصة حين يتعلق الموضوع بالأمور العاطفية، ولكنني أشعر أنه يرى الأمور بشكل مختلف عمَّا أراه، وصار يترفع عن الكثير من الأمور التي تخص عالمي.

وبينما كنت أحاول جاهدًا الشعور بعمق كلماته، أضاف وهو يُفرقع أصابعه:

- تخيَّل أنه صار يترفع عن أكل الضَّفادع والسَّحالي، تخيَّل هذا يا رجل!

حينها تأوَّهتُ في سري، وأيقنت أنه لا فائدة من الخوض في أي حديث مفيد مع هذا الرَّجل، فحاذرت من قول أي كلمة تنزلق بي نحو موضوع جديد.

اكتفيتُ بالصَّمت، ومضيتُ أهز رأسي موافقًا على كلِّ ما يقول، كنت مُستعدًّا للتَّوقيع على كلِّ الأفكار التي يتفوه بها، لعلَّه يركن إلى الصَّمت، فأرتاح من نقاشه العقيم.

ظلَّت العبارات السَّطحية الغريبة تجري على لسانه إلى أن سَئِم من الكلام، وقال كما لو كان ينهي حديثه بعد أن غسل يديه منِّي:

- على كلِّ حال، أنا لم أرتبط بعد، ولم ألتقِ الشخص المناسب، لأنني لم أجد ذلك الشخص الذي يعيش الحياة بجنون، ويحب الطَّعام بشراهة مثلي.

ساد الصَّمت لمجرد لحظات قصيرة، قبل أن يسألني:

- وأنت ماذا عنك؟!

- أنا ماذا؟!

- هل تُحب؟! هل أنت مرتبط؟! هل لديك أولاد؟!

- لا.

- لماذا؟!

حينها التصقت شفاهي ببعضها، وكدت بعد وهلة أن أقول أشياء عن الاكتفاء والاحتواء، ولكنه لن يفهم ما أعنيه، فابتلعت كلماتي العميقة واستبدلت بها عبارة ساذجة لم أعد أذكرها.

في لحظة مفاجئة، ودون توطئة أو مقدمات، هبَّ الرَّجل ونهض بوثبة واحدة، وصار ينظر إلى البعيد.

مضيتُ أحدِّق إليه بنظرة باردة فوجدته قد أطال النَّظر كأنما ينتظر شيئًا، وللحظة من الزَّمن، أحسستُ بانتعاش جوارحه، ولهفة مُتَّقدة لا أعرف سببها، قبل أن يقول بحرارة:

- ها قد وصلنا إلى أرض الأمل!

* * *

# 19

ذات زمان مفعم بالحب النَّقيِّ الخالص، والنَّبضات الأصيلة الصَّادقة، وبينما كنا نشاهد حكايات الحب البسيطة التي تنبعث أمام قلوبنا من شاشة برامج الكرتون، ظننا وقتها أن الحياة نقيَّة كعينَي الجميلة «لينا»، وشامخة كصمود الفتى «عدنان»، وأننا لسنا بحاجة إلى شيء سوى أن تجمعنا الأماني الجميلة بمن نحب، حتى نمتلك مفاتيح الفرح والسَّنوات الهانئة، ونهتف بكل جذل طفولي أن هذه الحياة «حلوة وثمينة»!

ولكننا اكتشفنا لاحقًا أن الأماني لا تكفي وحدها لأن تجمع بين قلبين، وأن الحب وحده لا يكفي لنجاح القصص العاطفيَّة، وأنه لا مكان للعشق والهيام في زمن الجشع والمصالح، لا مكان للنبضات في زمن الرَّغبات، وأن الحُبَّ العنيف الذي كان أقوى من الطَّاقة الشمسيَّة في ذلك المسلسل، وقد جعل «عدنان» يكسر قوانين الطَّبيعة الفيزيائية ليقف صامدًا على إصبع قدمه بطريقة خارقة، لم يعد موجودًا في هذا الزَّمن المخيف، وصارت كلمة «أحبك» فارغة من أي معنى ونبض، وكأن الحرب العالميَّة التي كانوا يحدثوننا عنها في استهلالية كلِّ حلقة، قد اندلعت بالفعل، ولكنها اندلعت في صدورنا بطريقة لم نستطع استيعابها إلى هذه اللحظة.

ومع هذا، وعلى الرغم من كلِّ شيء مررنا به، ما زلنا نؤمن أننا نستحق الحب الذي يليق بنا، وجدير بأن يعتلي عرش قلوبنا، الحب الذي يشعِرنا بالاحتواء والاكتفاء، ويستطيع هدم جُدران أعتى القلاع، ويعبر بنا أهوج المحيطات، ويُوصِلُ نبضاتنا المتعَبة إلى أرض الأمل ولو بعد حين!

لست أدري، ولكن على ما يبدو أنه ومع مرور السَّنوات، يبدأ الزَّمن بفرد عضلاته وبسط سيطرته شيئًا فشيئًا على ملامح الأشخاص، يكسوها بالتَّجاعيد والهالات السَّوداء وهموم الحياة، ولكنه لا يستطيع إلا أن يتصاغر ويدرك عجزه أمام القلوب التي لا تعرف الشيخوخة والموت.

فلئن شاختْ ملامح بطلَي الحكاية ولم أستطع تمييزها وهما راكبان في السَّفينة أمام ناظري، ولكن الحب بقي متوهجًا في صدريهما، بقي ولم يبارح أثره وجدان صديقهما الوفي، صديقهما الذي كان يُكابد لوعة دفينة يحاول إخفاءها عنهما. لوعة لا يمكنه رفع السِّتار المسدول عنها إلا لغريب عابر مثلي، لا يمكن أن يحكُمَ عليه بأي شيء، فيرتاح لكونه قد أفضى لشخص من المؤمَّل أن لا يجتمع به من جديد في أحد الأيَّام!

عندما عرفتُ هويته، وما إن نزل من السَّفينة ورأيته يجر نفسه من خلفهما، حتى أحسستُ بأنياب الوحدة التي تحزُّ في صدره، وبصدق مشاعره المحتاجة المحبوسة، مشاعره الصَّادقة المتقوِّسة تحت وطأة البلاهة التي كانت تلوح في قسمات وجهه وتقطر بها كلماته.

ظللتُ لبُرهة من الوقت أفكر في تفاصيل هذه الحكاية من جانب مختلف لم أتطرق له من قبل، ومضيتُ أقلِّبُ الأبعاد والمفارقات، إلى أن نفضت رأسي فجأة على صوت نوارس كانت تصيح في عمق المدى.

ما هي سوى لحظات حتى هوت أسراب عديدة من النَّوارس نحو السَّفينة، ثم عادت لترتفع عالية في الهواء، تبسط أجنحتها العريضة للرياح، فتحملها حيثما تشاء، تبقى هكذا للحظات في السَّماء دون أن ترفَّ، ثم تهوي من جديد وهي تزعق وتصيح..

تصيح مُبشِّرة بوصولنا إلى البلدة القديمة التي بانت معالمها وتبدت للراكبين في السَّفينة، ولا يصفق لها سوى أسماك صارت تتقافز من حولنا.

مضيتُ لحظتها أراقب السُّفن والبواخر التي كانت تتوافد من كلِّ مكان في البحر، تطلق صافراتها معلنة وصولها وكأنها قادمة من شتَّى بلاد العجائب والحكايات العتيقة...

على وقع نشوة الوصول التي كانت تسري في جوانحي، أحسستُ بشيء من الامتنان لقبطان السَّفينة، فأخذت على سبيل هذا أسير نحو رُدهة القيادة.

مشيتُ بخطوات هادئة لا عجلة فيها. استقرت هذه الخطوات عند النَّافذة الزُّجاجية للرُّدهة، وللوهلة الأولى، عنَّ ببالي أن يكون القبطان الموجود داخل الرُّدهة، هو ذاته القبطان الذي عرفته في مسلسل «عدنان ولينا»، ولكن ما إن حدَّقتُ إلى ملامحه من خلال الواجهة الزُّجاجيَّة، حتى لمحتُ رجلًا بمواصفات مختلفة بشكل جذري عن مواصفات ذلك القبطان النَّحيل ذي الشاربين المعقوفين بطريقة مثيرة للضحك.

رأيتُ رجلًا عاكفًا خلف دفة القيادة، يعتمر قلنسوة بطراز بحريٍّ فوق صلعة لامعة، ويرتدي قميصًا كحليًّا بياقة قانية اللون.

كان شاحب الوجه، ذابل العينين، يغشاه التَّعب والنُّعاس، كأنَّما تجشم هموم الدنيا فوق صدره، ويُكابد العديد من الأمراض المزمنة، أو هكذا خُيِّل إليَّ.

بينما كنت ما أزال أتفحص هيئته دون أن أقترب، وفجأة، انفلتت مني عطسةٌ مباغتة، فالتفت القبطان بسرعة وتنبه إلى وجودي على أعتاب الردهة.

استطعتُ حينها أن أرى صفحة وجهه بالكامل. انقبض صدري بغتة وهالني أن رأيته بعين مفتوحة واحدة، ولكنني استدركت ولملمت الكلمات في حلقي وسارعت إلى إجزال الشكر وإظهار الامتنان.

بالكاد، ابتسم الرَّجل نصف ابتسامة، وردَّ عليَّ بنبرة ناعسة من شفتين ذاويتين، وقد نفث خيط دخان من غليونه المعقوف في زاوية فمه، ثم ما لبث أن أعاد نظراته السَّاهمة نحو البحر.

وقَعتْ عيني على ساعديه الموشومين، ويديه المفلطحتين اللتين تشبهان المطارق. ظللتُ مُتسمِّرًا في مكاني أراقب تفاصيل الرَّجل، ثم سُرعان ما استوعبت الأمر وعادت بي الذَّاكرة إلى الوراء، إذ أدركت أنني في حضرة

البحَّار القويِّ الذي عرفته ذات زمان، ذلك الرَّجل الطَّيِّب الذي كان يقتات على السَّبانخ المعلَّبة حينما يُداهمه التَّعب والخمول!

انتشيت في داخلي ولم أشأ الانصراف عن الرَّجل بسرعة، وبينما كنت أحاول فتح أي موضوع معه، تذكرت كيف كان لا يكُفُّ عن إسداء نصائحه للأطفال عندما كان في أوج شبابه وذروة عطائه وقوته!

حدَّقتُ إلى شاطئ البلدة القديمة التي كنا نقترب منها شيئًا فشيئًا، فخطرت لي فكرة ما، ووجدتُ نفسي قد رحت أتساءل بشكل مباشر:

- يا عم، ما هي نصيحتك لشخص يزور هذه البلدة للمرة الأولى، ولا يعرف فيها أحدًا؟! كيف يمكن أن يتصرف؟! أو هل من نصيحة تستطيع أن تُسديها لمسافر مثلي؟!

نظر الرَّجل إليَّ حينها نظرة نافذة سريعة، ثم ما لبث أن ضيَّق عينيه مفكرًا وهو يقول:

- لا أعرف ما هي حاجتك من هذه البلدة، فأنا لا أعرف شيئًا عن طباع أهلها، ولكن من خلال تجربتي في هذه الحياة، عليك أن تبقى غريبًا بينهم، متى ما بقيت كذلك احترموك بشكل أكبر، ولم يبخسوا من قدرك لحظة واحدة، فالنَّاس لا تجيد تقدير المُقرَّبين منها، ووضعهم في أمكنتهم التي يستحقونها.

ثم أضاف دون أن ينظر إليَّ، وصار يقول وهو يجرُّ بين الكلمة والأخرى نفسًا من غليونه:

- لا تُفصح عن وجهتك الحقيقيَّة لأحد، ولا ضير من أن تتغابى في بعض المواقف، وأن تشعر من حولك أنك لا تفهم كلَّ الأمور التي أمامك، إن فعلت هذا، سأضمن لك الكثير من الارتياح.

راقت لي هذه الكلمات الأخيرة وخلت أنني بحاجة إليها بالفعل، فطلبتُ منه الاستزادة، فزادني وقد خشخشتْ ضحكة في صدره، ومضى يقول كما لو أنه تذكر شيئًا:

- لا أعرف إن كانت هذه النَّصيحة ستنفعك في رحلتك أو لا، ولكن تنصحني إياها زوجتي «زيتونة» بشكل مستمر.

ضحكتُ حينها، وسألتُ وأنا أتخيل شكلها:

- وماذا تنصحك زوجتك؟!

- إنها تقول: لست مجبورًا على أن تبرر لأحد ما تحب، فعلى كلِّ الأحوال لن يفهم أحد حجم المشاعر الموجودة في داخلك، لا تُبرِّر هذا، حتى لو أحببت امرأة طويلة نحيلة مثلي...

قال تلك العبارة الأخيرة وهو يقلِّد طريقتها في الحديث. ضحكنا معًا، ثم راح بعدها يقول بعد النَّصائح الموجزة قبل أن يوقِّع عليها كما دأب أن يفعل «اسمع نصائح باباي..» وشفع ذلك في إطلاق صافرات معهودة من غليونه القابع في زاوية فمه.

على وقع هذه الأجواء المرِحة، وبخطوات متباطئة متفكِّرة، غادرت ردهة القيادة.

ومضيتُ أفكر بعمق في قصَّة وفاء هذا الرَّجل، وكيف كان يغار على زوجته غيرة مجنونة، ويُنافح عنها أمام غطرسة عدوه اللدود «بلوتو»!

ربَّما لا أحد منَّا يعرف الأشياء التي أحبها «باباي» في زوجته «زيتونة» صاحبة الجسد الهزيل، والدم الثقيل، والصَّوت المزعج، ولا نعرف لماذا كان يدافع عنها بكل استماتة وعُنف عاطفي غريب، ولكن ما نعرفه أن علينا أن نكون مثله في هذا الشعور الشهم النَّبيل، أن ندافع عن خيارات قلوبنا مهما كان حُكم النَّاس عليها، ومهما كانت الضَّريبة باهظة الثمن، فنحن نقيس هذه الحياة على مقدار نبضات صدورنا، لا على مقدار نبضات هذا المجتمع المغفَّل الذي يتوهَّم أنه يعرف ما نريد.

ولكن أخشى ما أخشاه أن نصل ذات يوم إلى زمن بخيل، نخشى فيه أن تنفد طاقتنا، أن تنتهي السَّبانخ من جيوبنا، ولا نستطيع إنقاذ أي زيتونة في سفينة العمر!

حاولتُ قشْعَ هذه الفكرة السَّوداوية من رأسي، ومضيتُ أتطلع نحو ميناء البلدة القديمة. تنشَّقتُ عبق البحر العليل، فامتلأ صدري بنشوة الوصول، وصرت متشوقًا لما سيصادفني في بقعة جغرافيَّة جديدة من عالم الرُّسوم المتحركة...

***

# 20

مكتبة
t.me/soramnqraa

فيما كان الموج يتلاطم ويقذف بزبده على الشاطئ، ووسط ضجة محركات قوارب الصَّيد، وجلبة السُّفن والملاحين المنتشرين في أرجاء المكان، مضيتُ أسير على رمل الشاطئ الحريريِّ النَّديِّ النَّاعم، ولفرط الشعور الذي أحسستُ به في تلك اللحظة، كان يعنُّ ببالي أن أخلع حذائي وأركض لكي أشعر بحبَّات الرَّمل النَّاعمة وهي تتخلل أصابع قدميَّ المتيبسة، قدميَّ اللتين وجدتا أخيرًا مساحة واسعة تتحركان فيها، بعد ساعات طويلة من السَّفر والالتزام!

على وقع أبواق السُّفن المحتشِدة في الميناء، تتابعت خطواتي المُتباطئة على امتداد الشاطئ. لم يكن لدي تصور محدد، أو خطَّة واضحة لما سأفعله. كانت الخطوات دون هدى، وكنت لا أتوقف عن الالتفات في كلِّ مكان، علَّني أعثر على أي إشارة تدلني على المدخل الرَّئيسي للبلدة.

خلال هذا، مررتُ بالعديد من الأسماك النَّافقة على الشاطئ. ثمَّة أولاد يصنعون قلاعًا رملية يتمنون أن يسكنوها ذات يوم، وثمَّة أناس يجمعون قواقع ومحارًا ويلتقطون بعض الصُّور التِّذكارية، وهناك في البعيد كان يتبدى لي رهط من البحارة والمسافرين، كانوا يحزمون أمتعتهم للانطلاق في رحلاتهم البحريَّة.

أوغلتُ في السَّير، ومضيتُ أتخيَّل كيف استطعت عبور الغابة الموحشة والبحر الشاسع، وقد صرت أدندن بشكل لا إرادي لحن الأغنية التي تقول:

«رَسَمَ البحر ورسمَ الغابة، رسمَ بألوان خلَّابة، رَسَم بلون من خيال، أشخاصًا كانت صُورًا، خطَّطها وضع الظِّلال، صارت أحداثًا عِبَر..».

وفجأة، حدث أمر غير متوقَّع، حيث باغتني أحدهم وصار بجانبي في غمضة عين.

كان رجلًا مُشرق الوجه، متهلل الأسارير، مُعتدل البنية، غير واضح العمر، له لحية متوسطة الكثافة، وعينان شديدتا اللمعان تومضان ببريق خاطف، وتلوح عليه أمارات الذَّكاء والمكر في الوقت ذاته.

الغريب في الأمر، أنه رحَّب بي بحرارة بالغة كما لو كان يستقبل صديقًا قديمًا راجعًا من سفر طويل، فرجَّحتُ حينها بشكل منطقيٍّ أنه ينتظر شخصًا آخر بلا ريب، ولكن الأمر قد التبس عليه وأوقعه في موقف محرج، فحاولت كشف هذا اللبس على الفور، ولكنه لم يعبأ بكلامي، وأصر بثقة عجيبة أنه يقصدني دون سواي من المسافرين!

كان اندفاعه أكبر من تدفُّق الكلمات على لساني، وكنت بشكل متحرِّج أبتلع أنصاف الكلمات واستبدل بها ابتسامات مجاملة.

في تلك اللحظة، خطر لي أن أنتهز الفُرصة وأسأله أن يدلَّني على المدخل الرَّئيسي للبلدة، فعرض عليَّ حينها أن يقتادني إلى هناك، لم يكن لدي أي مجال للتردد، فأخذت أسير معه بفكر مشوَّش، ومتسائل عن النِّيات التي يضمرها في جوانحه.

تتالت الخطوات والكلمات الكلاسيكيَّة المتبادلة، وخلال هذا كنت أجاري حديث الرَّجل باقتضاب بالغ..

وأسوة بنصائح رجل البحار التي أسداها إليَّ قبل أن أنزل إلى السَّفينة، حاولت ألا أفصح عن وجهتي الحقيقية.

ساورتني الشكوك حول مهنة الرَّجل، حيث لاح لي في بادئ الأمر من طريقته الواثقة، وثيابه المهلهلة أنه بحريُّ الشكيمة، ثُمَّ غيرت رأيي وخيِّل إليَّ من حذاقته وسرعة بداهته أنه تاجر أو سمسار.

تأكد لديَّ هذا الحدس بشكل قويٍّ بعد أن عرضَ عليَّ اصطحابي في جولة تعريفية بمعالم البلدة. لسبب ما أحسستُ بالنُّفور، وحاولت الفكاك من الأمر

بطريقة مهذبة، بيد أنه ألحَّ على الأمر بطريقة لبقة عنيدة، وأوضح أنه لا يرجو من هذا أي مقابل ماديٍّ، إنما يفعله إشباعًا لشغف يتملَّكه.

على الرغم من القلق الذي كان ينتابني، وافقت على هذا العرض، وعلى خوض هذه الجولة التَّعريفية، ولا سيما أنني لا أعرف شيئًا عن هذه البلدة القديمة.

بعد بُرهة من السَّير تحت وهج الشَّمس، تخلَّينا عن الطَّريق الشاطئيِّ، وانعطفنا سالكين طريقًا جانبيًّا لا يوجد ما يثير الانتباه فيه، ثم لم نلبث أن شرعنا في السَّير في طريق عريض.

كان هذا الطَّريق مرصوفًا بشكل هندسي فنيٍّ إبداعي، تحفُّه أشجار سامقة تتشابك بالأعلى على شكل أقواس، تنثر أزاهيرها الورديَّة، وترسم لوحة غاية في الدهشة والإبداع، خليقة بأن تكون مدخلًا رئيسيًّا لبلدة هاربة من العصور القديمة.

تتابعت الخطوات بين أفياء الأشجار التي وُزِّعَتْ على جانبي الطَّريق بشكل متناسق، وارف، مُتباين، فريد.

لم أكن أعرف أي نوع من الأشجار هي، إنما مضيتُ أحدِّق إليها مشدوهًا ومستأنسًا بها واحدة تلو الأخرى.

في هذه الأثناء، لاحت منِّي التفاتة، فسقطت عيني بشكل عرضي على جذع إحدى الأشجار العملاقة. لمحتُ حينها زخارف غريبة الشكل أشبه ما تكون بالطَّلاسم، كانت تحيط برمز منقوش بطريقة بارزة لامعة، توقفت لوهلة، ثم دنوت منها بضع خطوات ودققت النَّظر، فقرأتُ حينها حرف:

«Z»

عند ذلك، خفق قلبي، وقد أعادتني الأطراف الحادة للحرف إلى ذكرى كرتونية قديمة.

لم أشأ أن أستبق الأمر، فانبريت أسأل الرَّجل عن مدلول الحرف، فرمقني بنظرة سريعة، وصار يُحدِّج بالحرف نظرة طويلة، قبل أن نواصل السَّير وقد راح يقول على نحو هادئ:

- يسودُ اعتقاد بين سكان البلدة أن هذا الرَّمز، هو شعار فارس كان يستخدم السَّيف بمهارة فائقة، وكان لا يتوانى عن الدفاع عن الأبرياء والمظلومين، وقد كان ينقش أول حرف من اسمه بنصل سيفه الحاد، كدليل على وجوده.

تظاهرتُ أنني لا أعرف عن الأمر شيئًا، وطلبت من الرَّجل أن يحدثني بشكل أكبر عنه، فأخذ يصفه قائلًا:

- إنه «فارس بعباءة سوداء». كانوا يقولون إنه «فارس متى أهلَّ، لا يعرف الوجل، يسعى للأمن والأمان، يرفض العدوان..».

فانتشيتُ لسماع هذا الوصف الأليف، ولكن لم تند عنِّي أي ردة فعل، وبقيت متقوِّسًا تحت مظلة الطَّابع المتحفِّظ كأنني لا أعرف شيئًا.

مع تتابع الخطوات أخذ الرَّجل يقول إنه لا يعرف إن كانت قصَّة هذا الفارس حقيقة أم هي محض خرافة تتناقلها الألسن، ولا تتجاوز أن تكون ضربًا من ضروب خلق أجواء التَّسلية والإثارة بين عامة النَّاس، كما هو الحال في كثير من القصص الخيالية المختلقة، وقد أشار في حديثه بشكل ضمنيٍّ إلى وجود قصص شبيهة بهذه القصَّة!

سألته حينها عن مقصده، فقال:

- إن هناك العديد من الشخصيات التي يُشاع أنها كرست حياتها لحماية البلدة وضواحيها على فترات زمنية متعاقبة، وصارت قصصها تتناقل بين مأثورات أهل البلدة، ولكن يدور حول تلك الشخصيات الكثير من علامات الاستفهام حول حقيقة وجودها.

امتلأتُ حينها بالحماسة والفضول، وأحسست أنني سأستمع لقصص كرتونية جديدة أعرفها من قبل، فانتهزتُ الفرصة وسألته عن هذه القصص الأسطورية.

ابتسم الرَّجل حينها، ثم أطرق مفكرًا دون أن تتوقف قدماه عن السَّير. ظلَّ صامتًا بارد الملامح، قبل أن تفتر شفتاه وينطلق في الحديث، وقد راح يستذكر بعض الشخصيات الرَّمزية التي يُتحدَّث عنها بين سكان البلدة.

أشار بشكل دراميٍّ إلى وجود مقاتل كان يتقلَّد سيفًا مختومًا على نحو غامض، وكان يشتهر بضربة قاضية يطلقها من هذا السَّيف البتَّار.

سرحتُ عندئذ في خيالي، استعرضت ملفات الذَّاكرة الكرتونية، ومضيتُ أستذكر المقاتلين الذين أعرفهم، إلى أن انتشيت في داخلي وقلت لنفسي:

أنا لا أعرف ضربة سيف أشهر من ضربة «فان داي القاضية»، لعلَّها تكون هي ذاتها الضَّربة التي يتحدث عنها، ولعلَّ ذلك المقاتل هو «داي الشجاع»!

حينها وعلى الفور، صدحت في مسامعي الموسيقى الحماسية لهذا المسلسل. ارتفع منسوب الأدرينالين بشكل تلقائي. حبستُ ما توصلت إليه في صدري، ثم مضيتُ أصغي للرجل بمنتهى الفضول والاهتمام.

نوَّه الرَّجل بعد حين إلى وجود غابة قديمة كانت مُتاخمة للبلدة منذ الأزل، وأنه سمع عنها من كبار السِّن الذين عرفهم، وسمع عن وجود مُحارب للنينجا ليس له مثيل، كان يُنافح عن الأبرياء والمساكين، وحسب ما يشاع فإنه كان قصير القامة، طفولي الرُّوح، وصاحب صولات وجولات، وكان يقفز بين جذوع الأشجار كالقرود.

لم يقل الرَّجل اسمه، ولم أشأ أن أسأله عن ذلك، إنما مضيتُ أهمهم بيني وبين نفسي وقد شرعت أنبُش في سجلات الماضي، وبعد فترة قصيرة، تذكرت محاربًا رشيق الجسد، تشبه مواصفاته مواصفات المقاتل الذي ذكره الرَّجل في حديثه، وكان يهتف بكل بسالة وإباء: «قُمْ، ضع يدك بيدي، قُمْ نبني غدك وغدي، نفتدي أرضنا، بالدماء نفتدي».

تنهدتُ من فرط التَّخيلات التي زارتني، ثم ما لبثت أن صببت جام تركيزي بعد لحظات على مقاتل آخر.

حيث أكمل الرَّجل حديثه عن الشخصيات الرَّمزيَّة، وأشار إلى محارب من فئة «السَّاموراي»!

كان هذا المقاتل بحسب قوله يمتشقُ سيفًا من فولاذ، ويقال عنه بطريقة هُلامية عجيبة إنه أتى إلى المنطقة عبر فوهة من الزَّمن الماضي، وقُذِف إلى المستقبل الافتراضي!

ما كاد يفرغ من هذا الحديث الغريب حتى أردف ضاحكًا:

- وأتمنى أن لا تسألني شيئًا عن تلك الفوهة الأسطوريَّة، فأنا بالكاد أصدق هذه القصة من الأساس!

ضحكتُ حينها واكتفيت بالصَّمت، أما في أعماق صدري فهويت من فوهة البرامج القديمة، وقد قُلت لنفسي: لعلَّه يكون ذاته «ساموراي جاك»، فأنا لم أسمع بهذه التَّفاصيل المماثلة سوى في قصته السِّريالية الغامضة!

واصلنا السَّير في الطَّريق المُشجَّر دون أن أشعر بالمسافة التي قطعناها. بعد لحظات وما إن ساد الصَّمت حتى انطلقت ضحكة ممطوطة من الرَّجل وكأنما تذكر شيئًا. حدَّقتُ إليه متسائلًا، فصار يقول إنه تذكَّر قصَّة مضحكة يتناقلها زمرة من النَّاس في البلدة.

ركضت الكلمات من جوفي:

- وما هي هذه القصَّة؟!

- إنهم يزعمون وجود فارس في جسد إنسان.

- ..؟!

- إلى هنا لا غرابة في الأمر بالتَّأكيد، ولكن هناك بعض الأقاويل تشير إلى أنه يحمل رأس أسد، لا رأس إنسان...

- ر رأس أســ.. أسد!

هزَّ رأسه ضاحكًا:

- هكذا يقولون.

ثم أردف بنبرة هادئة:

- أما بالنِّسبة إليَّ فلا أصدق هذا الهراء بتاتًا، ولا أراه أكثر من تأليف روائي وشطحات خيال.

اكتسحني حينها فضول عنيف لم أستطع إلجامه، فاستوضحت منه بسرعة عن حكاية هذا الفارس.

ابتسم بدوره ابتسامة المتفهم لانجذاب النَّفس البشرية لسماع الخرافات والأساطير.

مرَّرَ لسانه على شفتيه قبل أن يشير إلى أن هذا الفارس الذي يحمل رأس أسد، تصدى ذات زمان للبحث عن نصل مضاد من أجل إنقاذ أميرة البلاد من أحد الأمراض الفظيعة. ثمَّة من يقول إنه أفلح في هذه المهمة على الرغم من خطورتها، وثمَّة من يقول إنه فشل في هذا وكانت نهايته وخيمة جدًّا.

عند ذلك، أومضت عيناي متخيِّلًا بعض الصُّور القديمة، وقد عادت بي الذَّاكرة الطُّفولية إلى زمن كنت أستمع فيه لأغنية سبيستونيَّة تقول في استهلاليتها:

*الفـــارس النَّبيـــل*
*يمضـــي إلى الآفـــاق*
*في دربـــه الطَّـــويـل*
*كـــي يحضـــر التِّرياق.*

أوشكتُ وقتها أن أقول إنني سمعت بهذا الفارس في سالف الزَّمان، وإنه موجود بالفعل، ولكنني ابتلعت الكلمات وظللتُ ملتزمًا الصَّمت المتحفظ الذي بدأت به.

طال الصَّمت، وتتالت معه الخطوات، فمضيتُ حينها أستعرض قصص الشخصيات التي انثالت على مسامعي قبل قليل.

ثم ما لبثتُ أن فكرت في العديد من الأمور التي طرأت ببالي حول أثر هذه الشخصيات في حياة هذه البلدة.

على ما يبدو، ثمَّة أشخاص يرحلون، ولكن يتركون مِن خلفهم إرثًا من الصَّعب أن تطمره الأيَّام، لهم بصمتهم التي لا تطالها يد النِّسيان، لتظلَّ أسماؤهم منقوشة على جدران الأماكن التي كانوا يعيشون فيها، ولا سيما أولئك الذين ذات زمان أصيل نذروا أرواحهم من أجل الدفاع عن قُدسيتها، بعد أن حملوا أوطانهم على أكتافهم بكل بسالة وتضحية وشموخ وكفاح، فحقَّ فيهم اللحن السبيستوني الذي يقول:

*حمَلـوا أمـلًا لا يخبـو*
*سَـلُّوا سـيفًا لا ينبـو*
*إن نـــادى أحـد هبُّـوا*
*ليعينـــوه ويلـبـــوا.*

ولعلَّهم استطاعوا أن يطبعوا قبلة على جبين المجد، وأن يكافحوا من أجل الحقيقة التي تقول: «فصوت الحق يظل الأقوى، والظلم جبان».

على وقع هذه الأفكار، أوصَلنا الطَّريق الذي كنا نسلكه إلى ساحة واسعة، ساحة مملوءة بأصص الورد ونوافير المياه.

جلستُ هنيهة من الزَّمن على طرف إحدى النَّوافير الدفاقة، ولأن الشمس كانت حارقة، وكان العرق يتصبَّب من جسدي، انحنيت ولم أتردد في غسل وجهي بالماء، وكذلك فعل الرَّجل.

نهضنا بعدها واستأنفنا السَّير بخطوات ثابتة، وبعد مسافة خمس دقائق، وفجأة، طالعتني سوق شعبية مُكتظَّة، كان النَّاس ينسلُّون إليها من كلِّ حدب وصوب.

ما هي سوى بضع لحظات حتى غاصت أقدامنا بين الجموع، وضاع صوت الرَّجل في غمرة الجلبة وصيحات الباعة التي كانت تتطاير بين لحظة وأخرى.

ثمَّة بسطات تفترش الأرض وتتناثر في كلِّ أروقة السُّوق على مد البصر، ويوجد عليها صنوف لا تنتهي من كلِّ الأشكال والألوان والأنواع.

فاحت روائح نباتات وبهارات وعطور غريبة لم أستنشق مثلها من قبل، ثم صارت تنبعث رائحة شياط لذبيحة تُشوى في أحد الجنبات.

ثمَّة أطفال يركضون ولا يتوقفون عن الانسلال بين جموع النَّاس الغفيرة، وثمَّة نساء يَتَلفَّعن بعباءات غريبة، ويتبضَّعن من البسطات ويتهافتن على كلِّ شيء يجدنه في طريقهنَّ، وثمَّة باعة يرددون نداءات مبتكرة يستميلون بها النَّاس ويستدرُّون جيوبهم نحو بضاعتهم.

وبينما كنت أطالع هذه الأجواء، مضى الرَّجل وهو يتجاذب بعض العبارات من هنا ومن هناك، لدرجة أنني تخيَّلت لوهلة أنه يعرف جميع النَّاس في البلدة.

في قيظ الزِّحام الحاصل، كان لزامًا علينا أن نتمهل في السَّير وتصير خطواتنا مُتقطعة، مما سنح لي أن ألتقط بعض العبارات التي كانت تتطاير من حولي، مشيت وسط بازار للإكسسوارات، والتَّوابل، والصِّناعات الشعبية،

والتُّحف المصنوعة من البورسلين المرصع بالياقوت والفيروز والزُّمرد، وفي غمار هذا، وفجأة، سمعتُ فتى يُلعلع بصوت حادٍّ ساخط، وقد شدَّني الفضول لمعرفة ماذا يكمن خلف انفعاله وضجره.

تبيَّن من خلال الحديث أن الفتى ساخط على أخواته الثلاث اللواتي يعيش معهنَّ، إذ إنه يسعى لإرضائهن بشتى السُّبل، إلا أنه لا شيء يعجبهن، ولا تروق لهن البضاعة التي يجلبها لهن، مما يجعله يشعر بضرورة الاستقلال بعيدًا عن سطوتهنَّ.

لا أعرف لماذا ابتسمتُ حينها، ولكن دغدغني شعور قال لي إن مأساة هذا الفتى تشبه بشكل أو بآخر مأساة فتى أعرفه منذ زمن في هذا العالم الكرتوني، حتى إنني تخيَّلت لوهلة أنه سيصف أخواته مثلما كان ذلك الفتى يصفهنَّ، إذ كان يقول بطريقة ضاحكة مُلتاعة: «إحداهنَّ تُنغِّص عَيشي بأوامر مثل اللسعات، والأخرى تشكو من طيشي فتُعالجني بالصَّفعات، والثالثة تراني فَتصرُخ وتُزمجرُ كلَّ الحلقات، اكنس، وامسح، نظِّف واطبخ، عجِّل لا تنسَ الجليات».

ابتسمتُ، وفكرت لوهلة في حياتهم التي يعيشونها داخل أركان البيت، فتذكرت بشكل تلقائي أنني أيضًا لدي ثلاث أخوات مثله، ولكن، وعلى الرغم من النَّكد الذي يتميزن به، فإنني لم أشعر يومًا بثقل ظلِّهنَّ في حياتي، على العكس تمامًا، إن ضحكات أخواتي ووجودهن من حولي، أفضل الأشياء التي أحارب بها قسوة الحياة وسواد الأيام. إنني لا أستطيع تخيُّل حياتي دون وجودهنَّ، إنَّ الأخوات ضمادات لأحزان هذا العمر!

تنهدت، وبينما كان خيال أخواتي ما يزال يراود مخيلتي، رفعت رأسي ومسحت العرق عن جبيني، ثم بحثت عن الرَّجل الذي من المفترض أنني أرافقه.

بعد جُهد بصريٍّ رأيته على بُعد بضعة أمتار، فحاولت الموج بين النَّاس في سبيل الوصول إلى محاذاته.

خلال هذا، وفي غمرة انبثاث يافطات المحال التِّجارية في السَّاحة العامة، وداهمني العديد من أسماء تلك الدكاكين، وبشكل تلقائيٍّ مضيتُ أقرأ كلَّ ما تقع عيني عليه.

متجر لبيع الأحجار الكريمة يحمل اسم «رنين الجواهر»، يليه مخزن لبيع الأسلحة يحمل اسم «أجنحة كاندام»، ومخزن لبيع الطَّواقي يحمل اسم «صانع القبعات»، يجاوره متجر لبيع الأواني المنزلية يحمل اسم «السيِّدة ملعقة»!

هناك متجر لبيع الجوارب يحمل اسم «فرفوح»، ومختبر يقبع على زاوية الرَّصيف يُدعى «مختبر دكستر»، ومتجر لبيع الهررة والكلاب الأليفة يحمل اسم «بيف وهيركول»!

وفيما كنت مشدوهًا لا أصدق ما أراه، التفتُّ وأكملت قراءة بقية الآرمات في الجانب الآخر من السُّوق، فوجدت محلًّا لبيع الورود وتنسيقها يحمل اسم «فيفي والزَّهرات الصَّغيرات»، إلى يمينه مخبز اسمه «الرغيف العجيب»، كان النَّاس يزدحمون عليه ازدحامًا شديدًا، وثمَّة دكان صغير اسمه «بائع الحليب»، ومطعم يعجُّ بالرُّوَّاد ويحتل مساحة لا بأس بها، كان يحمل اسم «فلفول»!

مرَّت جميع هذه الأسماء على ذاكرتي كنسمة من خيال، غرقت في رحاب الدهشة، وأحسستُ للحظة أنني عالق بين الحقيقة والهذيان. لا أعرف ما الذي جعل هذه المحلات تحمل هذه الأسماء الكرتونية المألوفة!

مع مُرور الوقت، وما إن انفكَّت الأزمة وقلَّت حدة الاختناق في المكان، حتى تمكنت من العودة إلى مُصاحبة الرَّجل ومجاذبة أطراف الحديث معه كما كان الحال قبل أن نلج إلى السُّوق.

شيئًا فشيئًا تسلَّط الإرهاق على جسدي، وصرت أجرُّ قدميَّ جرًّا، فعمدنا لنيل قسط من الرَّاحة على أحد المقاعد الجانبية التي كانت تتيح لنا الارتياح والنَّظر إلى جنبات السُّوق في الوقت ذاته.

وبينما كنا نواصل الحديث ونحن لا ننفك نُحدِّق إلى وجوه العابرين الذين يمرُّون من أمامنا، جلست سيِّدة سمينة على أحد المقاعد المجاورة.

لم يكن ما يلفت الانتباه في سحنتها العادية، إنما كان بجانبها قفصٌ برونزيُّ اللون استطاع بسرعة أن يستحوذ على اهتمامي. كان داخله كوخ صغير يتربع في إحدى الزَّوايا، بينما في زاوية أخرى كانت تقبع عجلة للركض والتَّسلية والمرح.

لم يتبين إن كان ثمَّة حيوان ينام داخل الكوخ أم أنه مجرد قفص فارغ، ولكن، وفي تلك اللحظة، وبحاسة استبصار سبيستونيَّة، غامت عيناي وأعادتني إلى مشهد جاء من الماضي، وتخيَّلت لوهلة الهامستر البنيَّ الشهير «همتارو» وهو يلعب في قفص مشابه، ولا يكف عن الركض على عجلته.

إن هذا التَّخيُّل جعلني أحدِّق إلى العجلة بشكل مطوَّل، وتخيَّلت لنفسي أنني أركض عليها، مُتسائلًا في قرارة نفسي عن مدى احتمالية أن تكون حياة البشر التي يعيشونها، تُشبه الحياة الموجودة داخل أقفاص الهامستر!

لعلَّ هذا التَّساؤل السَّوداويَّ الوجوديَّ نابعٌ من خوفنا من أمور كثيرة لا نستطيع استيعابها!

إننا نخشى في نهاية المطاف أن نستيقظ على أنفسنا ونحن ما نزال عالقين في المكان ذاته، وأن يكون سعينا أشبه بالركض الطويل على عجلة الهامستر، أن تمرَّ سنوات العُمر في غفلة عين، وأن ينال منا التَّعب والهلاك والاستنزاف، دون أن نتقدم خطوة واحدة نحو الأمكنة التي ضحَّينا بكل شيء من أجل الوصول إليها.

لست أدري، ولكن على ما يبدو ستظل الكثير من المخاوف تلاحقنا حتى نهاية الحكاية، لا أمل من الشفاء منها مطلقًا، نظل نشعر بها في عزِّ فترات الطمأنينة، وتظلُّ تُباغتنا في أعمق لحظات الفرح، وتطوف حول قلوبنا بالعديد من الأسئلة التي ليس لها إجابات حاسمة، ولكن، سيبقى السُّؤال الأبرز الذي لن تعرف إجابته الأجيال اللاحقة، هو السُّؤال الذي يقول: «هل تعرفون من هو همتارو؟!».

* * *

# 21

مع مرور الوقت واستئناف رحلة التِّجوال في أروقة البلدة، طفق الرَّجل يحدِّثني عن تاريخ المكان والمجسمات والتَّماثيل والزَّخارف التي كانت تحيط بالمحلات التِّجاريَّة القديمة، وبعض التَّفاصيل التي تعكس وجه الثقافة في هذه المنطقة الجغرافية.

خلال هذا، مررنا برجل آليٍّ بدا لي مألوف الشكل، ولكنني لم أتذكر أي شيء يتعلق به، وقد استغربت في الأصل من وجود رجل آليٍّ في هذا المكان!

كان يوزِّع بطاقات بشكل مبرمَج على المارِّين من أمامه، فدفعني الفضول إلى أن أسير أمامه، وأتبين ماهية البطاقات التي يقدمها، لعلَّني أستدلُّ على هويته في الوقت ذاته.

تناولتُ البطاقة منه بابتسامة واسعة. قرأتُ رأسًا ما كُتب عليها، فإذا بها كلمات تقول: «اصفحوا عنَّا إن أخطأنا نحن الآليُّون، نسعى دومًا أن نتعلم كيف الحلُّ يكون..».

ابتسمتُ حينها دون أن أشعر بقيمة هذه الكلمات على نحو عميق، شعرت أنها كلمات جافة، فرجَّحت في نفسي لو أنني أعرف اللحن الذي قيلت به، لربَّما استطعتُ تذوُّقها بشكل أفضل، أو تمكَّنتُ من تذكُّر اسم هذه الشخصية بشكل أسهل.

مضينا نواصلُ الطَّريق، وبعد بُرهة من الوقت، استرعى انتباهي أحد الشوارع التي كانت تلوح في خاصرة الطَّريق. لم يكن شارعًا عاديًّا فحسب،

بل كان شارعًا مُزدانًا بالأعلام الملوَّنة والزَّراكش المعلَّقة، وأصناف شتَّى من البالونات الملونة، توحي هيئته بالحيوية والمرح والانتعاش، ويعجُّ بهتافات الأطفال التي تنبعث من كلِّ زاوية فيه.

ما إن دنونا من مدخله حتى أرسلت نظرة طويلة، فتراءت لي حينها بعض الألعاب الإلكترونيَّة، والعديد من مسارح الدُّمى التي تنتصب على جوانب الرَّصيف، والكثير من المباهج الحارَّة التي تشدك للتعرف إليها.

ولجنا الشارع بشكل تلقائي، وما إن وضعنا أول أقدامنا فيه حتى تناهى إليَّ من بعيد صوت ما. أحسستُ لوهلة أن الصَّوت يناديني دون غيري. التفتُّ إلى مصدر الصَّوت، فإذا بسيِّدة تقدم أحد العروض الفنية الاستعراضيَّة، ومن أمامها ثمَّة أطفال يحتشدون بأفواه فاغرة وحدقات متسعة ومدهوشة وضاحكة.

بخطوات فضوليَّة دنوت برفقة الرَّجل بشكل أكبر من المشهد، فوجدنا السيِّدة تحمل جرَّة غريبة مزخرفة الألوان، ولا تتوقف عن خشْخَشَتِها بحركات رشيقة مرحة، وقد راحت تحزِّرُ الأطفال سائلة بشكل مُلحَّن: «ماذا في هذه الجرَّة؟! ماذا في هذه الجرَّة؟! ماذا في هذه الجرَّة يا أطفال؟!».

انتعشت جوارحي وأنا أطالع ردة فعل الأطفال. كانت أجوبتهم العفوية متباينة، لكن لم تكن أي من تلك الإجابات تحمل الإجابة التي أعرفها.

راحت السيِّدة تكرر سؤالها منتظرة أن يتوصل أحدهم إلى الإجابة التي تريدها، فابتسمتُ ورددت عليها في داخلي، وقلت بلهجة سبيستونيَّة: «فيها بنت حُلوة من أرض الأمنيات، معها أحلام ومسرَّة هذه الفتاة، هيَّا لنعش معها المغامرات!».

حدَّقتُ حينها إلى السيِّدة، فإذا بها تغمزني وتبتسم لي على نحو غريب، وكأنما سمعت جواب الطِّفل الموجود بداخلي، أو هكذا خُيِّل إليَّ من فرط الشعور!

على بُعد خطوات معدودة، كانت هناك بسطة ممتدة على أحد جوانب الشارع بطريقة جاذبة، تفترشها العديد من الدُّمى الملوَّنة المحشوَّة بالقطن.

بروح الطُّفولة دنوتُ من البسطة ورحت أقلب تلك الدمى خافق القلب وقد انساب إليَّ شعور طفولي وديع، حيث إنني رأيت العديد من الشخصيات الافتراضية التي عرفتها على الشاشة ذات زمان.

رأيتُ السُّلحفاة «فريد»، والبطة المشاغبة «دونالد داك»، والقطَّ «جارفيلد»، والكلب اللطيف «سنوبي» والكلب العجيب «كريبتو» والكلب الهجين «سكوبي دو» والفيل المحبوب «بيني»!

رأيتُ الدُّب صاحب المهمات الصَّعبة «يوجي» والديناصور الأرجواني المرح «بارني» والنِّمر المنقط «نمُّوش»، والدبَّ الأصفر «ويني»، والكتكوت صاحب الحكايات المفرحة «كاليميرو»، والفأر الشهير «ميكي ماوس»!

بالإضافة إلى دمية تشبه في شكلها حبيسة البرج «ربانزل»، ودمية أخرى كأنما تشبه «بيتر بان»، وطفلة جميلة تشبه «ماشا» وكائنات أخرى لم أستطع معرفتها أو الاستدلال على هويتها بشكل قطعيٍّ حاسم.

افتتنتُ بتلك الدمى كافتتان طفل يزور محل الألعاب للمرة الأولى في حياته، يتحسس الألعاب بأطراف أنامله، ويُمني نفسه بأن يشتريها كلَّها، كلَّها دون استثناء.

تنهدتُ تنهيدة نابت عن الكثير من المشاعر المكتومة في ثنايا الذَّاكرة الأولى، ثم ما لبثت أن قلت في نفسي مُتحسرًا:

يا ليتنا بقينا أطفالًا، نَظُنُّ أن الحياة بكل تعقيداتها ما هي إلا دمية محشوَّة بالقطن، نشعر بالأمان والمواساة حين نحتضنها، نبوح لها بكل الأشياء التي لا نستطيع البوح بها أمام أحد، ولا يشغل بالنا في نهاية اليوم سوى أن نُقبِّل عينيها قبل أن ننام!

تركنا بسطة الدُّمى وواصلنا السَّير. كانت خطواتنا في ذلك الحين خطوات متروِيَّة لا عجلة فيها، وكانت شفاهنا صامتة لا نشعر بحاجة إلى تحريكها، فالمشهد لم يكن بحاجة إلى الوصف، بقدر ما هو بحاجة إلى التأمل والاستمتاع.

بعد لحظات مررنا بدمية مُتحرِّكة على شكل قطٍّ، كانت تقف على جانب الطَّريق بطريقة لافتة جذابة. ضحك قلبي حينها على الفور، وقد عرفت

الشخصية دون أدنى جهد، شخصية واكبت جيلين مختلفين تحمل الشكل والصِّفات ذاتهما، ولكن تتباين في الأسماء والأغنيات، فمن يعرفها باسم «عبقور» سيردد في داخله: «صديقنا عبقور صديقنا الأفضل، ينشر السُّرور قلَّما يحزن، ينجح في العثور على الحلِّ الأمثل، يُسهِّل الأمور للعمل المتقن..».

ومن يعرفها باسم «دورايمون» سيقول في خاطره: «صهوتي خيالي، أجول في الأعالي، لوجهتي أيضًا باب، لعالم له ارتحالي واحتفالي مع الأصحاب..».

ما إن دنونا من المشهد بشكل أكبر حتى وجدته يطلب من الأطفال أن يكتبوا أمانيهم في ورقة، ثم يدسُّونها داخل جيبه السِّحريِّ الذي كان يجلب من خلاله الاختراعات الغريبة من المستقبل.

تردَّدتُ في أن أصطف في طابور الأطفال لكي أكتب أمنيتي، ولكن، سُرعان ما وجدت الرَّجل قد صار على الطَّابور بروح طفوليَّة مرحة، وطلب مني باسمًا أن أشاركه الأمر دونما تردد.

وقفتُ من خلفه على الفور. في تلك اللحظة لم أكن أعرف ما هي الأمنية التي سأكتبها على وجه التَّحديد، ولكن، ما إن أتى الدور عليَّ حتى وجدت نفسي أكتب:

يا ليت في حياتنا شخص ملهم مثل «دورايمون» يرسم السَّعادة دونما هوادة في صدورنا، ينقذنا من كلِّ ورطة نوقع فيها أنفسنا بطريقة سحرية، ويمكننا الاعتماد عليه في كلِّ وقت، يا ليتنا نعثر عليه، ويساعد «نوبي» الموجود بداخلنا.

كتبتُ هذه الكلمات في ورقة، ثم طويتها ودسستها في جيب الدمية المتحركة، قبل أن نواصل السَّير في الشارع ذاته.

بعد لحظات مررنا بمجموعة من الأولاد، كانوا يتحلَّقون حول صحن نحاسي كبير، يفتلون مجموعة من البلابل، ويجعلونها تتقاتل على أرض الحلبة في أجواء تزخر بالتَّنافسية.

توقفت خطواتنا لمتابعة النِّزال الحاصل بينهم، حدقت إلى ملامحهم، فإذا بالشرر يتطاير من حدقات عيونهم، والعرق يبلل صفحات وجوههم،

فخيِّل إليَّ حينها أن هناك صوتًا يهتف في مسامع كلِّ واحد فيهم، ويقول لهم مشجعًا: «اغزل قاوم لا تقف، إنك شيء مختلف».

وقبل أن نكمل الطَّريق، ألقيت نظرة أخيرة على البلابل المتوهِّجة في أرض الحلبة، فدارت بداخلي العديدُ من البرامج الكرتونيَّة التي كانت تُعنى بهذه اللعبة، فأخذت أدندن بيني وبين نفسي ألحان إحدى الأغنيات التي تقول: «في دنيا البلابل، نلعبُ، نتعبُ، ننازل، يُعلِّمنا الفوز التّواضع والخلق الكريم، لا نسعى للتصادم، لا يرضينا التَّخاصم، تُعلِّمنا الخسارة معنى الصَّبر والتَّصميم».

بعد لحظات من السَّير، وقعَتْ عيني على أحد الجدران الموجودة في الشارع، فقرأت كلمات مكتوبة ببخاخ للألوان، وقد كانت كلمات واضحة يستطيع العابر قراءتها بكل سهولة.

كانت الكلمات تقول:

*حين تواجهون قضيَّة فهمها صعب مستحيل*
*قفوا وفكروا مليًّا بحلٍّ ليس له مثيل.*

ابتسمتُ وقتها بشكل تلقائي، وللحظة من الزَّمن ومضت في ذهني مشاهد من برنامج «سلفستر وتويتي»، حينما كانت أحلام أحدهم تتمحور حول تناول كنارٍ أصفر وصغير، في إحدى الليالي التي يسودها الهدوء. لا أعرف إن استطاع تناوله بالفعل، إنما تنهدتُ ومضيتُ أواصل السَّير بعينين متحفزتين لدهشة جديدة.

حانت مني التفاتة إلى أحد الجدران، فظهرت أمامي عبارة أخرى، ولكنها هذه المرة كتِبَت باللون الأرجوانيِّ البارز وبطريقة لافتة للأنظار، وكأنما هي حكمة قديمة مُتداوَلة على مرِّ الأزمنة والعصور، كانت الحكمة تقول بكل بساطة:

*احذر ميقالو يا سوسان!*

خفق قلبي ضاحكًا، وقد تذكَّرتُ اللحن الموسيقيَّ لهذه العبارة على الفور. أعدت قراءة العبارة مرة ثانية وأحسستُ حينها بشعور مختلف، وكما تتغير نظرتنا نحو الأمور بطريقة نفسية متقلِّبة، بدت لي تلك العبارة أكثر عمقًا من ذي قبل، بطريقة لن يستوعبها إلا الأشخاص الذين يعيشون حياتهم على قيد الحذر المفرط من الأشياء، من الخيارات، من الأمكنة، من الوجوه، من تقلُّبات الزَّمان، وحتى من أنفسهم، وكأنما تشكلت كلُّ مخاوف هذه الحياة على هيئة «ميقالو» وصار القلب على شكل «سوسان»!

واصلنا السَّير في الشارع ذاته، وفي غضون دقائق معدودات، طالعتني عن يميني وعن يساري شاشات منصوبة للألعاب الإلكترونية، تمامًا كتلك الألعاب التي لا يمكنك أن تعتلي مقاعدها وتخوض غمارها، إلا إن وضعتَ فيها قطعة نقود معدنيَّة.

في الشاشة الأولى، كانت هناك مجموعة من الحروف تظهر على نحو تتابعي مبرمج.

في بادئ الأمر، اكتفيتُ بتقطيب جبيني ولم أفهم ما تعنيه هذه الحروف، ولكن مع تكرار العمليَّة المبرمَجة، ومع تركيب الحروف وجعلها في كلمة واحدة، تمكنت من قراءة اسم «ناروتو»!

على الرغم من أنني سمعت باسم هذا البرنامج من قبل، فإنه لم تنتبني أي مشاعر حوله، ذلك أنني لم أكن مولعًا بمشاهدته، إنما كنت أسمع الأولاد الذين يصغرونني في العمر، وهم يتناقلون أخباره وحوارات أبطاله المقاتلين.

انتقلت بعينيَّ إلى شاشة الألعاب التي تليها، فألفيت في تلك اللحظة كرة زرقاء تتدحرج بسرعة وتقفز في كلِّ زوايا الشاشة.

ولكن ما إن توقَّفَت الكُرة حتى تبين لي أنها ليست كرة في الأصل، إنما هو كائن أزرق يركض بسرعة، ويحصد النِّقاط في كلِّ زاوية يمرُّ عليها بجسده الرَّشيق، وللحظة من الزَّمن، بدا لي أن هذا الكائن يشبه «قنفوذ السَّريع سونيك»!

لم أستطع أن أتذكر شيئًا من تفاصيل هذا البرنامج الكرتونيِّ، وغالب الظَّن أنني كنت في الماضي أكتفي بشارته الغنائية دون مشاهدة حلقاته.

حاولت استجلاب كلمات الأغنية، ولكن لم أكن متأكدًا منها بشكل تام، فحولتُ بصري نحو شاشة الألعاب التي تليها.

هذه المرَّة، لم أكن بحاجة إلى التفكير حتى أعرف اللعبة القتالية التي كانت تبَث في الإعلان التَّرويجيِّ على الشاشة، فالأجساد الغريبة الملوَّنة، والكُرات الإشعاعيَّة المُدجَّجة التي كانت تنطلق منها في لمح البصر، كانت ترسم لوحة زاخرة بالذِّكريات الأنيسة، لوحة اسمها بمنتهى الوضوح «بيدا بول»!

خفق قلبي وتذكرت كيف كنا في الماضي نتعرف على فلسفة الألوان من خلال هذا البرنامج الكرتوني. استحضرتني في صفحات الذَّاكرة كلمات شارته الغنائيَّة الحماسيَّة التي كان الأبطال فيها يقولون:

«أنا أزرق علمني جدي حُب الأوطان، أنا أبيض أدفع عن أرضي شر العدوان، وأنا أسود، وأنا أصفر، يجمعنا الإيمان، وأنا حكيم، وأنا حمراء، كلُّنا فرسان...».

كنَّا في تلك الأيَّام نتحيَّر بماذا سنجيب عن سؤال الكبار المعهود عن لوننا المفضل، فنجيبهم بلون عشوائيٍّ دون أن يكون هناك إجابة مقنعة لاختيارنا له.

ولكن عندما كبرنا وتبلورت ذائقتنا بشكل أكبر، عرفنا أن رحلة البحث عن ألواننا المفضلة رحلة لا تنتهي، وأنه ليس المهم أن نعرف ما هي بقدر ما هو مهم أن نعرف كيف ندافع عنها أمام هذا العالم المتلوِّن، وكيف نحافظ على أصالتها داخل لوحة قلوبنا إلى نهاية الحكاية.

تنهَّدتُ تنهيدة اصطبغت بألوان الطُّفولة. أغمضت عيني للحظة، ثم ما لبثت أن حولت بصري نحو شاشة ألعاب جديدة.

في تلك اللحظة وجدت شخصية «سوبر ماريو» ماثلة أمامي، وبشكل فوريٍّ مبرمَج، رنَّ في مخيلتي الصَّوت الشهير ذاته الذي رنَّ في مسامعكم الآن.

تذكرتُ الأيَّام الوديعة التي كنا نلعب فيها الألعاب الإلكترونية المتوفرة، وقتها كانت لعبة «الأتاري» هي اللعبة التي تُهيمن على السَّاحة بكل امتياز.

كنَّا نلعب بصدر مفعم بالتَّحدي والتَّفاعل والحماس، ونشعر بنشوة الظَّفر المؤزر عند انتقالنا من مرحلة إلى أخرى، وكأننا استطعنا أن نتجاوز أصعب العقبات، وأن نختم أكبر التَّحديات الموجودة في هذا العالم!

ولكن عندما كبرنا وجربنا لعبة الحياة، عرفنا أن كلَّ مرحلة نمر بها تستنزف منَّا ألف شعور لا يفهمه أحد، وتجعلنا نتغير بطريقة لا نستوعبها ولا نستطيع شرحها لأحد.

تَنْحتُ منَّا شخصيات جديدة لم نتوقع أن نكون على هيئتها يومًا ما، وأنه قد يفنى عمر الإنسان بأكمله وهو يحاول تجاوز إحدى المراحل المُعقَّدة في حياته، ويخشى في قرارة نفسه أن تظلَّ تباريحها مرافقة له إلى نهاية العُمر.

* * *

# 22

مع تتابع الخطوات، تعاظم الشغف والتَّوق لاستكشاف أماكن جديدة في البلدة. تابعنا رحلة التِّجوال في ضواحي البلدة دون أن أترك زاوية تعتب على عينيَّ. مضيتُ أتنزَّه ببصري وبصيرتي الكرتونية باحثًا عن أي إشارات سبيستونيَّة في الأرجاء!

وفي غمار هذا، ذهبت برفقة الرَّجل إلى أحد الأمكنة الأثرية القديمة، التي يقصدها السُّياح حين يفدون من أماكن بعيدة، وظللتُ خلال تلك الفترة متوخيًا الحذر في كلِّ كلمة أتفوَّه بها معه، وكأنما راق لي دور السَّائح الغريب الذي لا يعرف شيئًا عن بلاد الرُّسوم المتحركة!

أما هو فقد ظل باسم الوجه منشرح الصَّدر والخاطر. كان هادئ القسمات، شحيح الكلمات، وكان كلامه مقتصرًا على الإضاءات المهمَّة، والتَّعقيب على ما أقوله من حين إلى آخر.

عبرنا العديد من الأزقة الضَّبابية التي كانت تزخر بصناديق القمامة والقطط السَّائبة، ولا يرافقنا في هذا سوى رائحة نتنة كانت تنبعث من كلِّ زاوية، كأنما هي رائحة تكدس النِّفايات أو جريان المياه الآسنة!

ظللنا على هذه السَّجيَّة فترة من الوقت، قبل أن نلجَ إلى مكان قديم بائس يتثاءب الخواء فيه، على عكس كلِّ الشوارع التي مررنا بها في هذه البلدة من قبل!

كان المكان يبعث على الكآبة في النَّفس، مُترعًا بأناس تشي هلاهيلهم ببؤس الحال وضنك المعيشة. ثمَّة جدران متصدِّعة آيلة للسقوط. ثمَّة خرائب في كلِّ زاوية تقع عليها عينك. ثمَّة وجوه مستسلمة بأجساد ضاوية مُتعَبة.

ثمَّة من يجلسون على جوانب الطَّريق بوجوه شاحبة، كأنما ينتظرون من ينتشلهم من أنياب العوز والبطالة، وأعباء الحياة التي يرزحون تحتها.

انتابني شعور لوهلة أنني صرت في بلدة أخرى لا تنتمي إلى البلدة التي دُهشت من معالمها في أول فترات التَّجول، وبينما كنت أتساءل عن سر هذا، قال الرَّجل موضِّحًا وقد شعَّ من عينيه وميض يقطر بالأسى:

- النَّاس هُنا تعيش في حالة يُرثى لها، هنا يعيش البائسون، البائسون ولا أحد غيرهم، وأظن أنه لا يعرف ماذا يعني البائسون سوى من كان بائسًا مثلهم.

نظرتُ حينها مجددًا إلى تفاصيل المكان، لم أوغل في التَّحليل والتَّفكير، فقد ذهبت بي كلمات الرَّجل بشكل بدَيهيٍّ إلى الرواية العالمية الشهيرة التي تحمل الاسم ذاته!

لا أعرف إلى أي حد تتشابه طبيعة هذا المكان بذلك المكان الذي قرأت عنه في رائعة الأدب العالمي، التي تحولت في وقت لاحق إلى فيلم سبيستونيٍّ، ولكن ما كان مؤكدًا بالنِّسبة إليَّ أن شعبية هذه القصة لم تأتِ من فراغ!

تحت تأثير هذه المعطيات التي صارت تتحرك في الجانب البائس من عقلي، وفي لحظة هذيان انفصلت فيها عن الواقع، تخيَّلت لوهلة أن جدران المكان تنطق بشجن غريب باسم «كوزيت» وتتهجى بهدوء بائس اسم «جان فالجان»، وتغنِّي بنبرة خفيَّة مُشبعة بالحزن والبؤس:

«حلمـتُ حلمًا في زمـــــان    ما كان عندها مستحيــــلًا
بحــبٍّ مـن دون أثمــــان    وللمغفرة ألف وسيلـــــة»

إبَّان هذا، غامت عيناي، وراحت الصور تتداعى في مخيلتي، وأخذت الحياة البائسة تصافحني بأقصى ما لديها من مرارة.

فتذكرتُ من خلالها الصِّراعات النَّفسيَّة القاهرة التي كانت تواجه أبطال هذا العمل الخالد!

تذكرتُ مشهد مقتل شباب الأبجدية..

تخيَّلته على وقع الألحان الحزينة التي كانت تصدح في تلك اللحظة المأسَاوية، الألحان التي كانت تبكي وتئن بصوت متهدِّج رقيق:

«ما مــن أغصان تبقى عالية　　بــردًا حتى آخر الزَّمـــــــان
ما من أحزان تبقى جارفـــة　　دومًا إلا ويغيبها النِّســيان».

سبرتُ غور هذه الكلمات كأنما أسمعها للمرة الأولى، ثم بعد لحظات وفجأة، استفقت من غمرة تفكيري على صوت طفل يبيع المياه، كان يستجدينا بصوت متوسِّل كي نشتري منه، وكانت عيناه تنطقان بحزن غير مفهوم، فاشترينا منه قنينتَي ماء، وبللنا بهما ريقنا الجاف، ثم مضينا نواصل رحلة الاستكشاف.

تجوَّلنا في بعض الطُّرقات العتيقة، وعبرنا العديد من الأزقة حتى استقر بنا المقام في أحد الشوارع المهجورة.

لم يكن شارعًا عريضًا كما هو النَّهج المتبَع في هندسة شوارع البلدة العامة، بيد أنه كان شارعًا طويلًا ممتدًّا يتلوى كلَّ حين كأفعى لا تعرف أين ستكون نهايتها، بالإضافة إلى أنه كان مرصوفًا بحصى مدبَّبة، لا تُريح أقدام العابرين من فوقها.

من خلال الحديث حول المكان وتاريخه، فهمتُ أن هذا الشارع يعجُّ بالعديد من القصص التي يكتنفها الغموض وتسكنها الريبة، ويطوف حولها العديد من التَّساؤلات، مما أثار الفضول والاهتمام بداخلي على نحو مُتلهِّف.

مضيتُ أطالع البيوت والدكاكين المهجورة من حولي. كان بعضها مبنيًّا بالقرميد الأحمر القديم، وكان بعضها الآخر مبنيًّا بطريقة بدائية تقليديَّة تتسم بالبساطة.

مررنا بعد لحظات ببيت متهالك متصدع الجدران. وقفت أمامه أطالعه بنظرات متفحِّصة. لم يلفت انتباهي حينها أي شيء غريب، اللهم إلا لوحة باهتة مهترئة مطموسة الكلمات، فأشار الرَّجل إلى أن هذا البيت المهجور يعود إلى رجل كان يزاول مهنة النِّجارة ذات زمان، ويواظب من خلال هذه المهنة على صناعة الدمى الخشبية، ولكن المسكين، ومن فرط وحدته التي كان يشعر بها، كان يتحدَّث مع تلك الدمى كأنما هي شخصيات حقيقية تعيش من حوله!

للوهلة الأولى من سماعي لموضوع الدمى الخشبية، تحفزت مشاعري وبدت القصة مألوفة لديَّ. بحثت في أرشيف الذَّاكرة، فومض في ذهني خيال النَّجار «بيبتو» ذلك النَّجار الذي صنع دمية خشبية، فتحولت بفعل سحريٍّ إلى ولد حقيقي يُدعى «بينوكيو» وقد صار يُعد الابن الشرعيَّ له!

لم أكن متأكدًا من هذا التَّصوُّر القصصي الذي خالج خواطري، إنما مضيتُ أتخيل شكل البيت من الداخل، جُدرانه وأثاثه وزواياه، وخطر لي بعد لحظات أن حالنا يشبه حال النَّجار أكثر من شبهنا بدميته الشهيرة ذائعة الصَّيت!

ذلك أنه ومن فرط الغربة التي نشعر بها، من الممكن أن نخوض أي مغامرة، أن نُراقص أي كائن، أن نتخيل أي قصة، أن نبتكر أي مشهد، أن نُصدِّق أي كذبة، أن نرسم أي لوحة، أن نستنطق أي وهم، أن نواعد أي خيال، في سبيل أن لا نشعر بالوحدة ولو للحظة واحدة في هذا العمر..

لم تتحوَّل هذه الأفكار الثرثارة إلى كلمات منطوقة، إنما ظلت عالقة في حنجرتي وسابحة في مخيلتي، واكتفيت بالصَّمت ومتابعة استكشاف المكان من كثب.

بعد دقائق من السَّير، استوقفتنا هذه المرة ساحة جانبية مهجورة، ساحة فسيحة يسودها الصَّمت بشكل رهيب، وتخلق بداخل النَّفس فزعًا من نوع غريب.

ثمَّة شمعدانات كانت تتوزع فيها بطريقة تفتقر للدقة والتَّنظيم، ولكن ما إن رأيتها متهالكة آيلة للسقوط، حتى رجحت أن مردَّ هذه العشوائية هو اختفاء العديد منها مع مرور الأيَّام، وخُيل إليَّ أن المكان برمته كان عامرًا بالصَّخب والحياة ذات وقت.

أخذتُ أتجول بين بقايا الشمعدانات وقطع مكسرة من القرميد وأقواس غير مكتملة، وفي غضون هذا كنت أرى أعقاب سجائر تُعَد ولا تُحصى، والعديد من الأنقاض المبهَمة التي لا تفسير لوجودها، والزَّخارف التي لا أعرف دلالتها، مما جعلني أستوضح من الرَّجل عن حقيقة المكان.

أوضح حينها يقول إن هذه السَّاحة هي آخر ما تبقى من مدرسة كانت تهتم بفنون القتال الشعبيِّ، وترفدُ المنطقة بالرجال الأقوياء الذين لا يشَق لهم غبار. مكتبة سُر مَن قرأ

أسندتُ يدي في تلك اللحظة على أحد الشمعدانات، وقد عادت بي الذَّاكرة إلى الوراء. مع قليل من الإيغال في التَّحليل والاستنتاج، خمَّنت أن تكون هذه المدرسة القتالية هي ذاتها مدرسة الحكمة والإصرار التي عرفتها في ريعان الطُّفولة، تلك المدرسة التي كان شعارها على الدوام: «كونغ فو، دنيا الأسرار كونغ فو، تركيز دائم باستمرار..».

ابتسمتُ في داخلي إزاء هذا، غير أننا لم نشأ المكوث وقتًا أطول في ساحة القتال التَّدريبية فعمدنا إلى الخروج ومواصلة المشوار، ولكن حانت مني التفاتة بشكل عفويٍّ إلى أحد الشمعدانات التي بقيت ثابتة بالكامل، فوقعتْ عيني حينها على كلمات مكتوبة بخط مُتناسق بارز، بارز جدًّا، وكأنما كتبها أحدهم منذ مدَّة قصيرة.

دقَّقتُ النَّظر إلى الكلمات على الفور، فإذا بها رسالة تقول: «لو حسبتم أن استضعاف العجوز والصَّغير، فيه قوَّة لكم فهذا خطأ كبير».

انساب بداخلي حينها شعور نبيل. فهمت فحوى الرِّسالة المكتوبة، وبشكل سبيستونيٍّ بدَيهيٍّ توقعت هوية الشخص الذي كتب هذه الكلمات، ولكن التَّساؤل الذي صار يلح عليَّ في تلك اللحظة: ما هو السَّبب الذي يجعله يجيء إلى مكان كهذا بعد مدة طويلة من الزَّمن؟!

دارت بداخلي أفكار عديدة حول هذا الأمر، وخلال هذا، مضيتُ أستحضر بعض المشاهد التي ما زلت أذكرها من وحي هذا المسلسل.

تخيَّلت للحظة أنني أرتدي بزَّة قتال زرقاء اللون، وأضع عصبة بيضاء على رأسي، أقف على رؤوس أصابعي استعدادًا لتنفيذ حركة أكروباتية، وتوجيه ركلة بباطن قدمي لخصم غير مرئي، وتمنَّيتُ في الوقت ذاته لو أن معي قلمًا لأكتب تحت العبارة ردًّا على الرِّسالة، من خلال رسالة أخرى أقول فيها:

أخبروا المقاتل النَّبيل أننا كبرنا واتَّسعت ساحة القتال أمام عيوننا، وصرنا نحاول الدفاع عن عظمة أفكارنا بكل ما أوتينا من عناد واستبسال، نحاول أن ننعتق من كلِّ الأشياء التي لا تليق بقدسية قلوبنا، ولكن كلَّما تقدمت بنا الأيَّام ومررنا بمنعطفات جديدة، تكالبتْ علينا لكمات الحياة، وتأكد لنا شيئًا فشيئًا أننا نعيش في زمن غادرٍ ليس له ضمانات، حيث لا أحد يُقاتل فيه بشهامة ووضوح، ولا شيء ينزف فيه سوى قلوبنا النَّبيلة!

بهذه المشاعر التي تحاول الاحتفاظ بما تبقى من نُبل في صناديق النُّفوس الصَّادقة، مضيتُ برفقة الرَّجل في الشارع ذاته الزَّاخر بالقصص القديمة والأسرار غير المتوقَّعة.

بعد مرور وقت من التِّجوال، وصلت بنا الخطوات أمام بيت يبعث في نفس الرَّائي الكثير من الرَّوع والريبة. جدران متشحمة كوجه جندي في حرب ضروس. نوافذ مهشَّمة مُشرعة تفتح ذراعيها للمجهول. يُحيطه خردوات مبهمة الغرض، وطلاسم ليس لها تأويل واضح، وكأنما تسكنه العفاريت والأشباح!

في جو مضطرب مخضَّب بالشكوك والغموض، وفيما كنت لا أنفكُّ أحدِّق إلى كومات الخردة المتكدِّسة أمام ناظري، لمحت جرذًا كبيرًا يتجول بين الأشياء كأنما لا شيء يعنيه، فأشحت النَّظر على الفور.

انتقلتُ بنظري واهتمامي صوب الرَّجل الذي راح يقول مُعرِّفًا بالمكان، وقد لاحت في صفحة وجهه أمارات النُّفور:

- في هذا المنزل المهجور، كانت تقطن إحدى المشعوذات. كان النَّاس يقصدونها لقضاء حوائجهم، ويقال إنها فقدت عقلها قبل وفاتها بسبب روتين حياتها المأسَاوي الكئيب.

هززتُ رأسي على مضض، وقد تضاعف الرَّوع في حُجرات قلبي!

ولكن هذا لم يمنعني من التَّحديق إلى عتمة الشبابيك والتَّفكير في قصَّة هذه المشعوذة، وخلال هذا، استدرك الرَّجل وقد تبدَّلت ملامحه الصَّارمة وحلَّ مكانها ضحك فُجائيٌّ، قال:

- كان النَّاس في الحيِّ يقولون إنها تشتم رائحة الفئران من مسافة بعيدة، وإنه لم يفلح أي فأر في التَّسلل إلى بيتها دون أن تتمكن من الإيقاع به واصطياده.

انفرجت شفاهي حينها وضحكت تبعًا لضحكات الرَّجل التي انبعثت من حنجرته. مرت وهلة من التَّفكير، أحسستُ بعدها أنني اهتديت إلى هويَّة المشعوذة صاحبة البيت المهجور.

قلت لنفسي:

لعلَّها هي ذاتها السَّاحرة الشمطاء التي كانت تُولول ساخطة متذمرة في كلِّ مساء: «حياة السَّاحرات مملة رتيبة، تتكرر فيها الأشياء..».

ابتسمتُ ابتسامة شيطانيَّة على إثر هذا، ومضيتُ أستحضر شكل تلك السَّاحرة وهي تزمجر على عتبات منزلها وتتساءل بنبرة تحقيقية وصوت مروع غليظ: «من هناك؟! من دخل إلى منزلي؟!».

ثم ما تلبث أن تشرع في استنطاق الجمادات والأواني المنزلية من حولها، في سبيل أن تخبرها عن مكان فأر تسلل خلسة إلى منزلها، وقد راحت وقتها ترغي وتزبد، وتتوعَّد وتُهدِّد قائلة: «أحدهم بالدار، ولن يخرج أبدًا ولو طار». وما إن تُمسك به حتى تقرر معاقبته على هذا الفعل الشائن، قبل أن تطرده من بيتها.

ولعلَّ هذا ما علينا فعله مع الأشخاص العابرين الذين يحاولون التَّسلل إلى أروقة قلوبنا، دون أن يحافظوا على قدسية المكان وحرمته. علينا التَّأكد من إغلاق كلِّ المنافذ الموصلة إلى أعماقنا، فما أكثر الفئران التي تحاول الانسلال إليها من خلال الثقوب الموجودة في صدورنا المُنهَكة.

أشحتُ النَّظر عن عتمة البيت المسكون وحاولت أن لا أنغمس في المشهد بشكل أعمق، وما هي سوى لحظات حتى تابعنا الخطوات ومضينا نكمل الاستكشاف.

مع مرور الوقت، كنا قد أخذنا قسطًا من الرَّاحة على أحد المقاعد الواطئة بجانب الطَّريق، ثم بعدها مررنا بسلسلة من البيوت القديمة.

لم يكن في تلك البيوت ما يثير الاهتمام، إلى أن وصلنا إلى بيت ذي فناء واسع، مُترع بالنَّباتات الخضراء التي ما تزال يانعة رغم يباس الأجواء من حولها، وبينما كنت أحدق إلى تفاصيل البيت، قال الرَّجل إن النَّاس تخشى الاقتراب من هذا البيت لكونه بيتًا مشبوهًا على حد وصفه.

قطبتُ عند ذلك جبيني متسائلًا عن السَّبب، فقال إن هناك العديد من الإشاعات المتباينة التي تدور حول حقيقة هذا البيت، ولا يعرف ما هو الصَّحيح منها!

من بين هذه الإشاعات، قال إن هناك طفلًا فضائيًّا سكن هذا المنزل منذ سنوات وأُرسِل لتدمير البلدة.

وهناك قول آخر إن هناك إشعاعات غريبة كانت تنبعث من البيت في أوقات متأخرة من الليل.

وهناك قول إن صاحبة المنزل وجدت في منزلها طفلة قادمة من كوكب آخر، فاعتنت بها مُدَّة من الزَّمن كما لو كانت ابنتها أو أختها.

بدت لي الرواية الأخيرة منطقيَّة أكثر من غيرها، وتنسجم كلَّ الانسجام مع الأجواء السبيستونيَّة التي أعرفها، وافترضت بشكل منطقيٍّ أن تكون صاحبة هذا المنزل هي «فرح» وأن الطِّفلة الفضائيَّة المقصودة هي «مروة»!

أخذت أتجوَّل في حديقة المنزل، وقد طافت بي بعض المشاهد الحنونة والدافئة من وحي هذا المسلسل.

تذكرتُ كيف خرجت «ميمي» من شاشة التِّلفاز إثر حدوث صاعقة كهربائية ليس لها تفسير، وكيف غمرتها «فرح» بالعطف والحنان منذ اللحظة الأولى التي وصلت فيها إلى بيتها، وكيف كرَّست وقتها من أجل الاعتناء بها ريثما تستطيع أن تعيدها إلى أهلها.

على الرغم من أنها كانت صغيرة في العمر آنذاك، فإنها ومن فرط العاطفة التي كانت تعتري قلبها الرَّؤوم، كان لسان أفعالها يقول في كلِّ حلقة من الحلقات: «عيشي يا أختي لن تَشقي ما بين يدي، عيشي جوا عينيَّ».

تذكرتُ الجهاز السِّحريَّ الذي يُشبه علبة التَّجميل، وكيف كان يصدر صوتًا حينما تكون الطِّفلة في مأزق!

ربَّما كان العديد منَّا يتمنى أن يكون لديه هكذا جهاز يوصله بالآخرين عند لحظات الحزن والانتكاس، ولا سيما من كان منطويًا على أحزانه، ويتمنى أن يشعر الآخرون بوجعه دون أن يخبرهم بذلك!

تذكرتُ أيضًا كيف أنه وما إن وصل خبر «ميمي» إلى وسائل الإعلام، حتى احتشد الصحفيون والمراسلون أمام مكان إقامتها، من أجل تغطية الحدث ونيل سبق صحفيٍّ، وكيف كانت تتحايل فرح عليهم برفقة ابنة خالتها «نجوى» وبعض الأصدقاء المقربين.

أما عن بقيَّة الأحداث، فهي متباينة الأفكار والمشاعر، ولكن، قد يُختصَر المسلسل كلُّه في مشهد حقيقي واحد؛ من منَّا لم يتأثر بمشهد الفراق الصَّعب المؤثر، واللحظة الدامعة التي ودَّعت فيها «فرح» «ميمي»، وكأنها تفارق قطعة من روحها، ولا سيما بعد أن استطاعت الطِّفلة أن تتهجَّى حروف اسمها بلغة الوداع!

لا ريب أن الكلمات التي تقال بصيغة الوداع لا يُمحى أثرها من الفؤاد، ولا يستوعب مرارتها سوى من أحس باهتزاز الأبجدية الدافئة في صدره، يظل أصحابها بانتظار كلمة واحدة على شكل «لقاء»، ولهذا أعتقد أن «فرح» لم تستطع العيش دون «ميمي» كلَّ هذه المدَّة من الزَّمن.

لا أعرف أين تكون في هذه اللحظة، ولكن أرجح أنها بعد أن كبرت في العمر لم يعد بإمكانها العيش في مكان وقلبها في مكان آخر، وأنها اختارت أن تهاجر إلى كوكب «ميمي» حيث بإمكانها أن تناغي «ميمي» من جديد، أن تسمع صوتها الطُّفولي الوديع النَّقيَّ، صوتها الذي نضج وانتقل من مرحلة التَّهجئة إلى مرحلة المُناجاة، وصار يقول من رحم الاحتياج: «ضميني يا أختي ضمِّي».

هذا كان ما يجول في خاطري، ولا سيما بعد أن علمت من الرَّجل أن ساكنة البيت قد هجرته، واختارت العيش في منطقة أخرى كما يُشاع بين سكان البلدة.

واصلنا استكشاف ما تبقى من الشارع القديم ذاته، وبعد فترة من الوقت، وفجأة، انفلت رباط حذائي فانحنيت لأعقد عراه. ما إن نهضت في تلك اللحظة

حتى تبدَّى لي في البعيد أن هناك طريقًا جانبيًّا يظهر في آخره بوابة عريضة صَدِئة، ولا أثر لأي شواخص تدل على هوية المكان.

شيء ما شدني نحو تلك البوابة المغلقة. منذ مدة طويلة لم تَعد تشدنا الأبواب المفتوحة على مصراعيها، بقدر ما تغرينا الأبواب الموصدة التي تختبئ خلفها حكايات ليست متاحة لجميع من يمر من أمامها.

فيما كانت السَّكينة المريبة تبسطُ هيمنتها على أجواء هذا الطَّريق الجانبيِّ، وجدت أقدامي تقودني شيئًا فشيئًا نحو تلك البوابة المغلقة، وقد تفهَّم الرَّجل الفضول الذي يعتريني، وصار يتبع خطواتي وقد راح يقول بصوت أجش:

- إن هذا المكان من أقدم الأمكنة الموجودة في البلدة.

تعاظم الفضول في صدري، وبينما كنت أنتظره ليكمل حديثه، مضينا نواصل ما تبقى من أمتار نحو البوابة. طال انتظاري للرجل ولكنه لم يضف أي عبارة، فاستوضحت منه عن طبيعة المكان خلف البوابة.

تمتمَ حينها يخاطب نفسه وقد ضيَّق عينيه، قبل أن يوجه كلماته لي على نحو متردد مستفز، كأنما هو ليس متأكدًا من روايته التي سيقولها، قال:

- في الحكايات المتوارثة التي سمعتها من أهل المنطقة، كان في هذا المكان حارة قديمة، حارة تسكنها شخصيات على شكل دمى ناطقة.

- دمى ناطقة؟! وماذا كانت تفعل هذه الدمى؟!

- كانت تَلُمُّ أطفال الحي.

- تَلُمُّهم؟! كيف؟! ولماذا؟!

- يُقال إنها كانت تقدِّم المعلومات لهم في قالب مشوِّق، تُحرِّك عقولهم، وتجعلهم يتبادلون النَّصائح والمعلومات الثقافية والعلمية فيما بينهم، وتزرع فيهم أروع القيم الإنسانيَّة السَّامية.

إن هذا الوصف أثار حماستي وخلق لدي رغبة عارمة في اقتحام البوابة، والتَّعرف على تفاصيل المكان من كثب.

هممتُ بهذا بالفعل، ولكنني استدركت وسألتُ عن إمكانية الدخول إلى المكان، فأوضح يقول:

- للأسف لا، لقد أُغلِقت هذه المنطقة من قبل السُّلطات المسؤولة عن البلدة، وفي الحقيقة لا أعرف السَّبب الحقيقي وراء إغلاقها، وأعتقد أن أغلبية النَّاس لا يعرفون هذا مثلي.

هززتُ رأسي متفهمًا...

ظللتُ واقفًا في مكاني، ورحت من خلال البوابة أطالع المنطقة الغارقة في عزلتها الكئيبة، وللحظة، تبادر إلى خاطري أنني قد أعرف هوية هذه المنطقة، فحككت ذاكرتي ونبشت حارات طفولتي.

لم أستغرق وقتًا طويلًا في هذا، فسُرعان ما خفق قلبي وخطر لي أن تكون هذه الحارة العتيقة هي حارة «سمسم»!

انتشيتُ في نفسي جراء هذا الاستنتاج، إلا أنني لم أفرح به طويلًا، فسُرعان ما تذكرت أن هذا البرنامج قد ظهر في النُّسخة السبيستونيَّة بشكل متطور حديث، على عكس الشكل البدائي الذي يتبدى أمامي في هذه اللحظة، وهذا ما يخفف من نسبة دقَّة الاستنتاج الذي توصَّلت إليه.

على الرغم من هذا، بقيتُ مُتسمِّرًا في مكاني. طالعتُ المكان بنظرات حانية وقلب خفاق رقيق، وفي لحظة واحدة، كذَّبت كلَّ المعطيات، وتمسكت بتلابيب الذِّكرى وتركت لغة الحاضر، وأحسست أنني أقف بالفعل أمام بوابة تلك الحارة التي عرفتها في طفولتي.

صدحت موسيقى البرنامج في مسامع ذاكرتي، فاعتراني ألف إحساس يقطر بالحنين والعطف والسَّلام النَّفسي. ربضت النُّوستالجيا على صدري، ولم أستطع الفكاك منها، فأجهشت ذاكرتي بالبكاء. ترقرق دمع شفيف في محاجري، تنهدت وقلت لنفسي:

يا ليتنا بقينا صغارًا، نظُن أننا نمتلك الكلمة السِّريَّة لأصعب الأقفال، نعتقد أن أبواب الحياة ستفتحُ لنا بمجرد أن نقول بسريرة نقية وصوت بريء: «افتح يا سمسم»، ولا نكون وقتها بحاجة إلى أن نُعرِّف عن أنفسنا سوى بأن نقول: «نحن الأطفال»، نحن الأطفال ولا شيء آخر.

* * *

# 23

عند مفترق للطرق، وفي نهاية الشوارع الأثريَّة التي كنا نجيل الخطوات فيها، وعلى نحو مفاجئ، تراءى من بين الأبنية أمام عيوننا تمثال شامخ مهيب.

بخطواتٍ فضولية وحدقات مترقبة، دنونا من التِّمثال وقد شرعت ملامحه بالاكتمال من بين العمائر التي تحيط به وتطوقه. كنت أتشوَّف كيف سيكون شكله بالكامل، وتساءلتُ في نفسي عن أسباب وجوده!

ما إن وصلنا إليه وشمخ أمامنا بكل تفاصيله البديعة المتقنة، حتى مضيتُ مشرئب العنق أتأمله، وقد صرتُ أضرب الأخماس بالأسداس بشأن هويَّة صاحبه، وقبل أن أنبس بكلمة متسائلة واحدة، وجدت الرَّجل يوضح من تلقاء نفسه أن هذا التِّمثال يرمز لشيء عظيم مُقدَّس لدى سكان المدينة، يرمز للحرية والعدالة والضَّمير والكثير من الأمور الإنسانيَّة السَّامية.

شدَّني الفضول بشكل أكبر، ولا سيما أن التِّمثال لم يكن يحمل ملامح جنرال حربيٍّ، أو مسؤول وطنيٍّ، أو حتى بطل قوميٍّ كما جرت العادة في حضارات الشعوب وتقاليدها، بل كان يحمل ملامح طفلة في منتهى البراءة والنَّقاء، أحسب أن لا علاقة لها بالسِّياسة لا من قريب ولا من بعيد، مما دفعني أن أستوضح منه عن الأمر!

عند ذلك، عقد الرَّجل يديه وراء ظهره، وراح يطالع التِّمثال وقد اكتسبَ وجهه تعبيرًا تراجيديًّا غريبًا لم أره من قبل على وجهه.

مرَّت فترة من الصَّمت، قبل أن يقول بنبرة مترعة بالأسف إن هذا التِّمثال يعود إلى طفلة طيبة كانت تعيش في هذه البلدة.

وكانت تمتهِنُ بيع الورود والكبريت، ولكن للأسف الشديد وحسب قوله، فإنه عُثر عليها جثة متجمدة هامدة في أحد الأزقة ذات عاصفة ثلجية مشهودة.

هُنا، استفاق حزن طفولي عتيق في صدري. تحركت مشاعر راكدة فيه منذ زمن، وتذكرت قصة بائعة الكبريت التي تربينا عليها وزرعت فينا الحزن والشجن في وقت مبكر من هذه الحياة.

تلك الطِّفلة التي كان يُقال عنها إنها: «أحلى من قمر يتدلى، في سماء سوداء الطَّلَّة» وكانت تجوب الشوارع بصوتها المتهدج الحزين، ووجهها الذَّابل الشاحب، وتعاستها الطَّافحة من عينيها الجميلتين.

لا يمكن لأحد من أبناء جيلي أن ينكر أثر هذه القصة في طيات وجدانه، إذ ما زالت أغنية بائعة الكبريت تحرك فينا المشاعر الجياشة ذاتها، كلَّما سمعناها انتفض وأجهش شيء ما في أعماقنا، تتجدد اللوعة كأنما نسمع القصة للمرة الأولى، نشعر بمشاعر عصيَّة على التَّفسير والاحتواء، وكأن أحزان العمر ابتدأت بطريقة خفيَّة، من اللحظة التي سمعنا فيها العبارة المأسَاوية التي تقول: «هدأ الصَّوت، وساد الصَّمت، وغَفَتْ بائعة الكبريت»!

لست أدري، ولكن ربَّما لأننا أدركنا أن هناك جانبًا خفيًّا من حياتنا، يشبه مأساة تلك الطِّفلة المسكينة، وأن علينا أن نواجه عواصف الحياة بمفردنا دون مساعدة أحد، وأن نجابه زوابع الليالي دون عون أي شخص، وأن نقاوم لحظات الصَّقيع كلَّها بعود ثقاب واحد!

خلال هذه المشاعر التي اجتاحتني في تلك الآونة، كنت أستمع للرجل وهو يروي لي كيف شُيِّد التِّمثال وجعله نصبًا تذكاريًّا تكريمًا لروح الطِّفلة الخالدة.

ما إن فرغ من كلماته حتى تبادلنا نظرة أسى صامتة، ثم أرجعت النَّظر إلى التِّمثال الذي كان يطالعني وقد كان شكله في تلك اللحظة يوحي بالبؤس العارم، وتشي تفاصيله بالحزن الشديد، بل أحسستُ لوهلة أنه يسخر من هذا التَّكريم المختلَق، ويقول بصوت معاتِب:

- لا قيمة لتكريم أشخاص رحلوا ولم يروا شيئًا من هذا التَّكريم في حياتهم، ما نفع أن تُرسل رسائل الحبِّ إليهم بعد أن أوصدت الحياة أبواب بريدهم!

لعمري، إن وردة توضع بيد شخص في حياته، أحلى من ألف باقة تُلقى على قبره، ولا يستطيع أن يستنشق رائحة الحب في أريجها.

بهذه المشاعر الملتاعة مضينا نواصل الطَّريق وقد أحسستُ فجأة بوخزة غريبة في صدري. إذ تخيَّلت أن ثمَّة ملايين الأطفال الذين يموتون بصمت فظيع دون أن يشعر بهم أحد، ودون أن تذيع خبر موتهم أي محطة، ودون أن يذرف النَّاس دمعة واحدة على رحيلهم المفجع!

ماتوا من فرط الحروب، والجوع، والظلم، والفقر، والزَّلازل، والعذاب النَّفسي، والتَّشرد العاطفيِّ، والتَّسول الماديِّ، في حين كان من أبسط حقوقهم أن ينعموا بحياة بسيطة هانئة، أن ينعموا بطفولة نقية سليمة، ويعيشوا لحظاتهم الأولى كما يعيشها بقية الأطفال في هذا العالم!

اكتسحتني في تلك اللحظة العديد من المشاهد المأسَاوية، دارت في مخيلتي العديد من الأفكار المُشفقة، ولم ينتزعني من هذه الأجواء التي انغمستُ فيها إلا انبعاث صوت مفاجئ من مكان ما في أحد الأزقة.

أصغيت للصوت، فتناهى إليَّ عزف شجيٌّ يسلب الألباب ببساطته، ويأسر الأفئدة برقته.

امتلأتُ بالفضول لمعرفة شكل الشخص الذي ينبعث منه هذه اللحظة، فخطوت بخطوات مستقلة عن خطوات الرَّجل.

لاحت مني نظرة مُفتِّشة، فإذا بشيخ يُمسك عودًا ويستند بظهره على أحد الجدران القديمة. يندمج بالعزف كأنما هو كائن موسيقيٌّ منذ الأزل، ظللتُ للحظة أستمع لعزفه إلى أن أشار الرَّجل أن هذا الشيخ دأب على الجلوس في هذا الرَّصيف منذ سنوات، وبحسب قوله فإنه اعتاد التَّسول بأنغام عوده، وهو لا يكف عن غناء الأغاني الشعبية القديمة التي تمثل تراث وفلكلور أهل البلدة.

قبل أن يردف قائلًا:

- المسكين، أعتقد أنه يعاني عطبًا في الذَّاكرة.

- ماذا تقصد؟!

- إنه يبكي على زمن عاش فيه على البساطة، وكانت تغمره السَّعادة على أهون الأسباب، إنه يحنُّ لأشياء لم تعد موجودة في حياته الآن.

عند ذلك، تفرست مليًّا في هيئة الشيخ، فوجدته بلحية رمادية كثَّة، كان شاحب الوجه، مأفون العينين بفعل التَّغَضُّنات التي أذابت قسمات وجهه.

كان يحتضن عُوده كمن يحتضن آخر ما تبقى له من أصدقائه الذين يعرفون أحزانه الدفينة، وما زال بمقدوره أن يبوح له بمكنونات صدره السِّرية التي لا يستوعبها أحد من حوله في هذا العالم.

خلال هذا، وعلى حين غرَّة، شرع الشيخ يعزف مقطوعة جديدة.

شنَّفت أذنيَّ، فوجدت أوتار العود الذي يُدندن به قد خطفتني وسحبتني إليه بخُطوات تشبه خُطوات الرَّجل الذي يسير في نومه دون أن يستطيع التَّحكم بنفسه.

وفي لمح البصر، غرقت في رحاب الحنين حين سمعتُ صوت الشيخ الرَّخيم المترف بالأصالة، إذ كان يردد بنبرة جريحة كلمات تقول:

*مرَّة في حيِّنا، زارنا فيلٌ ظَريف، برفقٍ*

*قال لنا، ليس هنالك ما يُخيف،*

*نحن الخيرُ بطبعنا لا نَرضى ظُلم الضَّعيف،*

*لا يَحيا بيننا إلا الإنسانُ الشَّريف...*

خفق قلبي بطريقة استثنائيَّة على الفور، إذ انسابت هذه الكلمات مع المسامات السَّاكنة داخل روحي، وصارت تتمازج مع رائحة الحجر العتيق من حولنا، وراح صداها يتماوج في الأزقَة التي تحاوطنا. اهتزت أعطافي وجاشت مشاعري وأحسستُ بألف إحساس وأكثر.

وما إن لمحت الدمع يترقرق في محاجر الشيخ حتى خشعت جوارحي بشكل عام، وانتابني شعور عميق بأنه يبكي بلوعة وكمد على زمن نقيٍّ صادق، زمن كان مُفعمًا بالدفء والضِّياء والوفاء والأمان، زمن كانت فيه ضحكات الطُّفولة لا تتوقف، وكانت العائلة تلتم حول شاشة واحدة، ورائحة الحياة تسري كعطر أصيل لا يريد أن ينفد من قارورة الأيَّام!

ذات زمان كنا نردد أغنية «بابار فيل» بصدر تسكنه أطياف السَّلام والأحلام، وكانت الحياة تُطبطب على قلوبنا على نحو حنون، وتربت على أكتافنا بشكل مُطمئن، وتهمس في مسامعنا أنه «ليس هنالك ما يخيف»، ولكن عندما كبرنا اكتشفنا أنها كانت مجرد حكاية عطوفة تُسرد على مسامعنا قبل النَّوم، ولا تتعدى أن تكون أكثر من ذلك، فنحن الذين عاش بيننا ألف ظالم وظالم، وتجرعنا الخوف في كلِّ ليلة، ولم يزرنا في بؤسنا أي قلب لطيف!

ولكن، وعلى الرغم من كلِّ هذا، ما زلنا نحاول مقاومة السَّواد الذي يطوِّق قلوبنا، والظلم الذي يلفُّ الكون لفًّا بطريقة فظيعة غريبة. أخفينا الطِّفل الموجود بداخلنا وتركناه في دهاليز أعماقنا الخفيَّة، وصرنا نتحفظ على إظهاره في أي وقت، وفي حضرة أي قلب، وفي زحام أي مكان، فجميع الأشياء من حولنا باتت تحاول تلويث نقائه، وجعله عملاقًا خبيثًا عنوة عنه، وهي لا تستوعب أنه ما يزال ينبض بداخلنا، ويقفز هاتفًا بكل مرح: «عالم الأطفال عالم جميل».

* * *

# 24

قبل عشرين عامًا ونيف، كان شعار إحدى العصابات الكرتونية الشهيرة يقول: «نحن نُحب كلَّ أطفال العالم، ونزرع الورود في كلِّ مكان، نكره الحقد ونزرع المحبَّة..».

لم نكن وقتها ننشغل بمرامي الكلمات وجوهرها، بقدر انشغالنا بالطَّريقة الدراميَّة المثيرة التي كنا نشاهدها من عصابة الرِّداء الأبيض، وعبارة «انضموا... انضموا» التي كانت تنطلق على لسان قطهم في نهاية أسطوانتهم المشروخة!

ولكن عندما كبرنا واتَّسعت مداركنا، نظرنا إلى المشهد من زاوية مختلفة، وأدركنا أن ثمَّة ألف سواد يختبئ تحت عباءة الكلمات الجميلة، وفي ثياب الذين يتنكَّرون بالبياض، ويدعوننا للانضمام إليهم!

لهذا، لم يعد من السَّهل أن نقع في شرك الشعارات الرَّنانة والكلمات المعسولة، لم نعد نكترث لقاموس المفردات الرَّائعة، بقدر اكتراثنا لأبجدية الأفعال الحقيقية، الأفعال التي تزرع ورود الحب في صدورنا، ونستطيع استنشاق عبير الحياة من خلالها.

لا أعرف لماذا خطرت ببالي هذه الأفكار في أثناء ما كنت أتناول الغداء بمعيَّة الرَّجل اللطيف الكريم في أحد المطاعم السَّريعة، الرَّجل الذي أخذ بيدي منذ الوهلة الأولى التي رسوت بها على شاطئ هذه البلدة، ولا سيما بعد أن

صار يردد بعض العبارات الرَّنانة عن الإيثار والصَّداقة والتَّضحية والإخلاص، بالإضافة إلى عرضه الحاتميِّ بأن أذهب معه إلى بيته لأنال قسطًا من الرَّاحة.

على الرغم من أن نبرات صوته لم تكن تنطوي على نيَّة سيئة، فإنني أحسستُ بشيء يناقض الارتياح.

فتعاظم السُّؤال في نفسي عن سرِّ الحفاوة والتَّرحيب والمغالاة في السَّخاء.

حاولت استشفاف ما يضمره الرَّجل ببعض الأسئلة الفضولية، إلا أن أجوبته المراوغة غير المباشرة لم تجعلني أقطع الشك في اليقين، فأركن إليه بالطَّمأنينة، لهذا، حاولت التَّملُّص من مرافقته والتَّذرع بالعديد من الأسباب الواهية.

وقبل أن أنجح في التَّفوُّق على إلحاحه والانتصار على عناده، قال إنه مضطر إلى الانصراف لقضاء حاجة ضرورية لم يُفصح عنها، على أن يعود إلى المكان بعد مدة قصيرة، ونستأنف بعدها النِّقاش ورحلة الاستكشاف، فهززتُ رأسي باسمًا على مضض.

بقيتُ متشكِّكًا في الغاية المضمرة من كلِّ هذا، وتساءلت في قرارة نفسي عن مدى قدرتي على إكمال التَّجول في البلدة بمفردي، وكيف سأدبر شؤوني بعد أن يُرخي الليل سدوله، ويؤوب النَّاس إلى بيوتهم؟! وكيف سأصل إلى المدينة والمكان الختامي في سبيل إتمام المهمة والعودة إلى كوكب الأرض؟!

على الرغم من كلِّ هذه المعطيات المقلقة، فإنني أوقفت آلات التَّحليل التي تعمل داخل عقلي، وأرجأت التَّفكير في الأمر إلى أن يعود الرَّجل من مشواره الذي ذهب إليه.

وخلال هذا، وفيما كنت أغزل التَّكهُّنات وخيوط الافتراضات، وبينما كنت ما أزال قريبًا من المكان الذي تركني الرَّجل فيه، مضيتُ أتمشى بخطوات حائرة هائمة، إلى أن استقرَّ بي المقام أمام كشك ثقافيٍّ، كانت تمتدُّ من أمامه بسطة مفروشة بالكتب المتنوعة.

طالَعني وقتها العديد من العناوين الغريبة، فشرعت أقرؤها بعينين متمعِّنتين:

كتاب سؤال وجواب يحمل اسم «اسألوا لبيبة». كتاب عن كيفية التَّعامل مع الأشباح يحمل عنوان «كاسبر». السِّيرة الذَّاتية للراهب «إيكوسان». كتاب للتنمية البشرية عنوانه «لُبنى السَّريعة». قصص بوليسية متعددة بعنوان «مغامرات المفتش فابر». كتاب عن كيفية الاعتناء بالقطط المنزلية عنوانه «ما سر هذا القط؟!». رواية فانتازيَّة بعنوان «كوكب الباندا». كتاب عن الطَّقس والمناخ اسمه «بداية غيمة»، وكتاب عن القطارات ووسائل النَّقل يحمل اسم «توماس والأصدقاء»، بالإضافة إلى كتاب بطابع فضائيٍّ، عنوانه بالخط العريض «فولترون»!

وفيما تزال الدهشة تسري في جوانحي، رأيت على جهة أخرى من البسطة قصصًا لليافعين بأحجام صغيرة تصلح أن توضع في الجيب، مضيتُ ألتقط بعض العناوين التي تقع عليها عيني بشكل تتابعي:

«الليدي أوسكار»، «الحسناء والوحش»، «مغامرات نودي» «مغامرات سبانك»، «مغامرات نونتان»، «مغامرات طمطم»، «طمطوم والروضة الخضراء»، «مغامرات سنبل»، «مغامرات كعبول وعبقرينو»، «مغامرات لخبوط»، «سوار العسل»، «مغامرات لولو وطبوش»، «مغامرات بسيط»، «سوسن الزّهرة الجميلة»، «حماة الكواكب»، «الشجعان الثلاثة»، «البجعات البريَّة»، «سيف الصَّاعقة»، «سيف النَّار»، «الضَّربة المزدوجة»، «الفتى النَّبيل»، «اللعبة الكبرى»، «يوليانا»، «هيفي كروكيت»، «الرجل الحديديُّ»، «أبطال الليزر»، «التِّنين الصَّغير»، «التَّنانين المرحة»، «المدافعون»، «فريق الإنقاذ»، «الدرَّاج المقنَّع»، «سر المقنَّع»، «كابتن باور»، مرَّ كلُّ اسم من هذه الأسماء كنسمة هادئة على ذاكرتي، لم تكن مجرد عناوين عابرة وحسب، إذ أحسستُ لوهلة أنني عالق في تلك اللحظة بين الحقيقة والهذيان. شعرت أنني ما زلت طفلًا يطالع جدول برامج الكرتون، يطالع اسم كلِّ واحد منها وهو لا يعرف مضمونها، إنما تتملكه رغبة عارمة في أن يسمح له والداه بأن يشاهدها جميعها دونما استثناء.

وفيما كنت ما أزال أحاول تصديق ما أراه، وفجأة، لفت انتباهي أن جميع الصُّحف والكتب والقصص الإبداعية ممهورة باسم إحدى مؤسسات النَّشر!

انحنيتُ بسرعة وتناولت أحد الكتب لكي أتبين الاسم، أزحت الغبار المتربع على غلافه للتأكد.

تسمَّرَ نظري للحظة من الزَّمن، واستولى عليَّ الذُّهول بشكل تام حين قرأت: «مؤسسة ساندي بل للنشر»!

حينها ابتسمتُ واعترتني مشاعر رائعة، وقلت لنفسي: على ما يبدو أن الصَّحفية الطَّموحة التي عرفتها في طفولتي قد صار لها مؤسسة نشر خاصَّة بها!

فقادني هذا لاستحضار تفاصيل القصَّة التي تحظى بشعبية واسعة لدى مختلف الأجيال، أبناء الثمانينيات والتِّسعينيات على وجه الخصوص.

تذكَّرتُ الكلب الوفي «أوليفير»، والحافلة الملوَّنة التي كنا نتمنى لو نستطيع اقتناءها والسَّفر بها حول العالم. تذكرت كيف تزوجت «ساندي» الرَّسام الشهير «مارك»، وكيف قضت الحلقات كلَّها وهي تبحث عن أمها المفقودة، وكيف تم اللقاء بينهما، وكيف عادت الذَّاكرة إلى أمها بمجرد أن رأت ابنتها تسبح في المياه لإنقاذ صديقتها.

تنهَّدتُ تنهيدة حسرى على تلك الأيَّام، وتمنيتُ في تلك اللحظة العديد من الأمنيات التي يصعب تحقيقها.

تمنيت لو كان بمقدورنا أن نستعير ضحكة «ساندي بل» وتفاؤلها لنكافح بها سواد الأيَّام. أن نستعير رومانسية قلبها الدافئ لنتمكن من هزيمة المحطات القاسية. تمنيت لو كان بإمكانها أن تسمع صوتنا الهادر فينا، صوتنا الذي يصف حالنا ويقول بالنِّيابة عنا:

ما زالت الحياة تجول بنا في حافلة الأيَّام والذِّكريات، تنقلنا من محطة إلى أخرى بقلوب متعبة مُشبعة بالألم والتَّناقضات والمعارك النَّفسية. ما زلنا نبحث عن أصدق المشاعر التي فقدناها في دروب العمر الموجعة، عن أروع الأمكنة التي غادرناها في جغرافيا التيه والضَّياع!

لم يكن الأمر بيدنا على الإطلاق، فكثير من الخيارات فارقناها رغمًا عنَّا، فارقناها بقلب محترق ونحن نردد بصوت كسير: «سأودعكم وفكري عندكم، سأودعكم وقلبي معكم».

صرنا نراقب شروق الشمس في كلِّ وقت، وننتظر النُّور كأنه خُلق من أجل قلوبنا، ما إن أتى حتى حاولنا التَّمسك به بكل ما أوتينا من حياة، وما إن غاب عن ضفاف صدورنا وتركنا لوحشة الليالي المعتمة، انتظرنا أن تُشرق الشمس من جديد، انتظرناها بقلوب صابرة راجية مرددة: «وداعًا إلى اللقاء بموعد جديد».

وما بين لهفة اللقاء ولوعة الوداع، عكفنا في محطة الانتظار الرَّمادية، أشعلنا غليون الأمل، ومضينا نتهجى الدهشة في صحف الحب وجرائد الطُّفولة، فما زلنا صوت محبة ينادي على الرغم من ضجيج المكان، صوتًا ينادي الدفء والأمان، لعلَّ الحياة تُشفق على صدورنا، وتستجيب لنبضات قلوبنا المتعبة ولو بعد حين.

في غمار كلِّ هذه الأفكار التي كانت تمور في خاطري، وفي الوقت الذي هممت فيه بمغادرة بسطة الكتب، وفجأة، وعلى حين غرة، انبعث صوت غريب من مكان ما، ثم ما لبثت أن سمعت صوت حمحمة حادة تطوف في الأرجاء، فنفضت رأسي على الفور. استدرت لأتبين الأمر، فإذا بعربة كبيرة تجرُّها مجموعة من الأحصنة البيضاء.

وفي لحظة واحدة، استقرت العربة بشكل غريب وسط السَّاحة، وفي غضون لحظات قصيرة، تجمهر النَّاس من حولها وعجَّ المكان بالأصوات والهتافات المتشوقة.

تملَّكني الفضول وقتها وثار الفضول بداخلي. أوليت المشهد بالغ الاهتمام، ولبثتُ من كثب أراقب ما يجري في المكان، وخلال هذا، وفجأة، انسل قرد صغير من مكان ما، وصار يُنطنط ويَتَشقلب فوق ظهور الأحصنة، ثم سُرعان ما ظهرت ثلاثة كلاب تسير بشكل تتابعي منتظم. كلبٌ بنيٌّ كثيف الوبر بحجم متوسط يعتمر طاقية، وكلب أسود بالحجم ذاته كأنما هو كلب صيد، وكلبة بيضاء صغيرة تبدو عليها أمارات الرِّقة والمكر في الوقت ذاته.

إبَّان هذا، أطلت طفلة رقيقة الملامح، وراحت تتمشى من حول الأحصنة وتعزف عزفًا شجيًّا على آلة أظنها الهارمونيكا. استغرق الأمر بضع لحظات قبل أن يتوقف العزف، ويحل مكانه هتاف ترحيبيٌّ بصوت رقيق مفعم

بالحماسة والحيويَّة والحياة: «أيها الجمهور الكريم، هذه فرقتنا الفنية الجوَّالة، نرجو أن تعجبكم عروضنا!».

عند ذلك، خفق قلبي وقد انتعشت ذكرى كرتونيَّة في صدر طفولتي.

وقع في نفسي ما وقع في نفسكم بشكل فوريٍّ، وفيما كان النَّاس على أهبة الاستعداد للعرض، دارت بداخلي العديد من التَّساؤلات، شحذتُ حواسي لاستجلاء حقيقة هذا العرض، وأخذت أطالع في كلِّ مكان من حولي باحثًا عن تلك الفتاة التي عرفتها في طفولتي، أو أي إشارة أخرى تدلني على شيء مألوف، ولكن لم أجد شيئًا من هذا القبيل!

مع تسارع وتيرة العرض وجدت نفسي أصب جام تركيزي على ما أشاهد، إذ طفقت الكلاب تمارس ألعاب الخفَّة، وتلاعب القرد الصَّغير على نحو مدهش. كان يدور بينها حبل رفيع بكلِّ إتقان وحِرفيَّة عالية، وكأنما قضوا وقتًا طويلًا في التَّدرب على هذا، في حين كان القرد لا ينفكُّ يُطلق الأصوات المضحكة، ويقوم ببعض الحركات البهلوانيَّة العجيبة.

مع مرور الوقت انخرطت الفتاة في المشهد التَّمثيلي، وقفت أمامها ووجهت كلامها للقرد. قالت بنبرة تنُمُّ عن انصياع وخضوع مُختلَق: «صباح الخير أيها الرُّبَّان، يُسعدني أن أكون خادمتك الجديدة هنا..».

فما كان من القرد إلا أن وضع ساقًا على ساق بطريقة مضحكة، وأكمل المشهد معها بطريقة درامية بارعة.

تَهلَّلت وجوه النَّاس بالضَّحكِ والبهجة، وتَعالت الهُتافات والعبارات، منها ما هو مُعجب، ومنها ما هو متهكِّم لا يعجبه العجب.

ما إن انتهت الفقرة التَّمثيليَّة حتى تتالت بعض الفقرات المتنوعة، إلى أن خرج من العربة شاب متوسط القامة لطيف الوجه، وقد شرع دون توطئة أو مقدمات بالعزف على آلة كمان.

بدا الشاب هادئًا متمرسًا. كان يُداعب الكمان بكل براعة فائقة، ومن لحظة إلى أخرى كان يرفع آلته الموسيقيَّة ويخفضها بحسب الإيقاع.

مع مرور الوقت شرع يتنقَّل من مقطوعة إلى أخرى برشاقة وانسيابية رائعة، وكأنما جميع الألحان المتنوعة التي يعزفها كانت تنتمي إلى مقطوعة واحدة.

تخلى عن الكمان واستبدل به آلة السَّاكسفون. وقد استطعت حينئذ تمييز مقطوعة «النَّمر الوردي» من بين الألحان التي كان يؤديها بمنتهى الاحترافية والاقتدار.

واصلَ عزفه الجميل المترع بالشجن والحنين، واستكانت أرواح النَّاس المحتشدين أمام العربة.

استغرق الأمر عدة دقائق، وما إن توقف الشاب عن العزف حتى انحنى بكل هدوء للجمهور، انحناءة خليقة بعازف عالمي يمتثل أمام جمهور غفير في أحد المسارح الكبيرة.

أما الكلاب الثلاثة، فوقفت على قوائمها الخلفية، وقد أمسك كلٌّ واحد منها بقائمة صديقه الأمامية كما يمسك الممثلون أيديهم بأيدي بعضهم عند نهاية العرض المسرحيِّ، ووثبا عدة خطوات للأمام، ثم أتبعاها بخطوتين إلى الخلف، قبل أن تحيِّي الفرقة جميعها الحضور.

ضجَّ المكان بالتَّصفير والتَّصفيق الحار، وهتفت الفتاة التي بدأت العرض، بصوت مفعم بالرقة والانتعاش والمرح:

- ادفعوا قدر ما تستطيعون لهذا العرض الذي رأيتموه أمامكم.

طفق النَّاس يلقون القطع النَّقدية في القبعة التي راح يجول أحد الكلاب بها، ثم شيئًا فشيئًا انفضَّ جمع النَّاس من مكان العرض، وانصرف كلٌّ واحد منهم إلى أشغاله، في حين بقيت مُتسمِّرًا في مكاني، وقد طافت بذهني الخيالات ورفَّ حولي سرب من الذِّكريات.

ظللتُ في صمت حائر، واستبد بي شعور طاغٍ عنيف يتساءل عن كواليس العرض الذي رأيته للتو، إذ إن الأجواء تشبه إلى حد كبير الأجواء التي كانت موجودة في «فرقة فيتالس الفنيَّة» وبالتِّكنيك ذاته المتبَع في آلية العرض!

التفَتُّ من حولي بحثًا عن أي شخص من الممكن أن يروي فضولي ولكنني لم أجد أحدًا يكترث لأمري ولو بنظرة. لم أستطع نفض الأفكار التي راودتني،

حيث كنت أشعر في قرارة نفسي أن كلَّ هذه الأمور مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالفرقة الجوَّالة التي عرفتها في شاشة برامج الكرتون، وتساءلت في نفسي: ولكن أين «ريمي» من كلِّ هذا؟ أين هي «ريمي» الآن؟!

* * *

# 25

«الموت لا يعني أننا سنفترق».

عبارة قالها «العم فيتالس» لريمي قبل أن يموت ويتركها في منتصف الطَّريق تعاني لوعة الفقد والضَّياع. في تلك اللحظة أخبرها في أثناء احتضاره مثلما أنه لم ينس زوجته التي رحلت عنه، كذلك هي لن تنساه، وستبقى ذكراه متربعة في حجرات صدرها للأبد.

هكذا هي بعض الوداعات، مهما أقمنا لها مراسم الفراق والرحيل، وشيَّعنا من أجلها ألف شمعة، وذرفنا عليها ألف دمعة، تظل لوعتها ساكنة في مكان خفيٍّ في أعماقنا، تظلُّ تنبض بداخلنا مهما ظننا أننا أفلحنا في نسيانها.

تظلُّ تخبرنا أن بعض الأشخاص لا يغادروننا مهما استحالت طرق الوصول إليهم. تظل ذكراهم حاضرة في قلوبنا بشكل عصي على الاستيعاب، ونظل من فرط الامتلاء بهم نشعر بالخواء في كلِّ دقيقة نقضيها في حضرة غيابهم. نتخيلهم يربتون على أكتافنا عند كلِّ لحظة ضعف، نتكهَّن ما سيقولونه عند كلِّ موقف، نتصوَّر أننا سنراهم في أي لحظة، نظل هكذا نقتات على ذكرياتهم في كلِّ وقت، وكأنَّهم لم يفارقونا قط.

لعلَّ ريمي لم تعرف هذا وقتها، ولكن «العم فيتالس» كان يُدرك كلَّ هذه الأشياء على نحو حتميٍّ ليس منه فرار، وأن عُمق الأثر الذي تركه في خلجات نفسها لن يبارحها، وأن نصائحه ستظلُّ تُرافقها إلى نهاية الحكاية.

فها هي ما تزال وفية للأيَّام الرَّائعة التي عاشتها برفقة فرقته الفنيَّة الجوالة، وفي هذا السَّبيل، سارت على هذا النَّهج وأنشأت عدَّة فرق استعراضيَّة تطوف في البلاد، وراحت تحاكي ببراعة مذهلة فائقة ما كانت تقوم به ذات زمن مع أعضاء «فرقة فيتالس الفنية».

هذا ما خلصتُ إليه من حديث الرَّجل الغريب، ما إن عاد إلى السَّاحة التي تركني فيها، وقد فرغ من قضاء حاجته التي لم يفصح عنها، حيث وجدني بعد نصف ساعة من انتهاء العرض الفنيِّ، جالسًا على الرَّصيف، منتظرًا ساهمًا أطيل التَّفكير في كل ما رأيته في أثناء العرض.

لحظتها، تناسيتُ ريبتي حول الرَّجل، واستبدلت بها فضولًا غامرًا لمعرفة أخبار «ريمي»، فظللتُ ملازمًا له وهو يحدثني عمَّا يعرفه عن الفرق الاستعراضيَّة الجوالة في البلاد.

تبيَّن من خلال حديثه المستفيض أنه يعرف الكثير من الأمور عن حياة ابنة قرية «شبانون»، يعرفها على نحو يثير الحيرة والاستغراب، مما أوقعني في ريبة أخرى حول الرَّجل!

ولتبديد هذه الرِّيبة، استوضحت منه وسألته كيف له أن يعرف تفاصيل حياتها على هذا النَّحو الدقيق.

ضحك حينها وقال مبسطًا الأمر:

- إن الأمر أسهل مما تظنُّ. إنَّ الكثير من سكان البلدة يعرفون بقصة هذه الفتاة الطَّيبة المكافحة.

هززتُ رأسي باسمًا وأصغيت له وهو يواصل حديثه المستفيض، متطرِّقًا لأبرز المحطَّات الصَّعبة التي واجهتها واستطاعت التَّغلُّب عليها.

قال بطريقة مشبعة بالتَّعاطف إنها فتاة رقيقة حالمة، مسكونة بالحزن ولوعة الفقد، ولكن سُرعان ما تمسح الحزن عن قلبها، لتكمل الحياة وتبثُّ الأمل في كلِّ شخص يُصادفها، وكلما سألها أحدهم عن أحزانها القديمة، ابتسمتْ بكل كبرياء وقالت:

- لا وقت للتفكير في الماضي، لقد «نسيت الحزن شوقًا للغد الأفضل».

عند ذلك..

لاح في مخيلتي شكل «العم فيتالس» وهو يربت بحنو على كتفها المتعَبة، ويوصيها بنبرته الحكيمة الواعظة المعهودة: «إياكِ أن تضعفي يا ريمي، فهذه الحياة صعبة جدًّا، لكن يجب علينا أن نؤدي رسالتنا».

ولعلَّ هذه النَّصيحة الذَّهبية التي نحفظها عن ظهر قلب، هي النَّصيحة التي تمسكت بها حتى تواصل رحلتها وتتجاهل محطات الضعف التي مرت بها، ولعلَّ علينا أن نفعل مثلها، وأن نستحضر هذه النَّصيحة متى ما شعرنا باليأس والاكتئاب والاستسلام وأنياب الموت.

لست أدري، ولكن ربَّما لو كانت ريمي بيننا الآن، لأخبرناها أننا نحاول مقاومة بشاعة الحياة بكل ما أوتينا من عنفوان وصمود وأمل، نحاول تطبيق نصائح «العم فيتالس» التي كان يُسديها إلينا من خلالها.

نُحاول نسيان الحزن شوقًا للغد الأفضل، ولكن المشكلة أن بداخلنا ألف غصَّة حب، وألف لوعة فقد، وألف ندبة روح، وصارت الأيَّام قاسية الملامح، بخيلة الإحساس، لا تعرف العطف والحنو والشفقة، تتجسد شيئًا فشيئًا لتصبح على هيئة الحقير «كاسبر»!

ولعلَّ معظم الأمور التي مرت بخاطرنا فكرة، قد عبرت ظلت ذكراها تحاصرنا وتستنزف ما تبقى من أيَّام عمرنا، بعد أن تركتنا بين متاهة التَّساؤلات ودوامة الاحتمالات، تركتنا نتساءل أكان البعد فينا أم في أحلامنا؟!

أكانت الغربة في هذا العالم، أم في قلوبنا الغريبة التي لا تشبه شيئًا من حولها؟! أكانت الحياة التي نتمنَّى عيشها ممكنة أم مستحيلة تقبع في عالم بعيد؟! أكان الخلل في نبضات قلوبنا أم في طريقة الحب الموجودة من حولنا؟! نظلُّ نسأل ولا نملُّ من السُّؤال، لكيلا ننظر إلى الخلف ذات يوم، فتمتلئ قلوبنا بالحسرة، ويكون عيبنا أننا في الأمس لم نسأل!

في أثناء ما كانت هذه المشاعر تمور في خاطري، لحظت أن الرَّجل استطرد في الحديث وعاد يمتدح «ريمي» ويقول عنها إنها عظيمة النَّقاء، سامية النَّفس، ولها قدرة عجيبة على أن تنفذ إلى أعماق القلوب، وأن تشعِر الآخرين أنها فرد من عائلته.

فخيِّل إليَّ حينها أنه يُسرف في الحديث عنها، بشكل يتجاوز أن يكون مجرد عابر سمع بقصتها فحسب، فأردت التَّأكد من صحة هذه الملاحظة واستشفاف الأمر، ولكن لم أعرف كيف!

لم أشأ سؤاله بشكل مباشر عن هذا، ولكن بعد لحظات، وبينما كنا نواصل السَّير، ألقيت طُعمًا، وقلت:

- بما أن الجميع يعرفون قصَّة هذه السيِّدة كما أخبرتني، ولكن هل سبق لك وأن التقيتها؟!

هزَّ رأسه باسمًا وقال بشكل مباشر:

- نعم قابلتها ذات يوم. تعرَّفت عليها بمحض المصادفة.

أوشكتُ أن أسأله:

- كيف هذا؟!

ولكنه سبقني وقال من تلقاء نفسه:

- استضفناها في مدرستنا، وقدمت أحد العروض الفنية في مناسبة من المناسبات الموسمية المرتبطة باستقلالية البلاد.

دُهشت حينها وسألته مستغربًا عن المدرسة التي يقصدها في حديثه، فقال مستدركًا:

- عُذرًا لأنني لم أخبرك عن مهنتي، إني أزاول مهنة التَّدريس منذ سنوات عديدة.

تعاظمت دهشتي حينها لأن هيئته لا توحي بأنه يعمل في السِّلك الأكاديميِّ على الإطلاق، ولكنني لم أدقق كثيرًا في هذه النُّقطة، وأحسستُ أن هذا الأمر لا يهمني، بقدر ما يهمني موضوع «ريمي»!

تربَّص بي الفضول وسألته:

- وهل قابلت السيِّدة ريمي مرة ثانية؟ أقصد، هل قابلتها في موعد خارج حدود تلك المناسبة المدرسيَّة؟!

امتقع وجهه حينها على نحو مفاجئ، وأحسستُ لوهلة أنه فهمني بشكل خاطئ، فتنبهت إلى فداحة سؤالي على الفور. انعقد لساني وأحسستُ أنني

تسرعت بالقول وقد انتهكت خصوصيته، فالتزمتُ الصَّمت وأزمعتُ أن لا أطرح عليه مثل هذه الأسئلة المتسرِّعة الرَّعناء طوال الطَّريق.

ساد صمت رهيب اعتقدت أنه سيطول لفترة لا بأس بها، وأنني سأظل أراقب وقع خطواته التي تسير إلى حيث لا أعرف، ولكن فجأة، قال دون مقدمات بنبرة غريبة هادئة ذات مغزى:

- يشعر الإنسان بألفة سريعة تجاه الأشخاص الذين يحملون أوجاعًا تشبه أوجاعه، وينتابه شعور بأنه يعرفهم منذ زمن بعيد، يعرفهم من قبل أن يلتقيهم!

قطَّبتُ جبيني مستغربًا، ولكنني اكتفيت بهز رأسي دون أي تعقيب. لم أنتظر طويلًا لإرضاء فضولي، فقد راح يوضِّح بعد لحظات، إذ قال بصوت هادئ:

- لا أعلم إن كان الأمر يهمك، ولكن ربَّما تكون قصتي مشابهة لقصة تلك السيِّدة، ولذلك أكن لها بالغ الاحترام، وتراني أتحدث عنها بحرارة كما لاحظت للتو.

ثم بعد لحظات أخذ يقول إن مكمن الشبه مع «ريمي»، هو أنها عانت لعنة الفقد في مقتبل العمر، وكانت تعوض غربتها من خلال ميلها لجعل من حولها أصدقاء لها.

فَعَلَتْ هذا مع أعضاء فرقة «العم فيتالس»، وحينما ساقتها الظُّروف للتعايش مع مجموعة من الأطفال المشردين الذين كانوا يرزحون تحت سياط الظُّلم والقسوة، تمامًا مثلما حدث معه في قصَّته على حد تعبيره. إذ كان يعمل ويعيش مع مجموعة من الأولاد المساكين حياة قاسية جدًّا، ولكنه استطاع أن يتعايش معهم ويُعوِّض شيئًا من دفء العائلة المفقود.

أكثر ما لفت انتباهي في حديثه، هو وصفه لأولئك الفتية، إذ قال والحشرجة بادية في صوته:

- إنهم فتية كانوا يحلمون بمعانقة خيوط الشمس بأي طريقة كانت، بينما كانت حياتهم في الواقع مسكونة بالعتمة والسَّواد، ومرهونة بالتَّعب والشقاء.

في تلك اللحظة التي فرغ فيها من حديثه عن أولئك الفتية، كانت الشمس تنذر بالمغيب، وغاب خيال «ريمي» عن تفكيري، إذ لسعني الفضول حول قصته وقصة الأولاد الحالمين الذين يتحدث عنهم.

انفرجت شفاهي قائلة:

- أعتذر لتطفلي حول قصَّتك مع الأولاد، ولكن هل باستطاعتي أن أعرف المزيد عنهم؟

- ماذا تُريد أن تعرف؟!

- مثلًا، ما الذي كنتم تعملونه وقتذاك؟!

رمقني حينها ببرود غريب، ثم نظر نحو الطَّريق وقد قال بكل هدوء: «منظفو مداخن».

* * *

# 26

«روميو»..

ذلك الفتى الطَّيب الذي قالوا عنه ذات يوم: «بيننا صديق، لا يعرف الكلل، مخلص رقيق، إن قال فعل» على ما يبدو أنه ما يزال يعرف كيف يجابه الأيَّام الصَّعبة، ويعرف كيف يحفظ عهد الأصدقاء، وكل العهود التي قطعها على نفسه ذات زمان!

فبعد أن أوفى بعهده لصديقه «ألفريدو»، وصار مُعلِّمًا ينشر العلم بين الأولاد الفقراء والمحتاجين، وينتشلهم من براثن الجهل والعوز الذي يجعلهم يرزحون تحت وطأة الاتِّجار الماديِّ والاستغلال النَّفسي، راح يقطع على نفسه عهودًا عديدة متنوعة، وعلى ما يبدو أنه لم ينسَ رائحة سطوح البيوت التي كان يقف عليها برفقة «عصابة منظفي المداخن».

لم ينسَ آثار الهباب وبقيت عالقة في أعماق وجدانه، حيث كان من ضمن العهود التي قطعها على نفسه، أن يدرس مجموعة من الأولاد الذين يعملون في ظروف صعبة قاهرة بمبالغ زهيدة، كما يستقبل من وقت لآخر الغرباء الذين يفدون إلى البلدة.

يختار واحدًا منهم بشكل عشوائي، يُصادقه ويُرافقه في جولة تعريفية بين معالم البلدة، ولا يفعل هذا من أجل مصلحة مادية، إنما إشباعًا لشغف دفين بداخله، وكأني به لم ينس أنه تعرف على صديق عمره في لحظة سفر!

كانت الدهشة عارمة حينما تيقَّنتُ من هويَّته، وأحسستُ لوهلة بسذاجة فادحة لأنني لم أتمكن من معرفته طوال هذا الوقت الذي قضيته معه!

ربَّما ما يشفع لي ذلك هو أنني كنت غارقًا في رحاب معالم البلدة ودهشة المكان، بيوتها القديمة وقصص أبطالها، بالإضافة إلى سحنته التي تختلف كلَّ الاختلاف عن تلك التي رأيتها على شاشة التِّلفاز ذات زمان.

ظللتُ أحدِّق إلى لحيته وتقاسيم وجهه التي صارت أكثر ألفة بالنِّسبة إليَّ. خامرتني مشاعر ممزوجة بأمور لا أستطيع وصفها على وجه التَّحديد، إنما هي أقرب ما تكون لمشاعر طفل تربَّى على عهد الأصدقاء، وقد أصبح نهاره عملًا بعد أن كان حلمه نهارًا.

ولكيلا أشعر بالسَّذاجة من جديد، كان ضربًا من الحماقة أن أرفض العرض السَّخيَّ الذي قدمه لي، إذ عرض عليَّ أن أبيت الليلة في بيته، على أن أستأنف رحلتي في الصَّباح الباكر، فحسمتُ الأمر دون تردد، ودون أن أفصح عن معرفتي المُسبقة بشخصه.

على ما أذكر..

عندما تابعت برنامج «عهد الأصدقاء» كان «ألفريدو» يكبر «روميو» بسنة واحدة فقط، ولكن شخصيته الواثقة ونظرته التَّحليلية الثاقبة، وطريقة حديثه المفعمة بالنُّضج والوعي والإدراك، جعلت النَّاس يظنُّون أن الفرق بينهما أكبر من هذا، ولعلَّ السِّر وراء هذه المفارقة، هو أن «ألفريدو» كان شخصًا قارئًا للكتب!

هذا الأمر الذي فطن له «روميو» بشكل مبكر، وأثار بداخله مشاعر غيرة إيجابية تحرضه على مجاراة صديقه واللحاق به، ومع مرور السَّنوات ترسَّخت بداخله قيمة القراءة بشكل أعمق.

هذا أول ما خطر ببالي حينما ألفيت مكتبة ضخمة في منزله، وحينما سمعته يقول بكل اعتزاز:

- من يملكُ مكتبة في بيته، يملك قِطارًا متنقلًا من الزَّمن على شكل قطعة أثاث. يمكنه السَّفر من خلاله حيث يشاء، في الوقت الذي يشاء. دون أن يدفع فلسًا واحدًا لشراء التَّذكرة، ودون أن يكلِّف نفسه عناء القيام من فراشه الدافئ.

مع مرور الوقت، وانطلاقًا من فكرة الصَّداقة التي يكونها الإنسان مع الكتب، كان لزامًا أن يتحول الحديث في حضرة شخص مثله إلى الصَّداقة الإنسانية وأثرها العميق في قاموسه، حيث استحضر ذكرى صديقه الذي تزوج أخته «بيانكا» وسمى ابنه على اسمه، وكأنما صار ذكر ذلك الصَّديق من لوازم الحياة لديه.

كان يتحدَّث بنبرة عاطفيَّة تنطوي على لوعة فقد، وكأن النِّسيان لم يخفف عنه تباريح الغياب، وما يزال يُشيِّع صديقه إلى هذا الوقت، مما جعلني أوثر الصَّمت وأتجنَّب الحديث حول هذا الموضوع، ومضيتُ بداخلي أستذكرُ العديد من الأحداث الرَّائعة التي جمعتهما.

تذكرتُ كيف كان «ألفريدو» يقول على الدوام بصوته الأبح المعهود: «لنتعاهد يا روميو، لنتعاهد حتى وإن كانت مشكلاتنا كالأنهار، ستكون صداقتنا السَّرمدية شاطئ الأمان لنا».

تذكرتُ كيف تشكَّلت «عصابة منظفي المداخن»، وكيف بويع «ألفريدو» على قيادة العصابة في أحد الأقبية المظلمة المهجورة، وكيف تعاهدوا وقتها على الإخلاص والوفاء، تعاهدوا أن يتقاسموا أفراحهم وأتراحهم، وأن يساعد بعضهم بعضًا، وأن لا يتخلى أحدهم عن الآخر مهما كانت الأسباب والظروف، قبل أن يُشعلوا الشموع ويحتفلوا بعقد اتفاقهم في وجه سواد الحياة وغدرها، في أجواء رائعة لا ينساها من شاهدها.

قُلتُ في نفسي متنهدًا:

يا ليتنا نعرف معنى الصَّداقة مثل «روميو»، وأن نعرف قيمة الصَّداقة السَّرمدية التي كان يقول عنها «ألفريدو»، يا ليتنا ننعم بأصدقاء يهتفون من صميم وجدانهم كما كانت تهتف عصابة منظفي المداخن: «نحن الأصدقاء نعرف ما معنى الوفاء، ما معنى الصَّديق، ما معنى الإخاء..».

ما أحوجنا إلى علاقات حقيقية، علاقات تستطيع اقتحام حياتنا وطرد آثار العلاقات المسمومة التي كانت من قبلها.

ما أحوجنا إلى من يفهم بوحنا من رحم صمتنا، ويستطيع اصطياد حزننا من بين حقول ضحكاتنا المزيفة، أن يستوعب تناقضاتنا فنشعر أننا منطقيون في حضرته، ويُشعرنا كلَّ حين أنه ومهما كانت الأجواء والظروف، ثمَّة شخصٌ سيظل بجانبنا حين يخذلنا الجميع، ويستطيع أن يربت على أكتافنا حين تختفي الأيدي وتغيب القلوب.

نظل نتمنى ونفرط في الأمنيات، إلى أن «تزيدنا الصَّداقة مرحًا وانطلاقًا، وتصبح الأماني أفعالًا لا كلامًا»، ولكن نخشى أن لا يسعفنا الوقت في تحويل الأمنيات إلى مشاهد نستطيع معانقتها وعيش بطولتها كما ينبغي، أو لا نستطيع العثور على علاقات آمنة تكون لنا بعد هذه السَّنوات «عونًا وسلامًا» بكل ما تعنيه الكلمة من معنى!

فنحنُ لم نلتقِ كلَّ يوم بصديق يُخفِّف وحشة دربنا كما كانت تقول لنا سبيستون، ولا أحد مُستعد للاعتذار في سبيل أن تظل «الصَّداقة أحلى هدية»، ولا أحد قال لنا بعد أن ساءت الأمور: «لا عليك هاتِ يديك، فالصَّحب قد عادوا إليك!».

لم نستشعِر القيمة الحقيقيَّة للعبارة الرَّائعة التي تقول: «أصدقاء ويحلو اللقاء»، وربَّما لم نعثر على الذين يستحقون أن نقول عنهم: «هم أصدقائي عزائي هنا، شلال حبٍّ يسكنه الغنا!».

نخشى أن يكون هذا صحيحًا، ونخشى أننا نعيش في زمن غريب، زمن ينكث فيه الأصدقاء عهودهم بشربة ماء، ويتنكَّرون لعلاقاتهم على أهون الأسباب وأتفه المواقف، ولم يعد بيننا شخص يشبه «روميو» في وفائه وإخلاصه، بعد أن صار يعيش بيننا ألف رجُلٍ غُراب!

بينما كانت هذه الأفكار تختمر في وجداني، كنا قد شرعنا في تناول العشاء ومضينا نتسامر ونتجاذب أطراف الحديث في مواضيع شتى، دون أن أفصح له عن غايتي من الرِّحلة التي أخوضها، ولا عن المحطة الختاميَّة التي أهدف إلى الوصول إليها.

سألته عن الأشياء التي سنفعلها في الصَّباح الباكر، وعن الطَّريق الذي يتعين عليَّ أن أسلكه حتى أصل إلى المدينة.

أوشكتُ للحظة أن أريه عنوان القاعات الختاميَّة الموجود على الكارت الذي في حوزتي، ولكن تراجعت عن هذا واكتفيت بما قلت.

لم يكن لديه إجابة فوريَّة حاسمة. ظلَّ يُهمهم بينه وبين نفسه للحظات، قبل أن يذهب لإجراء اتصال مع أحد الأشخاص.

ما إن عاد حتى قال على نحو متحمِّس:

- جهِّز نفسك، ستذهب معي غدًا إلى المدرسة.

ابتسمتُ وقلت وأنا أحاول الاستيعاب:

- أنا؟! أي مدرسة؟!

- المدرسة التي أعمل بها. لا تنظر إليَّ هكذا، اسمع، هناك رحلة طلابية يوم غد. صحيح أنها لن توصلك إلى المدينة، ولكنها ستقرب المسافة عليك، ومن هناك يمكنك الذَّهاب إلى المدينة عن طريق إحدى سيارات الأجرة.. ها، ماذا تقول؟!

وفيما كنت حائرًا في أمري، راح يقول:

- لعلَّها فرصة لتكتشف شيئًا جديدًا في هذه البلدة، فالمدرسة التي أعمل بها تعكس مظهرًا ثقافيًّا حضاريًّا، وأمورًا أخرى ستُعجبك بلا ريب.

التزمت الصَّمت في تلك اللحظة. لم أكن متأكدًا إن كنت سأجد في المدرسة ما يُلبِّي شغفي نحو هذا العالم الافتراضي.

ولعلَّ كلَّ ما كان يشغل تفكيري وقتها، هو كيفيَّة الوصول بسلام إلى المكان الختامي من هذه الرِّحلة.

أحسستُ أنني لا أملك خيارًا آخر، وفي الوقت ذاته، بدت لي فكرة زيارة المدرسة فكرة جيدة وإضافة نوعية في رحلتي، ولا سيما أنني لا أعلم إن كنت قد استوفيت الذِّكريات الكرتونية كافة في هذه البقعة الجغرافية، أم ما يزال هناك ما ينتظرني!

فما كان مني إلا أن وافقت على الأمر، ومضيتُ أتخيَّل ما الذي سيُصادفني في تلك المدرسة.

* * *

# 27

نحن الذين نملك إحساسًا سبيستونيًّا في جوانحنا، نعرف في قرارة أنفسنا أن لا أحد سيفهم شعورنا العميق نحو شارات الغناء الكرتونية، لا أحد سيستوعب تلك الرَّعشة التي تعترينا عند سماع تلك الموسيقى، وكيف أن أغنية واحدة قادرة على أن تعيدنا أطفالًا مهما كانت الحالة النَّفسيَّة التي نشعر بها.

فيما يظن النَّاس أننا نستمع لموسيقى عادية عابرة، فإننا نُنصت لها بكل جوارحنا وكل خلية في جسدنا، وكأنها صارت نشيدًا وطنيًّا لمملكة الطُّفولة في صدورنا.

ما زلنا نرتجُّ ونحن نُردِّد بعض الأغاني الكرتونية القديمة. ما زالت أفئدتنا ترتعشُ بشكل غير مفهوم، تتملَّكنا حماسة عجيبة قلَّما نشعر بها. تنتفخُ أوداجنا من فرط الاندفاع، وتفيضُ الوطنية من ينابيع أعماقنا ونحن نردد بكل بسالة وعزة نفس وكبرياء:

*ما عاش الظَّالم يسبيكِ وفينا نفس بعد*

*بحنيني بدمي أفديكِ وروحي تنبت مجد.*

نشعر في تلك اللحظة أننا نعتلي سفينة الصَّاعقة برفقة قائد الأسطول «هزيم الرَّعد»، وأننا سنُشهر سيوفنا في معركة ضارية، معركة تشبه المعركة التي ندافع فيها عن غصن الزَّيتون وتوتة الدَّار وأصالة قضية سنربحها مهما طال استبداد الاحتلال فيها، معركة لن يفهمها إلا من حمل روحه على راحته، وجاء بصوت الحق الهادر، وهو يقول للسماء من أعماق وجدانه: «أبرقي أرعدي أبطالًا وعدوكِ أنبل وعد»، وهتف في مسامع الأرض من أعماق عنفوانه: «ما هُنتِ ولن تهني بل من أجلك ثار اشتد!».

ما زلنا نستمع لبعض الأغنيات وكأننا نستمع لموسيقى مارشال عسكريٍّ أكثر من كوننا نستمع لكلمات مرصوصة في نشيد كرتونيٍّ وحسب. نستفُّ تراب الوطن الذي عشقناه. نراقب خفقان راية البلاد بعيون قلوبنا. نشدُّ صدورنا ونحن نُردِّد بكل بسالة وشُموخ وانتماء:

*شـــرف الوطـــن، أغلى منَّا ومـــن*
*مـا قـد يجـول بفكرنا في أي زمـن.*

هذا ما جال في خاطري، وجاش في صدري عندما ذهبت في الصَّباح الباكر إلى مدرسة البلدة، ورأيت الطُّلاب يصطفون في طوابيرهم بشكل منتظم. يشدُّون صدورهم ويضعون أكفَّهم وراء ظهورهم، ويهتفون بملء حناجرهم:

«تعاهدنا معًا على الإخلاص والإباء، تعاهدنا غدًا سنعلي راية الفداء، عهدًا بأن نكون، أقوى من الحصون، أرواحنا فدا الوطن، رخيصة الثمن».

على وقع هذه الكلمات ارتجَّت جنبات المدرسة. انتشيتُ نشوة عارمة حين رأيت الانتماء يطلُّ من حدقات عيون الطُّلاب، وكأني بهم قد نذروا أرواحهم فداء للوطن قبل أن يعرفوا عنه الكثير، قبل أن يعرفوا ماذا يخبئ لهم المستقبل في كنفه من بهجة وخيبات، من فرح وغصَّات، من تقدير وإهانات، من عدل وظُلمات، من ضحكة وآهات!

ربَّما هكذا كنا حين كنا في مثل أعمارهم، كُنَّا نهتف بكلٍّ وطنيَّة خالصة دون أن يكون لنا غاية خفيَّة من هتافاتنا الحارَّة، ودون أن يكون لنا مصلحة من شعاراتنا المتكررة.

ولكن، ما إن كبرنا حتى وجدنا أن الجميع يُتقن ترديد الهتافات والشعارات الرَّنَّانة، الجميع يُتقن التَّزلُّف، والنِّفاق، والتَّسلُّق، والتَّملُّق، والغناء، والاحتفاء، وأنها صارت وسيلة لنهب الوطن وسلب أثمن مقتنياته، أكثر من كونها قبلة على جبينه المتعب ودليلًا على الانتماء إليه.

وفي الوقت ذاته، أوغلنا في مفهوم الوطن بشكل أوسع، ومن فرط الغربة أدركنا أن الأمكنة الدافئة التي نستطيع اللجوء إليها، نراها بقلوبنا لا بعيونهم، ونصافحها بأوجاعنا لا بأيديهم، ونعرفها بحدسنا لا بنصائحهم، ونفضل الاختباء فيها ولو حاول الجميع أن يصدنا عن فعل هذا.

أدركنا أن وطن الإنسان هو المكان الذي يعثر فيه على ضحكات صدره التي ضاعت منه على رصيف العمر، هو المكان الذي يعثر فيه على طفولة قلبه، التي سُرقت منه في دروب الشيخوخة المُبكرة والتَّجاعيد النَّفسيَّة.

أما «روميو»، أقصد الأستاذ «روميو»، فقد بدا لي شخصًا مغايرًا عن ذلك الشخص الذي قابلته يوم أمس، حيث كان يتقن لعب دور الأستاذ بكل اقتدار.

كان مُشرق الوجه، رسميَّ الهندام، شعره مُمشَّط بعناية فائقة، وقد راح يسير بين الطُّلاب مُجلَّلًا بالرزانة والوقار، ولا ينفكُّ يوجِّه النَّصائح والتَّوجيهات يمنة ويسرة.

بعد مرور الوقت، وبينما انصرف هو لسبب أكاديميٍّ مع مجموعة من المعلمين الآخرين، وإلى أن يحين موعد انطلاق الرِّحلة المدرسية التي أشار إليها يوم أمس، أخذتُ بدوري أتجوَّل بين أروقة المدرسة وطلابها.

مضيتُ بعينين مستكشفتين أتعرف على أدق تفاصيل الصَّرح التَّعليميِّ، وأبحث عن أي شيء يوقظ في نفسي ذكرى كرتونية جديدة.

خلال هذا، عرفتُ من بعض الحوارات العشوائية أن هذه المدرسة هي المدرسة الوحيدة في المنطقة وأنها شهدت عدَّة مراحل وتغيرات في عمرانها وآلية التَّدريس فيها، حيث تحوَّلت إلى مدرسة شاملة بعد أن كانت في الماضي

مدرسة داخليَّة، وأنها استطاعت أن ترفد المجتمع بعقول نيِّرة نابهة، وأجيال مُتباينة بالعادات والأفكار والطُّموح والذَّكاء والأحلام.

تتابعت الخطوات بفضول، وما هي سوى لحظات حتى ألفيتُ نفسي أسير وحيدًا في الأروقة الداخليَّة للمدرسة. عبرتُ في البداية بهوًا فسيحًا اختلطت فيه ضجَّة الطُّلاب بجلبة المدرسين، ثم ولجت إلى أحد الممرات الطَّويلة بشكل عشوائي. استوقفتني حينها جدارية ملونة مرشومة بالعديد من العبارات التَّحفيزية.

شرعت تدريجيًّا أقرأ العبارات التي تقع عليها عيني:

*الأرض ومـــا فيهـــا، بالعلـــم نحميهـــا*
*وخيـــر بنـــي الإنســـان يبنيـــه ويبنيـــها*

*مهما تفوّقت الآلات، يبقى العقل هو الأقـــدر*
*سخّر علمك للخيرات، وابعد عن طرقات الشر*

*لا نستسلم للفشل... بل نحاول من جديـــد*
*فالهزيمة في فقدان الأمل، ولا يكفي أن تقول أريد*

*ادرس هيّا لا تتمهل، فغدًا تُختبر غدًا تُســأل*
*ابذل جهدك دون كلَل، ثق أنك أبدًا لن تفشل*
*من عتمـــة الليـــل ترجّلنا وحملـــنا الأحـــلام*
*لتكـــون حقائـــق عجّلـــنا جابهنـــا الأوهـــام*

*ســـوف نبنـــي حلمًا كـــان كنزًا فيـــنا*
*ســـنعيشـــه دومًا فالأمـــل يقوينـــا*

*من كان ينظرُ للبعيد، يُعطي لنا الرّأي السّديد*
*ما خاب في قولٍ ولا، أبدى لنا إلا المفيد*

*مهلًا مهلًا يا أصحاب... العلم لخير الإنسان*
*ليس العلّم سلاح دمار، يهدم في الأرض البنيان*

**وفيما كانت الدهشة لا تفارقني، التفتُّ إلى جانب آخر من الجدارية، فقرأتُ عبارات أخرى نُقشت على شكل مقتضب خاطف، وكانت تقول:**

*في القلب طاقة كالرياح تدفعنا نحو النَّجاح.*

*فتش فيك عن القيم، واسأل قلبك ما الأهم.*

*للعلم ألف طريق، فلنكتشف يا صديق.*

*إيماني حقيقي ولي عنوان، ولهذا أعيش.*

*إن الأمل جهد عمل، والجهد لا يضيع.*

*العلم طريق المستقبل والحاضر ألوان.*

*لا يزال، كالجبال حامل الآمال.*

*نملك الخيار، وخيارنا الأمل.*

*نحيا بالحب، والعلم ساحاتنا.*

*غيمٌ هو حُلمي، غيمٌ حلمي.*

كانت عيناي تبرقان بين كلِّ عبارة وأخرى، كأنَّما تنظر إلى جواهر نفيسة في صندوق عتيق، ومن فرط الاستئناس قرأت العبارات غير مرَّة، وقد أحسستُ أن كلَّ واحدة منها تفيض بالمعاني الغزيرة التي لا تنضَب، وتخبئ خلفها عالمًا كاملًا من القصص والأسرار، عبارات قد استطاعت أن تحفر عميقًا في وجدان جيل بأكمله، وصارت شعارًا تنتهجه القلوب في محطات عُمرها.

مضيتُ بعد لحظات أواصل السَّير في الممر، مضيتُ بخطوات متروية لا عجلة فيها. تناهت إليَّ ساعتها جلبة الطُّلاب وصيحاتهم المنبعثة من خلف جدران الصُّفوف، وسمعتُ المعلمين وهم يلقِّنون الدروس والتَّوجيهات والأناشيد.

إن هذه الأجواء الأليفة استطاعت أن تأخذ بيدي وتعيدني إلى رحاب المدرسة التي درست فيها أول سنوات عمري.

وقتذاك، لم أكن طالبًا مجتهدًا، بقدر ما كنت طالبًا مغامرًا يحاول تجربة الأشياء الجديدة التي تثير دهشته. لا أستطيع تحديد مشاعري نحو تلك الأيَّام الدراسيَّة على وجه الدِّقة، نحو الأوقات التي كانت مخضبة بروائح الطَّبشور وأقلام الرَّصاص. رونق الكتب المجلَّدة. عبق الدفاتر الجديدة، وإغواء رائحة الممحاة التي كنا نتمنى تناولها أكثر من استخدامها.

ما زلت أذكر كيف كنا نطالع جدول الحصص اليومي بكل شغف وتململ وترقُّب، كانت الحياة وقتها بسيطة في أعيننا، وكانت أقصى أمنياتنا أن ننتقل من مربع إلى آخر حتى نصل إلى المربع الأخير من ذلك الجدول، فنفرح حينها ونظنُّ أن الحصص قد انتهت، دون أن نُدرك أن الحياة كانت تُحضِّر لنا حصَّة إضافية من نوع مختلف، حصَّة مؤجلة لم تتحضر لها قلوبنا البريئة ولم تحسب لها أي حساب.

في ذلك الوقت، كنا نُفضِّل الرَّكض والتَّمرد، على الالتزام والرضوخ للقيود والتَّعليمات، وعلى الصَّعيد الدراسي، عندما كانت تتكالب الامتحانات والواجبات المدرسية علينا، كان لسان حالنا يتقمَّص الأغنية السبيستونيَّة المتذمِّرة: «كل يوم، حصص دُروس، كل يوم، حفظ وواجبات، كل يوم، كُتب فروض، كل يوم، مُذاكرات وامتحانات».

لست أدري لماذا أحببنا «ماروكو الصَّغيرة» دون شروط إيجابيَّة أو توقعات مثالية. أحببناها على الرغم من أنها كانت طالبة كسولة لا مبالية، وصاحبة لسان سليط مُتمرِّد، ربَّما أحببناها لأنها تستطيع التَّعبير عن الجانب الخامل في شخصيتنا بكل براعة متناهية، دون أن تخجل من نفسها أو تكترث لردود فعل النَّاس من حولها، أحببناها لدرجة أننا تمنينا لو كان بإمكاننا أن نستعير لسانها في كثير من الظُّروف والمحطات والمواقف.

كانت الشَّيطانة تتمارض كلَّما عنَّ ببالها الغياب، وتتذمر من أمور بسيطة لا قيمة لها، وتقول دون أن تبذل أي مجهود يُذكر: «أريد أن أستلقي في الصَّباح والظهر والليل، كم أحبُّ أن أستلقي نائمة طوال حياتي». لقد اعتادت أن تتأفَّف وهي في طريقها إلى المدرسة، وأن تقول متنهِّدة بائسة: «آه لو يستمر الشارع إلى النِّهاية، لا أريد الوصول إلى المدرسة».

لست أعرف إن كانت هذه مشاعرنا حينما كنا نذهب إلى المدرسة كلَّ صباح، ولكن ما أعرفه أنه عندما تحلُّ الظَّهيرة ويرنُّ جرس انتهاء الحصة الأخيرة، كانت تتبدل حالتنا الشعورية بشكل كامل، ويعترينا شعور عميق بأن هناك ما يُهوِّن علينا أعباء الدراسة بشكل فعلي، وأن هناك سببًا قويًّا يدفعنا للركض نحو بوابة المدرسة.

كُنَّا نهرع إلى البيت بطاقة عجيبة مُتجدِّدة، نقذف حقائبنا المدرسية في أول زاوية نراها، ونبرُم بعض الصَّفقات، ونقطع بعض العهود من أجل الاستيلاء على الرِّيموت كنترول، ثم ما نلبث أن نتسمَّر أمام شاشة التِّلفاز بلهفة طفولية متوقِّدة، وكأننا لم نبذل أي مجهود طوال اليوم المدرسيِّ، ربَّما لأننا نعرف بشكل حتميٍّ أن شاشة «سبيستون» ستكون بانتظارنا لتمسح عنَّا هموم اليوم ومتاعبه، وتربت على أكتافنا وتعيد الضِّحكة إلينا، لنكون جاهزين للوقوف على مسرح الحياة، وترديد الشارات الغنائيَّة بلسان مُنطلق وروح شادية، لنشكِّل جوقة رائعة مع فراشات الطُّفولة وأبطالنا الافتراضيين، والأحلام غير المرئيَّة لمن هم حولنا.

من فرط الأمان الذي كان يعترينا في كنف الشاشة الكرتونية، كنا نشعر ببهجة خفيَّة في أعماقنا حين نمرُّ بوعكة صحيَّة أو ظرف طارئ، فنضطر

إثر هذا إلى المكوث في البيت والغياب عن المدرسة، كان يغوينا هذا الأمر كثيرًا، حيث كانت هذه هي الطَّريقة الوحيدة التي تُمكِّننا من مشاهدة برامج الصَّباح، التي كانت تفوتنا بسبب دوامنا الدراسيِّ المعتاد، وقد كانت السَّاعات فيها تتقمَّص لحن الأغنية التي تقول: «في يوم صافٍ خرجت نحو البحر بطَّة، خرجت كي تلهو برمال البحر الأزرق..».

لم يكن جلوسنا أمام شاشة برامج الكرتون مجرد تزجية للوقت وتخفيف من أعباء الدراسة كما كان يعتقد معظم النَّاس من حولنا، فما إن كبرنا حتى أدركنا أننا كنَّا نجلس في مقاعد مدرسة من نوع مختلف، مدرسة لم نشعر يومًا بثقل ظلها علينا، ولم تُلزمنا بأي واجبات معقدة!

مدرسة زرعت فينا الرُّقي، والفصاحة، والأخلاق، والفلسفة، والنَّظرة الثاقبة، والحس التَّحليلي، والخيال الباذخ، والشعور المرهف، والقيم الإنسانيَّة، لتمتزج هذه الأمور وتشكِّل شخصيتنا بشكل تدريجيٍّ مختلف!

فما زلنا إلى هذا اليوم نتهجَّى الحروف الأبجدية ونحن نسترجع بداخلنا الأغنية التي تقول في استهلاليتها: «أحرف لغتي في أغنيتي من الألف إلى الياء».

نعدُّ الأرقام على وقع الأغنية التي تعلَّمناها مع «الأستاذ نبهان»، ونحفظ تفاعيل البحور الشعرية من خلال الأهازيج التي كانت تواظب القناة على تقديمها، تمامًا كما هو الحال مع المرفوعات من الأسماء، وضمائر الرَّفع المنفصلة، والحروف الإنجليزية.

نحاول أن نربُط بين الأشياء من خلال استراتيجية الرَّابط العجيب، الاستراتيجية التي برمجت عقولنا بشكل تحليليٍّ مذهل، وجعلت كلَّ الأمور ممكنة في نظرنا مهما استحالت!

ما زلنا نستذكر الأشكال الهندسية، وفقرة الإعراب، والدندنة، الفواصل الدينية والتَّعليمية والتَّرفيهية. ما زلنا نستنتج العبر من شارات البرامج، وأدق التَّفاصيل في المشاهد، كما لو كانت هي المدرسة الرَّئيسية!

بقيتْ معنا الذِّكريات الكرتونية بطريقة راسخة عجيبة، وصرنا نستشهد بها دون أن نشعر، ونتغنى بها دون أن نعرف، ونلجأ إليها كلَّما احتجنا إلى حضن دافئ، ونتسلح بمعانيها كلَّما احتجنا إلى جرعة صمود، ونملأ مسدساتنا بطلقاتها كلَّما اشتبكنا مع فلسفة الحياة وغطرسة الواقع وشيخوخة الظُّروف، وكأنَّما كانت سبيستون تجهِّزنا من أجل هذه الأيَّام الحالكة التي نعيشها الآن!

فيما كنت ما أزال أفكر في هذه الأفكار التي تملَّكتْ ذهني بُرهة من الوقت، وجدتني بشكل مفاجئ أقف أمام عيادة المدرسة. كان باب العيادة مغلقًا، مما جعلني ألقي نظرة إلى جانب الباب، فطالعني حينها اسم «الطَّبيبة جنى»، منقوشًا على لوحة رخامية.

مررتُ على الاسم مرور الكرام دون أن أشعر بشيء ذي قيمة، ولكن، فجأة، وما إن هممت بمواصلة السَّير حتى استدرت وأرجعت بصري نحو الاسم من جديد.

في تلك اللحظة، عادت بي الذَّاكرة إلى الوراء، وتذكرت نقاشًا دار بيني وبين أختي عن برامج الكرتون التي تعرفها. أخبرتني حينها عن فتاة طيبة تدعى «جنى»، ويُسمِّيها آخرون باسم «نوار»، وكانت تحلم أن يتحقق حُلمها وتصبح طبيبة ذات يوم!

قالت على ما أذكر، إن الفتاة متعلقة بمعلميها تعلقًا بالغ الأثر، وكانت تكنُّ لهم مشاعر الحب والامتنان، ولا تنفكُّ عن ترديد عبارة تقول: «أمدُّ اليدين، أقبل كفَّيكما الحانيين، فقد كنتما لي فؤادًا رحيمًا، وهناءً كما الوالدين».

لم أكن متأكدًا من دقَّة الكلمات، فلهذا مضيتُ أعيدها غير مرَّة في خلدي لعلِّي أقنع ذاكرتي أنني استطعت استحضارها بشكل سليم، وفي أثناء هذا، وفجأة، سمعتُ قرقعة منبعثة من أول الممر، فالتفتُّ بسرعة فإذا بالأستاذ «روميو» مُقبلٌ علي، وعلى ملامحه ابتسامة واسعة، ونظرة مُشرقة لا أعرف سرَّها.

ما إن وصل إليَّ حتى ربت على كتفي بطريقة ممازحة، وقد قال ضاحكًا:

- أراك واقفًا أمام العيادة، هل أنت مريض يا صديقي؟!

ضحكت حينها وقلت:

- لا يهمُّ إن كنت مريضًا أو لا، فعيادتكم مغلقة للأسف!

قال باسمًا وهو يحرك مقبض الباب بغية التَّأكد:

- لا يُفترَض بالعيادة أن تكون مغلقة. هذا غريب جدًّا! على ما يبدو أن الطَّبيبة مجازة اليوم. ربَّما حصل معها ظرف طارئ.

تبادلنا نظرة باسمة، وقد عدَّل ربطة عنقه بطريقة سريعة، ثم واصلنا السَّير إلى آخر الممر.

دلفنا بعدها إلى ممر آخر. كان هذا المرر يفصل الصُّفوف الابتدائيَّة عن باقي المدرسة. ظللنا نمشي ونتجاذب أطراف الحديث حول المدرسة وأجوائها إلى أن وصلنا إلى جداريَّة ممتلئة بالبراويز والصُّور المتنوِّعة. ثمَّة شهادات تقديرية وأوسمة برَّاقة تسلب الأنظار، إلى جانبها ثمَّة صور لطلاب متفوِّقين، يشعُّ الذَّكاء من سيماهم البادية في الصُّور.

إن أكثر ما لفت انتباهي في تلك اللحظة، هو التَّواريخ الزَّمنية المتباعدة بين الصُّور المؤرخة، فاستوضحت عن سر هذا، وعرفت من خلال الحديث أن هؤلاء الطُّلاب هم صفوة دفعاتهم الزَّمنيَّة التي درست في المدرسة، وأن هذه التَّواريخ الموسومة ما هي إلا تواريخ توثيقيَّة لعراقة هذا الصَّرح التَّعليميِّ.

امتلأتُ حينها بالفضول، ومضيتُ بنظرة مدققة أطالع الصُّور لعلِّي أعرف هوية بعض الطُّلاب الموجودين فيها.

في البداية، استوقفتني صورة لفتاة بشعر بنيٍّ مجعد وعينين لوزيتين جميلتين. تعتمر قبعة غريبة الشكل، وترتسم ابتسامة بسيطة على وجهها. أحسستُ أن الملامح مألوفة لديَّ، فسارعت إلى قراءة اسمها فوجدتُ اسمها «نادين»!

مضيتُ وقتها أقلب أرشيف الأسماء في ذهني، وبعد لحظة من الزَّمن، خفق قلبي وقد عنَّ ببالي تلك الطَّالبة المتميزة التي كانت تقول بثقة ذات زمان: «هذه تحيتي لكم يا أصدقاء، سآخذكم جميعًا لتروا كلَّ الأشياء، قد أكون بالعُمر صغيرة، لكن بالفعل كبيرة».

في تلك اللحظة ارتسمت على محياي ابتسامة، واكتفيتُ بالصَّمت ولم أعلق على الموضوع بأي كلمة، ثم ما لبثت أن انتقلت إلى الصُّورة التي بجانبها.

ركضتُ هذه المرة نحو الاسم قبل أن أدقِّق في ملامح الشخص الموجود في الصُّورة، فقرأت حينها اسم «كرم».

وبينما رُحت أتوسَّم هيئته، وقبل أن يخطر ببالي أي أمر، أشار «روميو» من تلقاء نفسه إلى أن هذا الفتى ينعم بحظٍّ وافر من العبقرية والذَّكاء، وعندما كان طالبًا كان يقول باستمرار إنه سيغير العالم عن طريق اختراعاته، وبالفعل، هذا ما حدث، حيث صار الآن مخترعًا ذا شأن عظيم.

ابتسمتُ وقتها وأنا أدقق بملامح الشخص، ونظارته عريضة الإطار، وقد قلت في نفسي: لعلَّه ذاته الفتى العبقري الذي كان يقول على الدوام: «اسمي كرم، وأنا مخترع صغير، وبقلمي وأدواتي سأفيد العالم الكبير».

هنا، تملَّكني الفضول بشكل أكبر، ومضيتُ أتنقل بين الصُّور وأنا واثق من أنني سأتمكن من معرفة المزيد من الطُّلاب.

وقع نظري هذه المرة على صورة لولد برأس كبير. كان يرتدي نظارة طبية، وكانت سحنته مألوفة لديَّ إلى حد ما. قرأت الاسم فإذا به «فهيم»!

أومضتُ عيني حينها وقلت في نفسي بحدس سبيستونيٍّ: لعلَّه هو ذاته ذلك الفتى الذي كانوا يصفونه قائلين: «فهيم المغامر، فهيم الجسور، يحب الخير يكره الشرور، شُجاع ذكي رقيق الشعور، لا يُحب الغرور!».

بعد ذلك، انتقلت بهدوء إلى الصُّورة التي تليها، فرأيت فتاة اسمها «سلمى». أحسست أن الاسم قريب إليَّ بعكس الملامح التي لم أشعر نحوها بأي ألفة.

تدخل «روميو» في تلك اللحظة وراح يقول:

- سمعتُ أن هذه الطَّالبة المتفوقة قد كانت فضولية لأبعد حد، بل كانت ملكة الفضوليين، إذ كانت لا تكف عن طرح الأسئلة عن كلِّ شاردة وواردة، مما جعل الطُّلاب يتذمَّرون من نزقها الفضولي الذي تحمله.

عند ذلك، ابتسمتُ، وخُيِّل إليَّ لوهلة أنني عرفت الطَّالبة. عادت بي الذَّاكرة إلى الوراء، وتذكرت الفقرة الشهيرة «سلمى تسأل» التي كانت تنشط بها، وقد صدح صوتها المشاكس الرَّنان في مسامعي.

ظللتُ حائرًا في موضوع فضولها الذي يشبه فضول الكثيرين من أبناء هذا الجيل المتعب، ولا سيما في ظل الواقع الصَّعب الذي نعيشه، وقلت في نفسي متنهدًا:

لعلَّ علينا ترويض الإنسان الفضولي بداخلنا، وأن نحاول كبح لهفته نحو معرفة ما وراء كواليس الأحداث، وخفايا الأمور والتَّعمق بكل شاردة وواردة، لعلَّ علينا الهروب من تلك الهموم التي ننبش عنها بمناجل علامات الاستفهام، فقد صارت قلوبنا السبيستونيَّة مُرهقة بما يكفي، وصار من الأفضل لسلمى أن لا تسأل بعد اليوم، فالأجوبة صارت جارحة بما فيه الكفاية!

على وقع هذه المشاعر التي اجتاحتني في تلك اللحظة الرَّاهنة، أكملت متابعة الصُّور المعلقة على الجدارية، إلى أن لفت أنظاري صورة جماعية لطلاب يرتدون زي الكشافة، ومن خلفهم معسكر تخييمي. قرأت الكلام الذي كُتب أسفل الصُّورة، فوجدت أن عمر الصُّورة عشرون عامًا ونيف.

حينها، نَصبْتُ خيمة الذِّكرى وجلست في أفيائها، فشعَّت في المخيِّلة أضواء «مخيم الكشافة». ذلك المخيم الكرتوني الذي كان أفراده يهتفون فيه ذات زمان بكل شغف وجسارة:

*نتعلم أشياء جديدة، نتدرب بمهارة*
*نرحل والرحلات مفيدة، والأيَّام إثارة.*

مضيتُ أدندن لحن الأغنية في جوانحي، وقد خيَّمت الابتسامة على صفحة وجهي، قبل أن تواصل حدقات عيني التَّنقُّل بين الصُّور المتبقية.

في غمار هذا، ألفيت نفسي أقف أمام برواز ذهبي كبير الحجم. كان البرواز معروضًا على امتداد الحائط بشكل لافت ومثير للاستغراب، وقد رأيت من خلاله صورة لإحدى السيِّدات!

اضطررت إلى أن أعود خطوتين إلى الوراء حتى أتمكن من رؤية ملامح السيِّدة بوضوح تام. رأيت وقتها سيِّدة منسدلة الشعر، بملامح تبدو في منتهى الرِّقة والسُّمو، تضع في إصبعها خاتمًا مرصعًا باللازورد، وتغفو على

صدرها قلادة ذهبيَّة لم أر مثلها من قبل في حياتي. كما كان يظهر عليها سيماء النُّبل والثراء، كأنَّما هي كونتيسة في أحد القصور.

فجأة، اتَّسعت حدقتا عيني وأنا أطالع ملامح السيِّدة، وللحظة من الزَّمن عرفتها ولم أعرفها.

وبينما كان الذُّهول يسيطر علي، وجدت روميو يقول مُعرِّفًا بهويَّة السيِّدة بأنها مالكة المدرسة، وصاحبة العديد من المؤسسات الخيريَّة في البلاد، وأردف يشرح كيف أنها تنحدرُ من عائلة أرستقراطية شهيرة، وكيف أنها عانت كثيرًا في بداية حياتها، قبل أن ترث ثروة هائلة عقب وفاة أبيها في حادث مؤسف.

في هذا الوقت، وبشكل فوريٍّ، وفيما كنت أطالع الصُّورة، لمعت تفاصيل قصتها كلمعان مناجم الألماس التي ورثتها هذه السيِّدة النَّبيلة ذات زمان!

تذكرتُ كيف تحولت إلى خادمة في المدرسة، بمجرد أن أعلنت عائلتها الإفلاس، وكيف تحولت حياتها إلى جحيم عنوانه الفقد والحرمان.

ما زلت أتخيَّل هيئتها عندما طردتها الآنسة «منشن» في ليلة ثلجيَّة قارسة، وعندما أوسعتها ضربًا مُبرحًا، وأجبرتها على تقشير أكوام من البطاطا.

ما زلت أتخيل طيف دميتها التي كانت لا تبارح أحضانها، وكأنما هي من كانت تصبرها على اللحظات القاسية التي كانت تجثم على صدرها.

لست أدري، ولكن بعد أن عادت إلى مكانتها الطَّبيعية في المجتمع، وعلى الرغم من أنها سامحت كلَّ من أساء إليها، فإنها على ما يبدو لم تنس ما حل بها في تلك الأيَّام العصيبة.

ولعلَّها الآن تثأر من معاناتها القديمة على طريقتها الخاصة. تحاول الانتقام من أشواك ماضيها من خلال زرع الورود في حدائق حاضرها. تحاول تعويض الصِّحة النَّفسيَّة التي خسرتها من خلال صنع حياة جديدة تليق بها.

مضيتُ مشحونًا بهذه الأفكار، أحدق إلى صفاء عينيها السَّاكنتين الحزينتين خلال الصُّورة المعروضة، ثم للحظة من الزَّمن، أخذت أحدثها كما لو كانت تسمع كلماتي:

عزيزتي الآنسة سالي، لعلَّ بداية اكتئابنا الكرتوني كانت على يديك، ولعلَّ حزنك التَّراجيدي انتقل إلينا منذ الصِّغر بطريقة عجيبة، ولكن لم نشعر بهذه العدوى إلا عندما كبرنا، فنحن لم نتوقع أن تظلم الحياة صدورنا بهذا الشكل المريع، وأن تغتال أصدق مشاعرنا بهذه الطَّريقة البشعة، وأن نتجرع الفقد على هذا النَّحو المتتابع. أن تتكدَّس أحلامنا في ملجأ ضيق الاتساع، أن نصادف الكثير ممن يشبهون الآنسة «منشن» في حياتنا، بغطرستها واستبدادها وظلمها، وقد صار كلُّ شيء حولنا يتقمَّص ألحانك الحزينة، ليهتف قائلًا بصوت مُنتحب: «أنا قصة إنسان، أنا جرح الزَّمان».

ومع ذلك، ما زلنا نكافح ونناضل ونسامح ونثابر ونحاول الصُّمود. نعيش في حنين دائم لوقع المطر.. المطر الذي يسقي ما جف من رحيق أيَّامنا الذَّابلة، ويروي أيَّام عمرنا الظَّامئة، ولياليِنا المشتاقة لصوت زخاته على نوافذ قلوبنا المهجورة.

ما زلنا نستجدي أضواء القمر، وننتظر أن تتجدد نبضات قلوبنا التَّالفة، وجدران أرواحنا المستهلَكة، أن نتمسك بالأمل ونحن نهتف كالأطفال الحالمين في أول أعمارهم: «يا نور الأمل الطَّالع، بدِّل أحزان العمر، كي نلمح نور الفجر، كي نحلم مثل الزَّهر».

* * *

# 28

خلال فترة الظَّهيرة، وفي تمام السَّاعة الثانية عشرة، انبعث صوت زامور حاد من ساحة المدرسة الخلفية، إيذانًا باقتراب موعد انطلاق الرِّحلة الطُّلابيَّة المنتظرة.

فيما كان الطُّلاب المشاركون في الرحلة يفدون تباعًا إلى السَّاحة، وبينما كنت أقف أطالع المشهد من حولي، لمحتُ في أحد أركان السَّاحة حافلة مدرسيَّة منزوية على نحو مثير للفضول، إذ لم تكن هذه الحافلة كغيرها من الحافلات التي تصطفُّ من حول أسوار المدرسة.

كانت حافلة كبيرة الحجم، صفراء اللون، مكتوبًا عليها بعض الكلمات بخط فاه، لا يستطيع الرَّائي أن يقرأه ما إن نظر إليها. كما يظهر عليها أنها من طراز قديم، لم يعد قيد التَّشغيل والاستخدام في هذه الأيَّام.

شيء ما شدَّني نحوها ودفعني للسؤال عن سرِّها، فعرفت من خلال الحديث أنها حافلة كانت ذات زمان تقلُّ الطُّلاب في رحلات علميَّة متنوِّعة، ونظرًا إلى إمكاناتها الاستثنائيَّة الخارقة التي كانت تتحلَّى بها، ولسرعتها الفائقة التي ليس لها حدود، كانت هذه الحافلة تختصُّ بالرحلات الخطيرة التي لا يمكن للحافلات العاديَّة أن تخوضها.

ما إن عرفت هذا حتى سرح بي الخيال، فركبتُ حافلة الذِّكريات، وقبل أن أضع الحزام وأنا جالس في مقعدها، وبشكل فوريٍّ تذكرت «باص المدرسة العجيب»!

ذلك الباص الرَّائع الذي كانت تحدوه المغامرة وحُبُّ الاستكشاف، وتقوده الآنسة فاتن بكل شغف وعنفوان وحيويَّة، في أجواء مغمورة بالمفاجآت والضَّحكات والمخاطرات، وكان الطُّلاب يقولون عنه على الدوام: «باص ويحلِّق في الأجواء، يغوص لأعماق الأشياء، يجول بنا كي نتعلم، هذا هو باص المدرسة..».

ظللتُ في تلك البُرهة مكفهرَّ الوجه للحظات.

لم تفتر شفتاي عن أي ابتسامة حيال هذا الباص، ذلك أن ذكريات الحياة الواقعية تغلبت على أطياف الذِّكرى الكرتونية، ومضيتُ أفكر في علاقتي المعقَّدة مع باص المدرسة الذي كنت أركبه في أيَّام الدراسة الأولى.

آنذاك، كان زامور باص المدرسة يخلق لديَّ حالة فظيعة من الرُّعب الخفيِّ، لا أعرف إن كانت كلمة رعب مناسبة لوصف هذه الحالة، ولا أعرف إن كان هذا أمرًا طبيعيًّا، أو ضربًا من ضروب الفوبيا المستعصية، ولكن ما أعرفه أنني كنت أخشى أن يفوتني الباص لأي سبب كان، ومن أجل تدارك هذا كنت أجتهد في الاستيقاظ بشكل مبالغ، وأسارع إلى الوقوف أمام باب البيت قبل قدوم الباص بمدة ليست بالقصيرة.

لست أدري، ولكن أشعر أن الخوف الذي كان ينتابني حيال تأخري عن باص المدرسة ما يزال يُلاحقني إلى هذا اليوم بشكل غريب، وكأنما صارت عقدة نفسية لا أستطيع الفكاك منها ولا الفرار من لعنتها، فما يزال زاموره الحاد يزعق في مسامعي، وأصوات محرِّكه تهمر في رأسي، وكأنما ينتظرني الآن أمام البيت ولا يريدني أن أتأخر أكثر من هذا. لا أجد تفسيرًا لهذا النَّوع من المشاعر، ولكن على الأرجح أن باص المدرسة تغيرت صفاته التي عرفتها في طفولتي، وربَّما تغير اسمه وصاروا يسمونه قطار العمر!

على وقع هذه المشاعر الحائرة، مضيتُ بفارغ الصَّبر أنتظر ما سيحدث بشأن الرِّحلة التي سأمتطي صهوتها في سبيل الوصول إلى المحطة الأخيرة من رحلتي الكرتونية.

استغرق الأمر نصف ساعة بالتَّمام والكمال حتى امتلأت مقاعد الحافلة، وما إن حانت اللحظة المنتظرة حتى ودَّعت «روميو» وشكرته على العون

الذي قدمه لي، واللطف الذي غمرني به منذ اللحظة الأولى التي رسوت بها على شاطئ البلدة.

كانت عيناه صافيتين جدًّا، كأنما تبرمان معي عهد صداقة من نوع استثنائيٍّ لم أحظ به من قبل، أو هكذا خيِّل إليَّ من فرط الاحترام الذي أكنه لهذا الشخص منذ أيَّام طفولتي.

ما إن جلستُ بين الطُّلاب متخيِّرًا أحد المقاعد الفردية، وما إن تأكد السَّائق من أن الجميع قد استقرَّ في مقعده حتى انطلقت الحافلة في رحلتها وسط هتافات الطُّلاب المتحمسة.

كان أول ما فعلته في هذه الأثناء، هو إخراج الكارت الذي كتب عليه عنوان المكان الختاميِّ، طالعته لبضع دقائق وقد هجستُ بالعديد من المخاوف، قبل أن أقرر تجاهل كلِّ الحسابات والاستمتاع بالرحلة قدر المستطاع.

مع مرور الوقت، وفيما كان مكيِّف الحافلة يخفف علينا من وطأة حرارة الشمس، كان الطُّلاب يتضاحكون بمُنتهى المرح والألفة والصَّداقة والحماس، وقد كان وقتها مسجل الحافلة يصدح بالأغنية السبيستونيَّة التي تقول:

«شمسٌ سطعتْ والجو جميل هذا اليوم، وفراشاتٌ قد قالت هذا فصل الصَّيف، ورفيقاتي قلنَ: هيَّا للنزهة هيَّا، ما أجمل هذه الرِّحلة هيَّا يا أصحاب..».

ارتسمت حينها ابتسامة واسعة على صفحة وجهي، ومضيتُ مشدوهًا أستمع للطلاب وهم يرددون الكلمات مع الأغنية، بالطَّريقة ذاتها التي صار يرددها جيل بأكمله.

بعد لحظات، أحسست أن الملل قد بدأ ينال منِّي، فصرت أطالع الأشياء التي تريني إياها النَّافذة الموجودة بمحاذاتي، ومضيتُ أتنزَّه ببصري بين المشاهد المتحركة من حولي.

في غمار هذا، وفجأة، تراءى لي في البعيد برج مائي قديم في نهاية حدود البلدة، لم أكن متأكدًا إن كان برجًا مائيًّا بالفعل، ولكن هذا ما تصورته في تلك اللحظة.

للوهلة الأولى لم يخطر ببالي أي شيء.

أحسست أنه أمر عاديٌّ لا مثار فيه ولا غرابة، ولكن بعد لحظة من الزَّمن، حضرني مشهد مُستلٌّ من الماضي، وبحاسة الاستبصار الكرتونية، لا أعرف لماذا تذكرت الإخوة «الضَّاحكون»!

تلك الشخصيات المشاكسة التي استطاعت الفرار ذات يوم من أحد المراسم الكاريكاتيرية، بعد أن تمردت على الرَّسام الذي رسمها، وصارت لا تنفكُّ عن القيام بأعمال شغب من كلِّ الصُّنوف والألوان، إلى أن ألقي القبض عليها من شرطة الرُّسوم المتحركة، وزُجَّ بها في برج منفيٍّ، برج شبيه بذلك البرج المائي الذي رأيته للتو!

خلال هذا..

تذكرتُ نشيد أسماء بلاد العالم الذي كان يردده «ياكو» بطريقة إبداعيَّة رشيقة، وتذكرت الأجواء المشاكسة التي كانت تغمر تلك الشخصيات!

لست متأكدًا من استحقاقيتهم للسجن، ولكن ما كان مؤكدًا لي أنه وعلى الرغم من كلِّ الشغب الذي كانوا يقومون به، ما أحوجنا إلى أن يعيش الضَّاحكون بيننا، فهذه الأرض حزينة أكثر مما ينبغي، شاحبة الملامح أكثر مما هو مفترض، مُتلبِّدة المشاعر أكثر مما يتحمله المنطق، ولا توجد نكتة واحدة تدغدغ عواطفها، وتجعلها تنفجر ضاحكة من أعماق قلبها.

دون أن أتحدث مع أي طالب من الطُّلَّاب الذين كانوا من حولي في الحافلة، استكنتُ وركنتُ رأسي إلى النَّافذة، مواصلًا التَّحديق إلى معالم الطَّريق التي كانت تمر بها الحافلة بشكل تتابعي.

بعد أن قطعنا العديد من الكيلومترات، تبدَّلت البيئة الجغرافية من حولي، وصرت لا أشاهد إلا أعمدة وحجارة أثرية بأشكال متباينة غريبة، منها ما هو مرصوف ومُتماسك، ومنها ما هو عشوائيٌّ منقوض مُبعثر، كأنما هي أنقاض لمدينة من الزَّمن الغابر!

استفزَّني المشهد التَّاريخيُّ ودفعني للتمحيص عن هويَّة المكان الذي وصلنا إليه، فنثرت سؤالًا في هواء الحافلة بشكل عشوائيٍّ!

فتلقَّفه أحد الطُّلاب وانبرى متحمسًا يقول إن أصل هذا المكان يعود إلى العصر الحجري القديم، مُشيرًا إلى أن المدرسة قد خصَّصت يومًا لزيارته في وقت سابق...

إنَّ هذه الإجابة جعلتني أسرح في خيالي وأعود بالذَّاكرة إلى الوراء، حيث خطر لي بشكل تلقائي أن تكون هذه المدينة الشاخصة أمام عيني قد تكون ذاتها هي مدينة «فلينستون»!

وتبعًا لهذا، انبثقت في ذاكرتي صور أولئك الأشخاص الذين «عاشوا منذ أقدم العصور، عاشوا في مدينة الديناصور» كما كانت تقول أغنية البرنامج!

كنا نتعجَّبُ من طريقة ارتدائهم لأشباه الثياب، ونضحك بين أنفسنا ونحن نراهم يسوقون سياراتهم بأرجلهم الرَّاكضة، ونتفاعل معهم حين نراهم يعبِّرون عن لحظات انفعالهم من خلال الكلمة الغريبة الممطوطة «يابادابادو»!

لم نلمس البون الشاسع بين الأزمنة والعصور في ذلك الحين، وعلى الأرجح لم يكن يهمنا هذا بقدر ما كانت تهمنا الأحداث الدائرة بين الشخصيات الحجرية، «ريما» و«بارع» و«سلمى» و«فريد»، وكأنَّ مسألة الزَّمن برمته ليست مهمة لدى ساعات قلوبنا!

ولكن عندما كبرنا وحاولنا مصافحة الزَّمن وضبط عقارب ساعاتنا على توقيت الواقع الذي يحيط بنا، اكتشفنا أننا ننتمي إلى زمن يختلف كلَّ الاختلاف عن الزَّمان الذي نعيش فيه، وهنا كانت المشكلة المعقدة التي لم يستوعبها أحد من حولنا، وظللنا نشعر بها كغصَّة عالقة في صدورنا عند كلِّ لحظة نشعر بها بالاغتراب، وعند كلِّ محطَّة نشعر خلالها بالضَّياع، ولعلَّ هذا هو السَّبب الحقيقي وراء تحنُّط مشاعرنا في كثير من الأوقات، وشعورنا العميق بأننا مجرد مجسَّمات أثرية داخل متحف مهجور لا ينتمي إلى هذا الوقت!

واصلت التَّحديق من خلال النَّافذة على مضض. تبدَّلت العديد من الأمكنة أمام ناظري، وصارت أكثر حداثة من المناطق الأثرية التي مررنا بها.

مررنا بمجموعة من المسطَّحات الخضراء. لم يكن فيها ما يلفت الانتباه سوى العديد من طواحين الهواء العملاقة، تتحفَّز أذرعها لتوليد الطَّاقة عند أول هبَّة للرياح!

ما هي سوى بُرهة من الوقت حتى وصلنا إلى منطقة تعجُّ بالقباب والأشكال الهندسيَّة غير المألوفة، بالإضافة إلى وجود أعمدة كهربائية من نوع مختلف لم أعهده من قبل، ووجود شاشات منتصبة عملاقة، وأجهزة إلكترونيَّة غريبة لا أعرف الغاية من وجودها!

حرَّضني الفضول حينها على الرُّجوع إلى الطَّالب ذاته الذي أجابني قبل لحظات، لعلِّي أجد لديه ما يخفف عني حيرتي، غير أن الطَّالب هذه المرة هزَّ رأسه، وقال إنه لا يعرف شيئًا عن المكان، ولكن سُرعان ما قفز طالب آخر، وقال بنبرة فوريَّة:

- أنا أعرفها يا أستاذ، إنها مدينة الاكتشاف والمعرفة.

هززتُ رأسي باسمًا على مضض.

لم تكن هذه الإجابة كافية دالَّة بالنِّسبة إليَّ، بل أشعلت الفضول بداخلي بشكل أكبر، فاستوضحت منه إن كان يعرف شيئًا أكثر عنها، فقال بنوع من التَّفاخر والاعتداد بالنَّفس:

- ذهبت إليها برفقة والديَّ ذات يوم، إنها مدينة رائعة جدًّا، تُتبادَل فيها المعلومات والدروس المفيدة، كما يوجد بداخلها الكثير من الألعاب الثقافية القيِّمة.

سكت الطَّالب بعدها ولم يضف شيئًا آخر.

أرجعتُ النَّظر واستدرت بسرعة كي ألحق ما تبقى من هذه المدينة التي اختفت شيئًا فشيئًا بسبب حركة الحافلة، وقد شغلت حيِّزًا من تفكيري.

إذ خطر لي لوهلة أن تكون هي ذاتها «مدينة المعلومات»، التي كانوا يصفونها ويقولون عنها: «مدينة جميلة صاغها الخيال، من زهر الحياة، من بين الرِّمال، خرجت بحلَّة، يرنو إليها العقل، وتمرحُ فيها المعلومات..».

لم أكن أعرف مدى إمكانية أن تكون هذه المدينة موجودة على أرض الرُّسوم المتحركة بالفعل، ذلك أنها وعلى الرغم من أنها تحمل الرَّائحة السبيستونيَّة، فإنني لا أذكر أنها احتضنت أي شخصيَّة كرتونيَّة!

على كلِّ حال، ومهما كانت حقيقة الأمر، وجدتُ نفسي أستحضرُ الأجواء الرَّائعة التي كانت تنعم بها تلك المدينة الزَّاخرة بعوالم الإبداع ودنيا المعرفة،

والأطفال التَّواقين للاستطلاع والاستكشاف، الممثلين الذين كانوا يشاركونهم هذا الشغف، والاختراعات والآلات النَّاطقة الحديثة، وغيرها من الأمور الجميلة التي لن يعرفها سوى من شاهد البرنامج!

مع مواصلة دوران عجلات الحافلة، كانت عجلات تفكيري تدور على كلِّ منطقة نمرُّ بها بشكل تتابعيٍّ، وكأنها لا تريد لمنطقة أن تعتب عليها.

بعد بُرهة من الوقت، مررنا هذه المرة بمدينة رياضية واسعة مترامية الأطراف، وما إن صرنا بمحاذاتها حتى تعالَتْ هُتافات الطُّلَّاب بحرارة الرِّياضي الماكث في أعماق كلِّ واحد منهم.

ابتسمتُ حينها وتذكرت نفسي حينما كنت لا أفوِّت حصَّة رياضيَّة واحدة في المدرسة، إذ كنت أضع هذه الحصَّة في كفَّة، وبقيَّة الحصص في كفَّة أخرى، وكأنما كنت أرى الدنيا بأسرها ملعبًا لكرة القدم!

أمام أنظارنا كانت المدينة الرِّياضية تتباهى بملاعبها العشبيَّة الواسعة، وخلتُ من فرط اتِّساعها أنها تحتضن كلَّ الرِّياضات التي لا تخطر على البال.

في تلك الآونة، تأزَّم الطَّريق على نحو غريب، اكتظَّ المكان بالسَّيارات وصارت الحافلة تتحرك بالكاد بين الحشود، مما سنح لي أن أركز في معالم المدينة الرِّياضية بشكل أوضح، وأتذكَّر أطياف الذِّكريات التي كانت تركُل الكرة في ملاعب طفولتي.

خلال هذا، رأيت ملعبًا ترابيًّا واسعًا لا يتبدى فيه أحد. حدَّقت مليًّا إلى زوايا الملعب، ولكن لم أستطع التَّنبؤ بنوعية الرِّياضة التي تمارس فوقه.

افترضت على مضض أن تكون إحدى رياضات ألعاب القوى التي لا أعرفها، ثم ما لبثت أن غيَّرت رأيي وفكَّرتُ بشكل سبيستونيٍّ أعمق.

هُنا بالتَّحديد، تعفَّر تراب ملعب «الرمية الملتهبة» في ذهني، والأجواء الحماسيَّة التَّنافسيَّة التي كانت تملؤه، فلمحت في خيالي ذلك الفتى قصير القامة وبارق العينين، وهو يقفز للأعلى لينفِّذ رميته المعهودة، ولا يتوقف عن ترديد عبارته المفعمة بالشغف والطُّموح: «أجمل أوقاتي هي حين أمارس كرة اليد، هي حُلم حياتي، فيها اللعب وفيها الجد».

ابتسمتُ وكرَّرتُ العبارة في داخلي دون أن أتعمق بشكل أكبر في هذا البرنامج، حيث استحوذت ملاعب كرة القدم على انتباهي!

اعتراني شعور عنيف ملأ جوانحي الرِّياضية، وجعلني أربط حذائي بسرعة بالغة، وأركض في تلك الملاعب برفقة العديد من الأسماء الكرويَّة اللامعة، التي عرفتها راكضة على عُشب الملاعب الكرتونيَّة.

تذكرتُ الكابتن ماجد، وصديقه المخلص ياسين، وخصمه اللدود بسام، والحارسين البارعين رعد ووليد، والأجواء المثيرة التي كانت تتحرك مع تحرك كلِّ قطرة عرق على وجه اللاعبين، ومن برامج أخرى تذكرت الكابتن رابح، والكابتن سيزار، والكابتن ثابت، والكابتن شامل، والكابتن عماد، وومض في ذهني كيف رحل هذا الأخير إثر أزمة قلبية بعد أن راوغ فريقًا بأكمله وسجَّل هدفًا لا يُنسى!

في ذلك الزَّمن، كنا نتابع اللاعبين وهم يحلقون في الهواء لساعات متواصلة. كان الحماس لا ينفد، والركض خلف الكرة لا ينتهي. كنا نلوِّح ونهتفُ بأننا جيل رابح مهما حدث، وأن بإمكاننا أن نعدل النَّتيجة مهما كانت الظُّروف، وكان الهتاف حينها «هتافًا يتعالى مثل أمانينا، فيبعث فينا عزمًا ويقينا».

كنَّا نؤمنُ بشكل عميق أن «ملعبنا مسرحُ أبطالنا». كنَّا نتهجَّى الحروف ونؤوِّلها واحدًا تلو الآخر مع أغنية «الشبح»، وكنا نردد بكل اندفاع وإقدام بطولي: «سجِّل أهدافًا لا تيأس لا تخشَ المرمى». كنا نتغنى بكل اعتزاز مع كلمات الأغنية التي تقول: «رابح بطل حُر عربي، قد أصبح رمزًا في اللعبِ»، ونردد بكل جوارحنا مع الأغنية الحماسيَّة: «شوت.. شوت.. شوت»، فترتفع نسبة الأدرينالين بطريقة عجيبة في كلِّ خلية من خلايا أجسادنا، نُمنِّي أنفسنا أن نتقن تسديد إحدى الرَّكلات الشهيرة التي عرفناها في ذلك الوقت: تسديدة مخلب النِّمر، الضَّربة السَّريعة، الضَّربة السَّاحقة، الضَّربة الصَّاروخيَّة، الضَّربة السَّرابيَّة، التَّسديدة اللولبيَّة، رمية أكيلا، ضربة الصَّاعقة...

على نحو جنونيٍّ غريب، كنا على استعداد أن نتابع تسديدة واحدة على مدار حلقات كرتونيَّة متتابعة، دون أن نشعر بأي نوع من أنواع الملل أو الانزعاج، لا أعرف السَّبب الحقيقي وراء هذا، ولكن ربَّما ما كان يعزينا في لحظات الانتظار تلك هو إيماننا بأنَّ الكرة ستصل إلى هدفها مهما طال الوقت.

ولكن، ما إن انطلقت صافرة العُمر وركلنا ركلة البداية في ملاعب الواقع، حتى اكتشفنا أن اللعبة شائكة جدًّا، وأنَّ كلَّ دقيقة انتظار ننزفها داخل ساعة قلوبنا، قد تسرق منَّا عُمرًا كاملًا من الأمان، وقد تمنحنا عُمرًا كاملًا من الخوف والقلق، حيث إنه لا يوجد ضمانات لشيء، ونخشى أن يطول الانتظار بنا دون أن تصل تسديداتنا إلى هدفها المطلوب، فيقع العُمر حينها في مصيدة التَّسلل، ولا ننال منه إلا الأمل المزيف، والفرح المشبوه.

لست أدري إن كان الخلل في أرضية الملعب الذي نلعب فوقه، أم في جاهزيتنا للوقوف على أرضيته! لا أعرف إن كان الخلل في طيش تسديداتنا أم في غرابة الأهداف التي نصبو إليها! ولكن ما أعرفه أننا نستحق تمزيق شباك حزننا رغمًا عن كلِّ المُعطيات، وأن نركض ونراوغ الزَّمن رغمًا عن كلِّ حصار، وأن نسجل ولو هدفًا حقيقيًّا واحدًا في مرمى هذه الحياة.

على وقع هذه المشاعر الحائرة، وفيما كان الطَّريق ما يزال مزدحمًا، تركنا ملاعب كرة القدم، وصرنا بمحاذاة صالات رياضية مسقوفة.

بشكل فوريٍّ، خطر لي أنها ملاعب لكرة السَّلة أو كرة الطَّائرة، فانتشيتُ وأيقنتُ في تلك اللحظة أن مشاعري الرِّياضية ستظل متأجِّجة لمزيد من الوقت، ككرة مطاطيَّة مجنونة لا تعرف الرُّكود.

مضيتُ أنطِّط هذه الكرة، وقد تذكرت لوهلة ما كان يحدث في برنامج «سلام دانك»!

تداعت الصُّور، وصدح في مسامعي صوت كرة السَّلة وهي تقفز في كلِّ زاوية من زوايا الملعب. صوت الأحذية المطاطيَّة التي لا تعرف الهدوء، والأجواء الحماسية المشتعلة التي كانت تندلع من المدرجات المكتظَّة، ممزوجة بأهازيج الجماهير، وتراشقهم للعبارات الانفعالية، إلى جانب التَّعليقات الرِّياضية التَّحليلية التي كانت تبرق في الأذهان بين الفينة والأخرى.

تذكرتُ الأرضية الملساء اللامعة. قطرات العرق التي تنزُّ من جباه اللاعبين بلا توقف، مراوغاتهم الذَّكية لخصومهم، والرميات السَّاحقة التي كانت تزلزل السَّلة من حين لآخر.

وبشكل رائع مُنساب، مضيتُ أستحضر أسماء لاعبي فريق الصُّقور الأصيل: حسان، سعد، فادي، جواد، بدر، سُهيل.. كتيبة المدرب غسَّان، ذلك

المدرب الهادئ الذي كان لا ينفكُّ عن احتساء السَّوائل السَّاخنة، أو لنقل «أبو نغنوغة» كما كان يحلو لصاحب الشعر الأحمر أن يطلق عليه، ولا سيما في اللحظات الحاسمة الحرجة التي كان يطمع فيها أن يقنعه بالمشاركة، والدخول إلى أرضية الملعب.

وقتذاك..

كنا نُعاين بدايات حسان الرَّعناء الطَّائشة، نضحك على تعليقاته التَّافهة، ونراقب تسديداته الهوجاء، ويعترينا شعور بائس عندما كان يُطرد من الملعب بسبب أخطائه المتكررة، وعندما كانوا ينعتونه بالمهرج دون أن يؤمنوا بقدراته الدفينة، أقصد «قُدراته العبقرية» على حد وصفه.

كُنا نشعر بطاقته الكامنة حينما يقطِّب جبينه وتصبح ملامحه جادَّة حازمة وأنفاسه حارَّة متأهبة، وكأنَّما على وشك أن ينفجر إبداعًا وتوهجًا، ولكن ما إن تتبدَّل هذه الملامح وتعود إلى طبيعتها السَّاخرة حتى نعرف وقتها أنه سيتفوَّه بكلماتٍ ساذجة، ويتصرَّف تصرفات بلهاء كما اعتاد أن يفعل في مُعظم الحلقات.

قال له أحدهم ذات يوم: «إن من يُسيطر على المرتدَّات يكسب المباراة» ففهم هذه الفلسفة وحرص على إتقانها بكل السُّبل، حلق شعره على نحو خفيف، وأقام معسكرًا تدريبيًّا سريًّا من أجل تطوير مهاراته، وإتقانه للرَّمية السَّاحِقة التي طالما كان يحلمُ بتنفيذها.

كافح وثابر في هذا على نحو بطولي، تجاهل كلَّ الأصوات المحبطة المنتقصة منه، إلى أن صار لاعبًا من طراز استثنائيٍّ ليس له مثيل.

هذا اليوم فحسب، أشعر أننا نشبه «حسَّان» في بداياته المخفقة والمتاعب التي كان يُكابدها على أرضيَّة الملعب، فتسديداتنا باتت طائشة لا تركيز فيها، وتفتقر إلى الدوافع الحقيقيَّة التي تشحنها بالإرادة والمكافأة والتَّشجيع، ومن فرط الأخطاء التي نقع بها صرنا نخشى أن نُطرد من ملاعب الحياة، قبل أن ننفذ «السَّلام دانك» ولو لمرة واحدة في سلة هذا العُمر.

بعد لحظات، وفيما كنت ما أزال أنطط الكرة بين المفارقات والذِّكريات، وبينما كانت الحافلة تواصل سيرها المتباطئ، أبصرتُ من خلال النَّافذة مضمارًا مهيبًا واسعًا للسيارات.

حدَّقتُ إلى كلِّ زاوية فيه، وأدرت بشكل تلقائي عجلات الذَّاكرة السبيستونيَّة، فأوصلتني إلى العديد من المضامير المختلفة التي عرفتها ذات زمان.

أومضتُ عيني للحظات..

فتخيَّلت خلال هذه الومضة أولادًا يركضون خلف سياراتهم الصَّغيرة في أجواء تنافسية حامية الوطيس، وقد سمعت هتافاتهم التي لا تعرف الانقطاع، وأصوات محركاتهم التي لا تعرف التَّوقف، سمعت صيحات الأخوين «سابق ولاحق» وهما يلتحمان مع سيارتيهما ويطلبان منهما الصُّمود من أجل الفوز.

لم يقتصر ولعي بهذا البرنامج على مشاهدة السَّيارات وهي تحطم بعضها، وتتبارى من أجل الوصول إلى خط النِّهاية فحسب، بل أذكر أنني ألححتُ ذات يوم على والدتي لتشتري لي سيارة مماثلة، وهذا ما حدث بالفعل وقتذاك!

ما زلت أتذكر كيف ما إن صارت السَّيارة في حوزتي حتى مضيتُ أدور بها كالمجنون داخل مضمار نحاسي.

كنت أدور بكل اندفاع وشغف بجسدي الصَّغير. يتصبَّبُ العرق منِّي وأنا لا أتوقف عن تلقين الأوامر للسيارة كما لو كانت تصغي إلي، وأمنِّي النَّفس بروح طفولية حالمة، بأن تحلق في السَّماء وقت الحاجة، كما كانت تفعل السَّيارة «ماجنام» في اللحظات الحاسمة من عُمر السِّباق.

كنت أظلُّ على هذه السَّجيَّة الحماسية حتى نفاد بطارية السَّيارة بالكامل!

يبدو الأمر جنونيًّا بالنِّسبة إليَّ الآن، وساذجًا للذين لم يعرفوا شيئًا عن هذه الأجواء العارمة بالجنون.. ولكن أزعم أن الكثيرين من أبناء جيلي جربوا هذا الأمر ذات يوم، إن لم يفكروا في تجربته على الأقل!

في مضمار الطُّفولة..

كُنَّا نتخيل أننا في المضمار برفقة الأخوين «سابق ولاحق»، كنا نريد أن نثبت أننا «الأمهر في السِّباق بعزمنا» بأي طريقة كانت ولكن عندما كبرنا وتعمقنا في فلسفة مضمار الحياة أدركنا أنه ليس هنالك شيء اسمه «سابق ولاحق»، ليس هنالك أحد في المضمار سوانا، وأننا لا نتنافس إلا مع النُّسخة القديمة منَّا وحسب.

نحاول تضميد جراحنا والتَّفوق على أنفسنا، نحاول فعل هذا ونحن متسلحون بالعبارة التي تقول «لن يُهزم أبدًا من سعى» لعلَّ جهودنا تكلل بالنَّجاح، ونصل إلى خط نهاية السِّباق بأفضل طريقة ممكنة، فنتمكَّن حينها من القول بنبرة مُشبعة بنشوة الانتصار والوصول: «بالعمل، حُلمنا سار معنا ووصل».

بعد لحظات..

وفيما زادت الحافلة من سرعتها بعد أن خفَّ الازدحام، اختفت أسوار المدينة الرِّياضية من المشهد برمته، وفي غمار هذا، وفجأة، تسللت رائحة نتنة غريبة من شقوق النَّوافذ، فسارع الطُّلاب إلى تكميم أنوفهم وقد أهاب السَّائق بهم أن يحكموا إغلاق النَّوافذ.

في تلك اللحظة..

رفعت رأسي وحدقت إلى المنطقة التي وصلنا إليها، وسُرعان ما خِلتُ إنها رائحة روث الخيول ومخلفاتها، حيث إننا وصلنا إلى أرض فسيحة تعج بالعديد من ميادين الفروسية وبعض الإسطبلات التي كانت تُتاخم أحد المروج الخضراء التي تخلب الألباب.

ارتفعت الرُّؤوس واتَّسعت الأحداق وراح الطُّلاب يطالعون الإسطبلات من خلال النَّوافذ المغلقة.

شاطرتُهم النَّظر بهدوء، فلمحتُ وقتها جيادًا ملونة تتراكض بانسيابية ساحرة في أحد الجنبات.

ابتسمتُ حينها بشكل تلقائي ومضيتُ أطالع المشهد وقد حمحمَ الشعور في ميادين الذَّاكرة الطُّفوليَّة، ولاح في مخيلتي برنامج «أرض الخيول» الذي سمعت عنه ذات زمان.

وتبعًا لهذا، صدح في رأسي نغم البرنامج، فمضيتُ بداخلي أدندن النَّغم بجذل طفولي: «إليك صديقي، رسمت بأوراق الأحلام، كخيول تنام، في مرج فتَّان».

على وقع هذه المشاعر الفتَّانة التي ملأت أرجاء الحافلة، وتحت وطأة إلحاح الطُّلاب الشديد، قرر السَّائق التَّوقف للحظات على قارعة الطَّريق،

ليتسنَّى للجميع النَّظر إلى جمالية المشهد الأصيل، على شرط أن يلتزم الجميع بالهدوء، وأن لا يفكر أحدهم في النُّزول من الحافلة.

ففرح الطُّلاب والتزموا بهذا الشرط على مضض، حيث كانت الرَّغبة تطل من حدقات عيونهم المتحفِّزة وأفئدتهم الطُّفولية الخافقة، وكذلك كان هو حالي بالضَّبط.

لا يمكنك الاكتفاء برؤية الخيل من بعيد، تودُّ لو تقترب منها بشكل حقيقيٍّ ملموس، تشتهي معانقتها أكثر من امتطاء صهوتها وحسب، أن تمرر بأصابعك على عنقها، وتسند رأسك المثقَل المتعَب على رأسها الوادع الحاني، أن تغمض عينيك وتبوح لها بمكنونات صدرك الجريح، فأنت تشعر في قرارة اللحظة أنك أبرمتَ معها ميثاق صداقة منذ زمن بعيد، لا أعلم، ربَّما لأنها تُغازل فروسيتك السَّاكنة في أعماق صدرك، وربَّما لأنها تشبه أصالة قلبك التي لا تريد أن تترجَّل عنها!

على وقع هذه المشاعر الفيَّاضة المستسلمة للإغواء، وقبل أن تستأنف الحافلة رحلتها بشكل طبيعيٍّ، نظرت إلى الأفق البعيد للحظة من الزَّمن، ضيَّقت عيني كما لو كنت نِسرًا، فضاق اتِّساع المشهد في ناظري.

في تلك اللحظة بالتَّحديد، وعلى نحو غريب، خيِّل إليَّ أنني أبصر فارسة شقراء تعتلي حصانًا أبيض اللون، تتمايل من فوقه بأنوثة طاغية، وتتطاير خصلات شعرها الذَّهبيِّ كأنما هي هاربة من حلم قديم.

لم أستطع التَّنبؤ بهوية هذه الفارسة، اختلجت جوارحي ولم يكن بمقدوري سوى امتطاء جواد الذَّاكرة الكرتونية، والبحث عن سيِّدة تسوس الأحصنة وتعشقها بشكل حميميٍّ، وتعتبرها شيئًا رئيسيًّا في عالمها الأنثوي الخاص.

ركضت على جواد أيَّام الزَّمن الجميل، وبعد لحظات من القفز فوق حواجز النِّسيان الرَّابضة، صَهَلتْ إحدى الذِّكريات القديمة، فتذكرتُ من خلال تلك الصَّهلة الشاعرية، فتاة شقراء بعينين برَّاقتين حالمتين.

كانت وقتها متعلِّقة بالأحصنة تعلقًا شديدًا وكانت لا تتوقف عن امتطائها والتَّمايل مع حركاتها بكل رشاقة وحيويَّة. كانوا يقولون عنها ذات زمان:

*فـوق جـواد الحلـم الأبيـض*
*ترحـلُ معنـــا ليل نهـــار*
*بيـن قصـــور الدنيا تركـض*
*وتغـــرِّد مثـــل الأطـيـــار.*

خفق قلبي حينها، وخمَّنت أن تكون الفتاة الماثلة أمام ناظري، هي ذاتها الفتاة التي عرفتها ذات زمان، أو شخصًا يعرف شيئًا عنها على الأقل!

في لحظة واحدة، وفجأة، انكسر إيقاع الشعور الذي كان يمازج الخيال الكرتوني الرَّاكض، حيث دار محرك الحافلة إيذانًا بمواصلة الرِّحلة!

نفضتُ رأسي حينها وألقيت نظرة سريعة على الطُّلاب، فوجدتُ الجميع مستقرًّا في مكانه، وقد فارقتهم الدهشة، ثم أرجعتُ النَّظر إلى حيث كانت تلك الفارسة تتمايل على ظهر حصانها الفاتن، فلم أجد أثرًا لأي كائن في المكان!

❋ ❋ ❋

مكتبة
t.me/soramnqraa

# 29

مع وصول الحافلة إلى مفترق للطرق، حانت اللحظة المنتظَرة التي كنت قلقًا مشغول البال بها، وصار لزامًا عليَّ النُّزول واستقلال سيارة أجرة منفصلة، في سبيل الوصول إلى المدينة، وقصِّ الشريط الختاميِّ للرحلة.

تحت أشعَّة الشَّمس، وقفت على حافَّة الطَّريق. مسكت بيدي الكرت الذي كُتب عليه عنوان القاعات النِّهائية، ومضيتُ بيدي الثانية ألوِّح للسيارات العموميَّة المارَّة.

ما إن توقف لي أحد السَّائقين وأريته العنوان، حتى أخبرني أن هذا المكان لا تصل إليه السَّيارات العمومية التي تعمل على هذا الخط، إنما أقصى ما يمكنها أن تفعله هو إيصالي إلى محطة المواصلات الداخلية للمدينة، ومن هناك يمكنني الذَّهاب إلى المكان بمنتهى السُّهولة.

فهززتُ رأسي وركبت معه على مضض.

كانت السَّيارة مظللة ومُكيَّفة، فلم أشعر بوهج أشعَّة الشَّمس، وانعزلتُ عن أجواء العالم الخارجي الذي كان يحفُّ الطَّريق من كلا الجانبين، ربَّما كنت بحاجة إلى هذا الانعزال كي أرتاح من عناء التَّحليل والتَّفكير بُرهة من الوقت!

ولكن حينما تركب مع سائق للتاكسي لن يهنأ بالك ولن تنعم بالسُّكون، ستجد نفسك مرغمًا على خوض العديد من النِّقاشات الهامشية التي لا طعم لها، وما عليك سوى أن تُساير السَّائق وتهزَّ رأسك بالموافقة على كلِّ ما يقول، هذا إن أردت للطريق أن يَقصُر، ولراحة بالك أن تطول.

شرع الرَّجل في الحديث عن مواضيع متفرقة عديدة. تحدَّث عن السِّياسة والاقتصاد كأنما هو مسؤول حكوميٌّ يُحلِّل كلَّ شاردة وواردة. تحدَّث عن العاطفة وقصص الغرام كأنما هو مستشار عاطفيٌّ منذ الأزل.

تحدَّث عن الفرق بين الأغاني القديمة والجديدة كأنما هو موزِّع موسيقيٌّ عريق. وهكذا، كان يقفز على موضوع تلو آخر، كأنما كان أحدهم يقلِّب المحطات بداخله.

لم أكن مُهتمًّا بالمواضيع التي كان يشرع في فتح ملفاتها بشكل عشوائيٍّ، حيث كان جُلُّ ما يشغل تفكيري في تلك اللحظات هو ما سيحدث في المكان الختاميِّ لهذه الرِّحلة!

ولكن، وفي لحظة واحدة، وجدت نفسي أصغي لحديث الرَّجل بنوع من الاهتمام. حينما يكون الحديث دافئًا لا يمكن أن تتجاهله بكل برود، حيث لا أعرف كيف دارت رحى الكلمات في ذلك الحين، وصار الحديث يتمحور حول العائلة وقيمتها في حياة الإنسان، وصارت الأفكار تنهل من مَعين الحنان والأمان.

قال بنبرة واعية مشوبة بلوعة الفقد:

- مهما بلغ اكتفاء الفرد بذاته يظل بحاجة إلى دفء العائلة وحنان البيت وكتف السَّند، إنَّ هذه الأمور هي أثمن شيء في الوجود وأعظم ما يشعِرنا بالمواساة والأمان في هذه الحياة.

أعملت فكري حينها بالمعاني التي يتحدث عنها الرَّجل، وخطر لي أنَّ الذين حظوا بطفولة ذهبية رائعة، هم أولئك الذين عاشوا في كنف عائلة حنونة، عائلة استطاعت أن توفر لهم حياة سخية بالعواطف واللحظات الدافئة، لتتركهم ينعمون بذكريات طفوليَّة دافئة، يظلون يقتاتون عليها إلى نهاية العمر!

وتبادر إلى ذهني في الوقت ذاته كيف أن البرامج الكرتونية كانت تقدس العائلة وكينونتها، وجعلت مكانة رفيعة للوالدين، مكانة عظيمة لأولئك الذين علمونا اللثغة الأولى، ومسحوا الدمعة الأولى، وكانوا معنا في أثناء تعثُّرنا في الخطوة الأولى.

ما إن يغِب أحدهم حتى تختلَّ أركان البيت، وتتعطَّل نبضات القلوب، ويغبرَّ أثاث الرُّوح، وتبهت إضاءة النَّفس، وتتقلَّص زوايا المائدة، ويتلعثم سير المناسبات، وتتعرقل خطوات الحاضر، وتشيخ سنوات العُمر، وتظلَّ لوعة الفقد جالسة في مقعده الفارغ الذي تركه من خلفه.

لطالما كانت الشاشة الكرتونية تقول في وجداننا بطريقة ما:

*أم، أب، عائلة ...*
*هذا ما أبحث عنه وأريدهُ*
*أم، أب، عائلة...*
*فقط عندما أجتمع بهم*
*سأرسو.*

لطالما كانت تُناجي الأب الحنون، «أينما يحلُّ وأينما يكون». تمسح قطرات العرق عن جبينه المكافح، وتنحني احترامًا لمكانته العظيمة وتعكفُ على أن تقول له بكل امتنان واعتزاز: «ازرعني بذورًا للربيع، أو فكرة لخير صنيع، يا منارتي حين أضيع».

لطالما كانت تحتضن خيال الأم على الدوام، تستحضر ذكراها في كلِّ حين، تُقبِّل يُمناها وتتعطَّر بشذاها، وتهمس في مسامعنا أن لا شيء مثل دعائها سيبعدنا عن الهم، ولا شيء مثل حضنها سيُقصينا عن الحزن، وأنها ستظل نبع الحنان الأسمى في الوجود!

كانت تُغنِّي وتقبل يديها بالنِّيابة عنَّا وهي تقول: «عندما تضحكين تضحك الحياة، تُزهر الآمال في طريقنا، نحس بالأمان»، ثم ما تلبثت أن تتنهد جراء فقدانها، وتقول والحشرجة بادية في صوتها: «أطوي السِّنين إلى غدٍ وخيالك الحاني، في كلِّ وجه طيِّبٍ ألقاه يلقاني».

في أثناء ما كانت هذه الأفكار تتربَّع في وجداني ولا يُضاهيها أي شيء في هذا، كان الرَّجل يسترسل في الحديث عن مرارة فقده لوالديه.

كانت نبرات صوته تنطوي على تباريح فاجعة قديمة، ولكنها ما تزال متجدِّدة في صدره.أحسستُ وقتها بالعجز عن مواساته والتَّخفيف عنه، فالتزمتُ الصَّمت، مؤمنًا في قرارة نفسي أنه كلَّما عظم الفقد في قلب صاحبه، تقلَّصت صلاحية الكلمات في صدره.

ولهذا..

إن فلسفة المواساة تبدو في بعض الأحيان سخيفة في حضرة الفقد، ومتواضعة أمام رهبة الموت، وشيئًا فشيئًا تتلاشى قيمتها في قلوب أصحابها.

واصل الرَّجل حديثه وهو يثبِّت بصره على الطَّريق، وقد راح يوضح كيف أنه تحمل مسؤولية العناية بأخيه منذ أن كان في العاشرة من عمره..

وبحسب قوله، فقد كان يشعر وقتها أن أخاه يتحكم في تفاصيل حياته، بسبب بكائه المستمر، ولوازمه التي لا تنتهي، ولكن، مع مرور الوقت، وما إن فقد الاثنان والدهما، وبترت الحياة الأيدي التي كانت تربت على أكتافهم وتمنحهم الحب دون شروط، حتى ازدادت الوحشة في أعينهم.

كَشَّرت الحياة عن أنيابها بشكل مفترس، ودقَّ ناقوس الاغتراب بشكل مخيف، وشاخت القلوب بشكل فظيع. في هذه اللحظة الحاسمة، عرف الاثنان أنه لا بديل لهما عن حنان بعضهما، لا وقت لأن يتخليا عن تقارب أكتافهما الحنونة، إن أرادا أن يواصلا الحياة ويصمدا أمام طوفان السَّواد الجارف.

في غمار هذا، سرت قشعريرة في أوصالي، وساورتني العديد من المشاعر الطَّريَّة، فتذكرت الأخوين سامي ووسيم، وقد صدحت في مسامعي أغنية «أنا وأخي»!

مضيتُ حينها أخالس السَّائق النَّظر بشيء من التَّأمل والتَّفحص، باحثًا عن ملامح الفتى «سامي»، ذلك الفتى الحسَّاس الحنون الذي عرفناه في شاشة الطُّفولة، وتعاطفنا معه بالكثير من المواقف الصَّعبة، لكن لم أجد حينها إلا رجلًا بشارب كثيف، يتخلَّله شيبٌ مُبكر البزوغ، وعينين زجاجيَّتين ذابلتين، وجسد أصابه الضُّمور، وأمارات تشي بالحزن والنُّضج في الوقت ذاته، وكأنما صار إنسانًا مختلفًا عن ذلك الذي عرفته ذات زمان!

لهذا، لم أستطع التَّأكد من هويته على وجه اليقين. لم أكن قادرًا على حسم الموضوع، ولكن ما كنت متأكدًا منه بشكل حتمي، يشيخ الإنسان بتراكم الفقد في مقابر صدره، لا بتراكم السَّنوات في عداد عُمره، ويتحول في ليلة وضحاها إلى شخص آخر لا يعرفه.

ما إن هيمن الصَّمت على الطَّريق، وصارت قسمات الرَّجل باردة لا شعور فيها، حتى مضيتُ أستذكر بعض الأحداث التي وقعت في طيَّات المسلسل الكرتوني الدافئ.

تذكرتُ عندما قرر سامي للحظة من الزَّمن أن يُسرع في خطواته ليترك وسيم يسير وحيدًا في أحد الشوارع الطَّويلة، قبل أن يتدارك الموقف ويثوب إلى رشده، ويهبَّ لانتشاله من أمام أحد الكلاب السَّائبة، فيبكي وسيم على إثرها، وقد راح في تلك اللحظة ينطق اسم «سامي» للمرة الأولى في حياته!

فُيدرك وقتها «سامي» فداحة الفكرة السَّوداء التي راودته، ويتبدَّل شعوره وحسُّه بالمسؤولية وأصبح طيف أمه يُبادره بالتَّوصية في كلِّ موقف: «لا تنس أخاك ترعاه يداك».

ذات لحظة لا تُنسى..

خربش وسيم على صور ثمينة نادرة لدى سامي، الصُّورة الوحيدة التي تجمعه بأمه المتوفَّاة حينما كان رضيعًا.

جُنَّ جنون سامي في ذلك الوقت، وتجرَّأ على ضرب وسيم على غير عادته.

دخل في دوامة من الحسرة والجفاء، وحرد عن مشاركة وسيم في أي أمر، ولكنه سُرعان ما شعر بالنَّدم، وأحس بأن صورة والدته ستظل محفورة بقلبه مهما حدث، وأنه قسا على وسيم أكثر مما ينبغي، فأسرع لحضور إحدى الحفلات الموسيقيَّة التي يُشارك فيها وسيم في الرَّوضة، وكان قد عاهد نفسه أن لا يحضرها من قبل.

ما إن دخل سامي إلى مسرح الرَّوضة حتى انتعشت جوارح وسيم وتلألأت عيناه، وقد أدرك أن سامي صفح عنه وسامحه، ومن فرط البهجة صار يرقص بحركات طفولية غريبة لا تنسجم مع حركات بقية زملائه في الفرقة

الموسيقيَّة، في مشهد مؤثِّر ترك في زوايا النَّفس الكثير من المشاعر العطوفة الحانية التي لا تُنسى.

بقلبٍ خافق على نحو دافئ، وبعينين غائمتين يكاد الدمع يترقرق فيهما من فرطِ الشعور، خطر لي أننا وعلى الرغم من أننا كبرنا في العمر فإننا ما نزال نشبه الطِّفل «وسيم» إلى حد ما، فما زلنا نتخيَّل أن هناك من سيصحبنا إلى روضة الحياة، نبحث عن إصبع «سامي» لنتشبَّث به كلَّما شعرنا بالبرد والوحدة والخوف، نُسرف في عاطفتنا نحو الأشخاص الذين نحبهم بشكل جنوني ساذج، بشكل لا يناسب تقلُّب القلوب المخيف من حولنا، ولا يليق بوقاحة الحياة التي نعيشها.

نشعرُ أن في داخلنا أنهارًا متدفقة من الدمع تريد أن تنسكب في أي لحظة، نريد أن نبكي بسبب أو دون سبب، نريد أن يأخذنا النَّاس على مقدار النَّقاء الموجود بداخلنا، على مقدار الحياة التي نحاول الكفاح من أجل عيشها، على مقدار الدهشة التي نبحث عنها، على مقدار المواساة التي نحتاج إليها لمحاربة الظروف، على مقدار الحنان الذي نحتاج إليه لمقاومة التَّعب، فما يزال هناك طفلٌ حسَّاس ماكث في أعماقنا، ويردد في كلِّ وقت: «لا أزال صغيرًا أنتمي للحنان».

* * *

# 30

مع غروب شمس اليوم الأخير من الرِّحلة السبيستونيَّة، وما إن وصلت إلى محطة المواصلات الداخليَّة للمدينة، وبدأت بالتَّجول في المكان من حولي، حتى وجدت نفسي شاردًا بين بنايات شاهقة تناطح السَّحاب، غارقًا وسط الأضواء والأصوات الصَّاخبة، وتائهًا وسط وجوه غريبة لم أستطع التَّعرف على هويَّة أصحابها، وقد جزمتُ في نفسي أنني لم أرهم من قبل!

مضيتُ أسير بخطوات عشوائية، وقد صرتُ أتلفَّت وأمعِنُ النَّظر في كلِّ مكان أمر به. أحسستُ أنني ضائع بالمعنى الحرفي للكلمة، فسارعت إلى سؤال أحد العابرين عن المسافة التي تفصلني عن العنوان الموجود في الكارت.

أجابني حينئذ أن المكان المنشود يقع في أحد الشوارع المجاورة، ولا يفصلني عنه سوى القليل من الوقت، فقررت السَّير إليه دون الاستعانة بأي وسيلة للمواصلات.

إلى حيث دلني الرَّجل، أخذتُ أسير بخطوات متأمِّلة لا عجلة فيها. مررتُ بالعديد من المحلات التِّجارية الفارهة، والفنادق السِّياحية الضَّخمة. ثمَّة دور للترفيه والسِّينما، ومطاعم بأشكال متنوِّعة، ومحلات لبيع الألعاب والثياب والأجهزة الإلكترونيَّة وغيرها من الأشياء التي تعكس الحداثة التي تتمتع بها هذه المنطقة الجغرافيَّة.

وخلال هذا، تهادت خطواتي أمام أحد المحلات بشكل عفويٍّ، فرأيت من خلال الفاترينة تلفازًا يبثُّ مشهدًا لقط رماديٍّ يُلاحق أحد الفئران الشاردة.

ابتسمتُ حينها وتبادر إلى ذهني كما يتبادر لأي شخص تربَّى مُنذ نعومة أظفاره على أسدٍ يُزمجر في شاشة التِّلفاز، فيبتدئ عرض حلقة جديدة من حلقات «توم وجيري».

ثم سُرعان ما أوغلتُ في هذه الذِّكرى الكرتونية القديمة، وصرتُ أقول في نفسي:

لعلَّه ليس من الغريب أننا نعيش حياتنا مطاردة بمطاردة، فمُذ وعينا على هذه الدنيا ونحنُ نشاهد على الشاشة قطًّا يُطارد أحد الفئران، وامرأة سمينة لا تنفكُّ تصرخ في الأرجاء، ولا يظهر منها سوى القسم السُّفلي من جسدها، لا يُمكن تخيل كيف سيكون شكلها بالكامل، إنما نستطيع استحضار صوتها الآن بكل سهولة مُتناهية، وكأنَّها كانت تُولول مُسبقًا على الحياة التي سنعيشها!

أما القط والفأر، فقد كانت الأمور تختلط علينا ولم نكن نميز من منهما مخطئ في حق الآخر، فساعة نتعاطف مع هذا، وساعة نحنو على ذاك، يظلان في مطاردة دائمة، لا يروق لهما الهدوء في العلاقة التي تجمعهما، ولا يستطيعان العيش دون أن يُنكِّد كلُّ واحد منهما على الآخر، وهذا ما يُريحهما ويتعبهما في الوقت ذاته، ولعلَّ هذا هو طابع بعض العلاقات الحميمة التي لا يستطيع أحد استيعاب تناقضاتها.

تزامنًا مع هذه الأفكار التي كانت تدور في خلدي، وبينما تركت فاترينة المحل وواصلتُ السَّير، بدر لي أن القط والفأر اللذين شاهدتهما في التِّلفاز للتو، لم يكونا «توم وجيري» اللذين أعرفهما كما أعرف نفسي، وإن كان هناك نسبة كبيرة من الشبه!

ولكن رجَّحت أن يكونا من سلالتهما المشاغبة النَّادرة، فحسب ما أذكر، كان لهما أبناء يحملون دماءَهم ومواصفاتهم.

وكان هُناك أغنية سبيستونيَّة تُصادق على هذا الأمر، وتقول بصوت مفعم بالمرح: «بين اللعب وبين الجد، بين الأخذ وبين الرَّد، بين الخصام وبين الود، تكبر أحلام أبناء توم وجيري».

بعد وقت قصير، وبينما كنت شاردًا بين أضواء السَّيارات وجلبة الشَّوارع والمعالم الحضاريَّة في المدينة، استوقفني إعلان لإحدى مباريات المصارعة الحرَّة، رنَّ حينها جرس جولة جديدة من جولات ذكرياتي الكرتونيَّة في حلبة اللحظة الرَّاهنة.

وجَّهت ركلة قوية للحاضر، وأومضت عيني، فرأيتُ من خلال تلك الرَّكلة خيال «النمر المقنع»، وهو يقف شامخًا على إحدى زوايا حلبة المصارعة، مكتوف اليدين وفي عينيه وميض انتصار لا يخفت بريقه.

تذكَّرتُ بسالته وضراوته وكيف كان يُقاتل بتفانٍ وتضحية في سبيل أن يُخلص حلبة المصارعة من كلِّ الشرور، من أول ظهور مفاجئ له، إلى أن استطاع أن يهزم اتحاد مصارعي الفضاء شرَّ هزيمة!

حينذاك، وفي لحظة تاريخيَّة في عالم المصارعة، نزع قناعه كاشفًا عن هويته الحقيقية وسط دهشة الجماهير، وعلى رأسهم رئيس تحرير الجريدة التي يعمل بها، حيث انتفض هذا الرَّجل وقال من فرط الصَّدمة عبارته الشهيرة: «صحفيٌّ فاشل وكسول، ماذا يفعل على الحلبة؟!».

في ظلِّ دموع الصَّحفية «ميَّادة»، التي كانت تفتقده في أشد اللحظات إثارة وأكثرها حماسة، الفتاة التي أحبته على الرغم من كلِّ الحماقات التي كان يفتعلها، وكل التَّشكيكات التي كانت تحوم حول مهنيَّته ونجاحه في الحياة.

بعيدًا عن طقوس الصحفيِّ الكسول «تامر»، وقريبًا من غموض «النمر المقنع»، تذكرت أيضًا أجواء المصارعة المقنعة التي كان عنوانها «موتشا لوتشا»، أولئك الأشخاص الذين يعيشون في مدينة تهوى المصارعة المقنَّعة، ويُقدِّسون الشرف والعائلة والتَّقاليد والكعك المُحلى.

ربَّما لم يَعد غريبًا علينا فكرة الأقنعة في حلبات المصارعة كما كان في السَّابق، فأغلب الذين قابلناهم في حلبة هذه الحياة كانوا بأوجه مقنَّعة، دون هوية واضحة ودون مبدأ مُحدد، أما نحن فقد قررنا مواجهة الحياة بوجهنا الحقيقيِّ على الرغم من الضَّريبة التي سندفعها لقاء ذلك.

قرَّرنا أن نتخيَّر خُصومنا بعناية فائقة، وأن لا نمنح هذا الشرف لمن لا يستحق. لم يعد يهمنا عدد اللكمات التي تلقيناها، ولا عدد الجولات التي خسرناها، ولا عدد الذين كفروا بقدراتنا ولم يهتفوا مرة واحدة من أجلنا، ما يهمُّنا هو أننا قاتلنا بضراوة، أننا ربحنا أصالة صدورنا، وعلى الأقل لم نوجه الضَّربة القاضية لأنفسنا.

بهذه الأفكار المتصارعة في رأسي، مشيت مُطرقًا في الأرض ويداي في جيبي كما لو كنت متسكعًا لا يعرف ما يريد.

بعد عدَّة دقائق، وبينما كنت ما أزال مطرق الرَّأس، ولسبب ما، استقرت قدماي بجانب فتحة لمياه الصَّرف الصِّحيِّ. شعرتُ حينها أن المياه تقشع من المزاريب وتتدفَّق في الأسفل بشكل صادح غريب.

ثم فجأة، ركدت المياه وساد الصَّمت بشكل تام. ما كدت أن أتجاوز تلك الفتحة حتى سمعت صوتًا آخر، خُيِّل إليَّ في تلك اللحظة أن أحدهم يئنُّ ويستغيث!

ارتبكتُ ولم أعرف ما الذي عليَّ فعله على وجه التَّحديد. تسمرت في مكاني وحاولت الإصغاء لما يقوله الصَّوت، فكأنَّما تحول الأنين إلى هُتاف على نحو غريب، وصار الصَّوت يقول بطريقة مفاجئة:

*لا نخشى الأشرار، هيه، نحن السَّلاحف*
*نهزمهم فالخير أقوى في كلِّ المواقف.*

دُهشت حينها واختلجت أعماقي لهذه الكلمات، ومن فوري تذكرت السَّلاحف القتاليَّة التي عاشت وترعرعت في كنف المعلم «سبلينتر»!

انحنيتُ بسرعة وحاولت الاستماع من جديد، ولكن طال الانتظار ولم أسمع كلمة واحدة، وشعرت لوهلة أنني أتوهم من فرط الشعور بالذِّكريات الكرتونية، فابتسمتُ على مضض ومشيت.

بعد لحظات، وفجأة، لمع ضوء غريب في السَّماء ثم ما لبث أن اختفى في لمح البصر.

حاولت تجاهل الأمر مُسلِّمًا لحقيقة أنني مُتعب جدًّا من السَّفر وكمية الصُّور المتلاحقة التي رأيتها، وصرت أتوهَّم أمورًا لا وجود لها، ولكن، وللحظة من الزَّمن، لمع الضَّوء مجدَّدًا وأحسستُ بحركة مُريبة تحدث على سطوح إحدى البنايات الشَّاهقة.

فركت عيني، وأرجعت البصر من جديد، فخيِّل إليَّ حينها أنني رأيت شيئًا يشبه الخفاش!

أغمضت عينيَّ وقد ومض في ذهني مشهد قادم من الماضي، فابتسمتُ وقلت في نفسي:

كلُّ الاحتمالات واردة. من يدري؟! لعلَّه الحارس الذي لا يُهادن الشر، ولا يظهر إلا تحت غِشاء الليل المُظلم؟!

لم أكن متأكدًا من صحة ما رأيت، وفي قرارة نفسي لم أكن متأكدًا من تعاطفنا العميق مع هذه الشخصية الغامضة التي كنا نشاهدها تنتفض من أجل نصرة الخير، وتخاطر في حياتها من أجل العدالة، ولا تتوانى عن القفز من سطوح البنايات بكل بسالة بطولية..

ولكن ما كنت متأكدًا منه على وجه التَّحديد والمأساة، هو أننا نرزح تحت وطأة الفساد والجريمة أكثر من مدينة «جوثام»، وأننا نعيش في زمن غريب تحكمه أشباح العدالة وأوهام الحريَّة، زمن صرنا نتعاطف فيه مع الشخصيات الإجراميَّة بطريقة مروِّعة، ونتقمَّص صوت ضحكاتها بكل إتقان، ولعلَّ الكثيرين ممن يشتعلون حماسة على أغنية «باتمان» هم في بواطنهم ينتمون إلى حزب «الجوكر»!

بالتَّأكيد ليس لانتمائهم الفطري إلى بوصلة الشر والسَّواد، ولكن ربَّما يعتبرونه ضحيَّة مثلهم في سجون هذه الحياة، وصار لديهم قابلية لأن يكونوا شخصيات شريرة بُرهة من الزَّمن، على أن يكونوا شخصيات طيبة مثيرة للشفقة على الدوام!

قد لا ألومهم البتَّة على هذا، فظروف الحياة تجعلنا نتقمَّص شخصيات لا نحبها ولم نكن نتصور أن نرتديها في يوم من الأيَّام.

لست أدري، ربَّما هناك شخصيتان بداخلنا، شخصية تشبه «باتمان» وشخصية تشبه «الجوكر»، تظل هاتان الشخصيتان في صراع أزليٍّ لا ينتهي، تجعلنا نشعر أننا أشخاص متناقضون لا نعرف ما نريد، وإلى من علينا أن ننتمي، لعلَّ هذا أمر طبيعيٌّ في فلسفة التَّناقضات الصِّحيَّة، ولكن من غير الطَّبيعي أن نشعر بألفة عجيبة ونحن نرتدي قناع الجوكر!

أخشى أن يطول الزَّمان بنا على هذه الحالة المريبة من الارتياح، ونتحول شيئًا فشيئًا إلى شخصيات شريرة بالفعل، بحجَّة أننا مجرد ضحايا في المجتمع، حينها وبلا ريب، سيموت جانب الخير فينا إلى الأبد، ولن يلمع أي ضوء وسط المدينة الموجودة في أعماق قلوبنا!

في أثناء ما كنتُ أفكر في هذه المفارقات والأبعاد النَّفسيَّة المعقَّدة، وفجأة، ودون سابق إنذار، صرت أرى خيالات لأشخاص آخرين، كانوا يقفزون من سطح لآخر بطريقة تُثير الرِّيبة والفضول.

ظللتُ مُشرئب العنق أطالع ما يجري، وبخيال طفولي ذهب بي التَّفكير حينها إلى إمكانية أن تكون هذه الخيالات المتلاحقة، هي لأفراد «فرقة العدالة» التي عرفتها على شاشة التِّلفاز.

يبدو الأمر جُنونًا بعض الشيء، ولكن، إن صدق هذا الافتراض الخيالي، فمعناه أن هناك شيئًا ما قد وقع في المنطقة، أو أن هناك خطرًا وشيكًا يلوح في الأفق، فأعضاء هذه الفرقة لا يجتمعون إلا تلبية لنداء الحقِّ والعدالة.

انقبض صدري فجأة، وطافت بي العديد من الهواجس. مرت بضع لحظات قلقة، أرخى الليل سدوله بشكل تام، وما هجست به صار حقيقة مُتجسِّدة أمام عينيَّ، حيث إنه وفي لحظة تحبس الأنفاس، تسارعت الأحداث على وتيرة مريبة، سمعتُ دوي سيارة للإسعاف قادمة من أول الشارع، ورأيت سُحب دخان تتصاعد من إحدى البنايات القريبة، وصوت مذعور يزعق من مكان ما: اتصلوا بالشرطة بسرعة!

*** 

# 31

لا أعرف متى تتوقف الحياة عن هذا!

ما تزال ترتكب فينا أبشع الجرائم وأفظعها، تسطو على بنوك مشاعرنا، تستولي على أثمن ممتلكات صدورنا، تبتزُّنا في كلِّ ذكرى، وتطلق النَّار علينا في كلِّ موقف، تنتظر الفرصة المواتية لتجهز علينا بالكامل، ثم بعد كلِّ هذا، توجِّه أصابع الاتهام إلينا، وتقول لنا بكل صفاقة: «سلِّم نفسك أنت مُحاصَر»!

بطريقة ما، هذا ما قالته لي الحياة في تلك الآونة، أو هذا ما شعرت به على الأقل، حيث إنني وبعد أن سمعت ذلك الصَّوت المذعور، تلاحقت الأحداث على نحو سريع، ووجدت نفسي دون سابق إنذار في قَبضة رجال الأمن، وقد احتُجِزتُ في بهو أحد الفنادق على ذمَّة التَّحقيق!

تجمَّد الدم في عروقي وانتفضت أركاني انتفاضًا مُريعًا، حين علمت أنني موقوف من أجل الاستجواب في جريمة قتلٍ حصلت في المكان، حيث عثروا على جثة إحدى الشخصيَّات الدبلوماسيَّة التي كانت تقيم في الفندق ذاته.

لم أكن الشخص الوحيد المُحتَجَز في المكان، ولعلَّ عمليَّة احتجاز حدثت عن جنب وطرف، وقُبِض على الأشخاص بمجرد أنَّهم كانوا بالقرب من بوابة الفندق ساعة العثور على الجثة.

أقنعتُ نفسي بهذه الفكرة، ولبثت بهدوء مفتعَل أنتظر ما سيحدث، ولكن طالت فترة الاحتجاز، فداهمني الضَّجر وتسلَّلتْ إليَّ بعض الوساوس.

نظرتُ إلى الوجوه البائسة من حولي من جديد، قبل أن أسند رأسي على أحد الجدران، وأخذت أقول في نفسي متحسرًا: يا لحظي العاثر، من كان يتوقع أن تنتهي الرحلات الرَّائعة بجريمة قتل؟! من كان يتوقع أن أكون مُتهَمًا في نهاية المطاف؟!

بعد بُرهة من الوقت، ومع تفاقم أجواء التَّوتر في المكان، وبعد إجراء بعض البروتوكولات الجنائية، جاء المحقق الذي أوكلت إليه مهمة التَّحقيق، والكشف عن ملابسات الجريمة الحاصلة.

لما وصل إليَّ الدور استُجوِبت غير مرَّة، وبعد طول عناء ودفاع، وما إن اقتنع المحقق أنني شخص عابر لا دخل له بالموضوع لا من قريب ولا بعيد، أُخلي سبيلي وسُمِح لي بالمغادرة والتَّوجه إلى حيث أشاء.

تنفَّستُ حينها الصعداء وتوجَّهتُ رأسًا إلى البوابة. في تلك اللحظة، ولما صرت على عتبات الفندق الخارجيَّة، سمعتُ بعض الصحفيين يتناقلون أخبارًا متعلِّقة بالقضيَّة، وفي هذه الأثناء، سمعت أحدهم يتحدَّث عن إمكانيَّة الاتصال بمُتحرٍّ عبقريٍّ شهير، في حال تعقدت خيوط الجريمة، وضاقت السُّبل، واستحال الوصول إلى الحقيقة.

عند ذلك، عجلت الخطوات كي أبعد عن المكان ولا أطلب للتحقيق من جديد. سألتُ أحد الأشخاص للتأكد من موقع المكان الختاميِّ المفتَرَض، ثم مضيتُ أستأنف السَّير نحوه.

وبذهن سبيستونيٍّ ما يزال متحفِّزًا على الرغم من أجواء الرَّهبة، صرت أفكر في موضوع ذلك المتحري الشهير الذي كانوا يتحدثون عنه أمام بوابة الفندق.

لم أكن بحاجة إلى أن أعوم في متاهات التَّحليل والتَّخمين حول هويته، فقد خطر ببالي ما خطر ببالكم على الفور، الشخص الذي شغل اهتمام أجيال بأكملها، وأشعل فتائل التَّحري بداخلهم، الطِّفل الذي «يكتشف الغامض والمثير، ويستنتج بالعقل الكثير»، الشاب الذي تقلَّص حجمه ولم يتقلص عقله، المتحري الذي رأيناه يعيش حياة التَّخفي والتَّعقب، ولا ينفكُّ يحلُّ لغز أصعب القضايا وأكثرها تعقيدًا على الإطلاق.

ما يزال سيناريو بعض تلك القضايا عالقًا في ذاكرتنا البوليسيَّة، وما زلنا على استعداد لأن نحضر أي حلقة تُصادفنا من حلقاته المثيرة مهما كان الوقت ومهما بلغت أعمارنا.

أن نندهش من تحليلات الرَّجل الصَّغير وهو يسابق الزَّمن ويحلحل الخيوط المعقَّدة. أن نتعرف على اختراعات الدكتور «أجاسا» العجيبة، وأن نشاهد مغامرات فريق المتحرين الصِّغار «إيومي» و«جينتا» و«ميتسو»، والورطات التي كانوا يُوقعون أنفسهم بها بسبب حماستهم واندفاعهم الدائم. أن نراقب الشكوك التي تجوس في صدر «ران»، وننبهر من إتقانها لحركات الكاراتيه عند اللزوم. أن نشاهد العم «توجو» وهو يتهادى مُترنِّحًا على إحدى الكنبات، ثم ما يلبث أن يستيقظ من غيبوبته المعتادة، ويسمع الثناء ينهال عليه من كلِّ حدب وصوب، فيأخذ بنفسه مَقلبًا ويُصدِّق أنه هو من حلَّ القضيَّة الشائكة.

لا نعرف ماذا حدث في نهاية هذا المسلسل الكرتونيِّ الطَّويل، ولا نعرف إن عاد «المحقق كونان» إلى حجمه الطَّبيعيِّ بشكل دائم، ولسنا متأكدين من أنه استطاع الانتقام من عصابة المعاطف السَّوداء بالفعل!

ولكن، وعلى الرَّغم من تضارب الأقوال حول نهاية القصَّة، ومع أن النُّسخة السبيستونيَّة لم تَبُح لنا بكامل الأسرار، فإننا نشعر أن سلسلة الأجزاء الإجراميَّة ليس لها نهاية على الإطلاق، وربَّما كان هذا هو الهدف الخفيُّ من المماطلة في إسدال السِّتار عن الحلقة الأخيرة، لست أعرف، ربَّما يكون هذا هدفًا ابتكرته الآن، ولكن ما أعرفه على وجه اليقين والأسف، هو أن هناك جرائم كاملة عكس ما كانوا يقولون في المسلسل، وأنه ليس هنالك جريمة أبشع من أن يفترق «سينشي» عن خطيبته «ران» بعد كلِّ هذا الحبِّ والتَّضحية والانتظار.

في بعض الأحايين، كان «كونان» يُقلِّد تصرفات الأطفال كي يُبعد الشكوك الحائمة حول هويته الحقيقيَّة ولا ينفضح أمره. ربَّما كان يفشل في التَّقليد بسبب رجاحة عقله الطَّاغية، وروح المحقق التي كانت تسيطر عليه، ولكن حتمًا كان يشعر بحقيقة الأمر حين يتوسَّد ذراع الفتاة التي ينبض قلبه من أجلها.

ذلك أن نبضات الحُبِّ الحقيقيِّ هي من تقود الإنسان نحو دروب الطُّفولة بشكل تلقائيٍّ ساحر، مهما بلغت شيخوخة العقل في رأسه، ومهما بلغت رائحة الجريمة في تجاربه!

في الحقيقة، لا أعرف إن كنَّا أفرطنا في مُشاهدة حلقات المحقق كونان، ولا أعرف كيف تماهت عقليته بعقليتنا بهذا الشكل المزمن المعقَّد، ولكن ما أعرفه أن الحياة جعلتنا نشعر في كلِّ وقت أن هناك جريمة على وشك الحدوث.

صرنا نشكُّ في أدقِّ التَّفاصيل، ونُحلِّلُ أبسط المواقف، ونُفسِّر أهون العبارات، ونتوجَّس من أصغر التَّصرفات، ولا نستثني أحدًا من الاتهام!

بطريقة ما، بتنا نشعُر أن الحياة تضع مُسدسًا كاتمًا للصوت على خصرها، تختلس النَّظر إلينا كلَّما ضحكنا من أعماق قلوبنا، وتترصَّد خطواتنا كلَّما تقدَّمنا نحو أحلامنا، وكأنما تنتظر اللحظة المناسبة لأن تُطلق النَّار علينا وتلوذ بالفرار.

لقد تعبنا من الجرائم التي تُرتَكب داخل حجرات قلوبنا، تَعِبنا من التَّعمُّق في الأحداث، تَعِبنا من التَّحليل والاستنتاجات، تَعِبنا من لعب دور المحقق كونان في هذه الحياة، تَعِبنا ومن فرط التَّعب صرنا بحاجة إلى من يُعفينا من مهمة التَّحقيق التي تراود أجفاننا، بحاجة إلى من يتقمَّص صوتنا الجريح ويتحدث بالنِّيابة عنَّا بكل براعة فائقة، بحاجة إلى من يُطلق علينا سهمًا تخديريًّا من ساعته، فنتهادى نائمين على إحدى الكنبات ريثما يصل إلى حل لغز أعقد القضايا التي أنهكتنا، وأصعب الجرائم التي سرقت النَّوم من عيوننا، وراحة البال من أيَّامنا، واستنزفت طمأنينة هذا الوقت المنهوب من أعمارنا.

لا نعرفُ إن كانت الحقيقة ستنتصر في النِّهاية مثلما كان يقول المحقق كونان. لا نعرف ماذا سيحدث في الحلقة القادمة من مسلسلنا، ولا متى ستغلق البوابة التي كانت تتوسَّط شُعلتين، وتنفتح على مصراعيها عند بداية كلِّ حلقة!

ولكن نخشى أن يطول الانتظار بنا دون أن نكشف ملابسات الجرائم التي وقعت في مسارح صدورنا، دون أن نعثر على أي بصمات قاتل أو أي دليل إدانة، نخاف أن تُقيَّد الجريمة ضد مجهول، وأن تسقط مع تقادم السَّنوات، وأن نقضي العمر بأكمله بقلب مملوء بالحسرة، ونظل نتساءل: من الذي اغتال أروع المشاعر وأطلق النَّار على نبضاتنا؟!

في غمار هذه المشاعر الحائرة، وفيما كنت مُطرق الرَّأس مُستمر الخطوات، كنت أشعر شيئًا فشيئًا أن الرِّحلة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وما إن صرت على كتف الشارع حتى أخذت أطالع المحلات والعمارات التي تحيط بي. تلفَّتُّ يمنة ويسرة، أمامي وخلفي، باحثًا عن المكان المطلوب، حيث كانت كلُّ الدلائل تشير إلى أنني وصلت، ويفترض أن تكون القاعات أمام مرمى بصري، إلى أن استقرَّت خطواتي بشكل لا إرادي أمام صندوق للبريد كان مُعلَّقًا على جانب الرَّصيف.

دنوتُ من الصُّندوق دون هدف معين، فوجدت كومة من الأوراق البيضاء، وقلم حبر معلقًا بخيط رفيع، ثم ما لبثت أن قرأت عبارة مكتوبة في رأس الصَّفحة، كانت العبارة تقول: «اكتب رسالة لشخصية تتمنى أن تقرأ كلماتك في هذا العالم».

ما كدت أتجاوز الأمر حتى شعرت لوهلة أن الرِّسالة تقصدني، وأن هناك شخصية تستحق بالفعل أن أكتب لها، فتملكتني إرادة غريبة، واستللتُ القلم بشكل تلقائيٍّ، ومضيتُ أتساءل: يا ترى من هي الشخصية التي تستحق أن أكتب لها رسالة ورقية؟! من هي الشخصية التي لم أقابلها ولم أعرف شيئًا عنها في هذه الرِّحلة الكرتونية؟!

نبشتُ في ملفَات الذَّاكرة، ومضيتُ أتفقَّد سِجلات الحضور فيها، استغرق الأمر دقيقة كاملة قبل أن يقع اختياري على شخصيَّة مُناسبة تمامًا لهذه الأجواء، ومن غيرها تلك الفتاة التي كانت تعكف كُلَّ ليلة على كتابة الرَّسائل، والبوح بتفاصيل حياتها لصاحب الظِّل الطَّويل!

أسندتُ يدي على خشب البريد، ووضعتُ رأس القلم في أعلى الصَّفحة، وأخذتُ أكتب وأنا أتهجى ما أكتبه:

عزيزتي المخلصة جودي آبوت..

لطالما قرأنا رسائلك التي كنتِ تَخُطِّينها كلَّ ليلة لصاحب الظِّل الطَّويل، كنَّا نقرؤها كما لو كنَّا نحنُ من كتبَ هذه الرَّسائل الشفيفة الصَّادقة، وأراهنك يا عزيزتي أنَّ في صدر كلِّ أنثى فتاة تُشبهك، فتاة تكتبُ كلَّ ليلة لشخص خيالي على طريقتها، شخص يُنصِتُ لبوحها ويفهم أنين روحها. تقول كلَّ ما في جوفها دون خوف، ودون أن يحاسبها أحد على فكرة واحدة من أفكارها الخفيَّة وأسرارها الغريبة، يبدو لها هذا الشيء أكثر أمانًا من اللجوء إلى الأشخاص الذين تعرفهم من حولها، تظلُّ تسهر ليلة تلو أخرى على أمل أن تتحول هذه الشخصيَّة الخياليَّة إلى شخصية حقيقيَّة تستطيع أن تحتضنها، ولكنها تخشى بعد كلِّ هذا الانتظار أن لا يُشعل أحدهم أي شمعة في دَربها، وأن لا تُمسح أي دَمعة عَن خدِّها، أن تظلَّ تتعشَّم في كلِّ شخص حنُون تُقابله، وهي تتساءل في نفسها: «أجبني من تكون؟!»، تخاف أن لا تعثر على صاحب الظِّل الطَّويل الخاص بها، فيطول ليل حزنها إلى نهاية الحكاية...

كتبتُ هذه الكلمات دون أن أشفعها باسمي الحقيقي، إنما اكتفيت برسم التَّوقيع الخاص بي. لست أدري، ربَّما تكون الرَّسائل أكثر دهشة حينما يغيب اسم مُرسِلها ويبقى في خانة التَّكهنات غير المتوقعة، ولا سيما لأصحاب الخيال الواسع والحدس العميق والقصص الاستثنائيَّة.

دسستُ الرِّسالة في صندوق البريد، ورفعتُ رأسي لأكمل بحثي عن القاعات الختامية.

في تلك اللحظة بالتَّحديد، لاحت مني التفاتة إلى إحدى الجهات، فإذا ببوابة عتيقة يعتليها مقبضٌ نحاسي قد برزت أمام ناظري!

خفق قلبي ودنوتُ من البوابة على عجل. لم تكن كغيرها من البوابات التي مررتُ بها في كلِّ الرِّحلة، وكأنما هي بوابة تُوصل إلى بلاد أخرى من هذا العالم! يا ترى هل وصلتُ إلى حيث أريد؟!

فتَّشتُ عن أي لافتة أو شاخصة تدلُّ على المكان، ولكن لم أعثر على أي شيء من هذا القبيل، فَدقَّقت النَّظر في الجُدران التي تُحيط بها، فَلمحتُ آنذاك عِبارة منقوشة بشكل باهت قرأتُ العبارة وأنا أمرِّرُ أطراف أصابعي على حوافِّ الحُروف فيها، فوجدتها تقول: «هنا قاعات سبيستون».

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

# 32

«أهلًا عزيزي..

تهانينا الحارَّة، أُنجِزَت المهمَّة بنجاح، لقد قدَّرنا موعد وصولك بدقَّة، هُنا تنتهي رحلتك يا فتى سبيستون، لقد كُنت الشخص المناسب لهذه الرِّحلة، تفضَّل بالدخول من أجل استكمال التَّفاصيل الأخيرة، والاستعداد للعودة إلى كوكب الأرض».

هذه هي الرِّسالة التي كانت تنتظرني حالما دلفت من البوابة الرَّئيسية للقاعات. كانت الكلمات مطبوعة على بطاقة كرتونيَّة، وموضوعة على أحد الرُّفوف الخشبية.

ما إن قرأتها حتَّى رنَّ في ذاكرتي صوت اللعبة الختاميَّة التي كانت تبثُّها القناة في نهاية الإرسال السبيستونيِّ، وتدعونا للخلود إلى فراشنا بعد انتهاء يوم كرتونيٍّ حافل بالأحداث!

في تلك اللحظة فحسب، تنهَّدت تنهيدة بِعُمق الصُّور والمشاعر والذِّكريات التي مرَّت عليَّ في الرِّحلة. كانت أحاسيسي حائرة، ولم يكن بإمكاني سوى الاستسلام لسطوة الصَّمت، والسَّير بخشوع في جُنبات المكان كي أرى ما سيحدث بالضَّبط.

مضيتُ أنقل خطواتي ببطء وترقب. مشيت في ممر مفروش بِسجَّاد مخملي أحمر اللون، كانت تتخلَّله بعض الزَّخارف الذَّهبية التي نُسجت بعناية فائقة.

كان الممرُّ محفوفًا بجدران قديمة، وشموع مشتعلة، وقلائد مُعلَّقة على نحو لافت، تجعلك تشعر لوهلة أنك داخل أروقة قصر تاريخيٍّ عريق.

في هذه الأثناء، أحسستُ أنني امتلأت بتفاصيل هذه الرِّحلة وتأملاتها العميقة، فصرت أستحضر ما حدث معي من ضياء بدايتي وحتى نهايتي مع الضِّياء فيها، كشخص يعيد مشاهدة مقطعٍ سينمائيٍّ على اليوتيوب.

بدءًا من الأمنية المستحيلة التي كتبتها في دفتر المذكِّرات، ومرورًا بالأحداث المثيرة والأماكن المتنوِّعة والصور المتداعية والذِّكريات المتوقِّدة، ووصولًا إلى القاعات التي أسير في ممراتها في هذه اللحظات.

استحضرتُ في مخيلتي وجوه الأشخاص الذين صادفتهم، والأناس الذين سمعت بقصصهم من مختلف البقاع والأزمان الكرتونيَّة، والتَّأملات العميقة التي سبرت أغوارها، والإسقاطات والمفارقات الواقعيَّة، وكيف أن الذِّكريات السبيستونيَّة لم تُبارح مخيلتي، ولم تُفارق الشارات الغنائيَّة خواطري، وظلَّت الدَّهشة ورائحة القلب الطُّفوليِّ مُلازمة لي في كلِّ خطوة وعثرة، وفي كلِّ خفقة ورجفة، وفي كلِّ محطَّة وموقف.

تساءلتُ بيني وبين نفسي السُّؤال ذاته الذي كان يراودني في كلِّ لحظة من لحظات الرِّحلة: هل ما يحدث معي حقيقة، أم أنه حلم قديم حلمت به ذات زمان؟! هل ثمَّة وجود فعلي لهذا الكوكب، أم أن الطِّفل الموجود بداخلي جعلني أبصر أشياء ليس لها وجود، وأزور أمكنة ليس لها حدود؟!

في غمار هذه التَّساؤلات، وفجأة، لاحت مني التفاتة إلى أحد الجدران فوجدت عبارة منقوشة بشكل لافت، وقد كانت تقول على نحو متسائل: «رحلاتي هل يا تُرى، سأذكرها مهما جرى، أم ستخونُ الذَّاكرة، لتصبحَ حُلمًا مُقفرًا؟!».

فابتسمتُ حينها وقد أحسست أن السُّؤال موجه إليَّ بطريقة ما، فقلت في نفسي كأنما أجبت السَّائل: إلا هذه الرِّحلة، إلا هذه الرِّحلة لا يمكن للذاكرة أن تنساها يا سبيستون!

ولكن، لا أعرف كيف سأسردها للأجيال اللاحقة حينما يسألونني عنها، حيث إن القصص الاستثنائيَّة لا يمكن أن تروى من خلال الكلمات التَّقليديَّة العاديَّة، تحتاج إلى أبجديَّة من نوع مختلف حتى تستطيع وصفها بما يليق بها، ولا يستطيع فهمها إلا من ينتمي بمشاعره إليها.

لهذا، أعتقد أنني سأختصر الأمر برمَّته، وأقول بشكل مقتضب إنني سرت خطوة بخطوة «نحو ينبو.. نحو ينبو.. نحو ينبوع الأحلام» وإن قطب أحدهم جبينه وقال لي مستغربًا: «لم أفهم» سأقول له ضاحكًا: «حسنًا لن أعيد»، فلو كان ينتمي إلى هذا العالم لفهم ما أقول، حتى قبل أن أقول...

بعد مُدَّة قصيرة، وفيما كان الصَّمت ما يزال مُهيمنًا على المكان بطريقة مُريبة، وكنت أسمع صوت وقع خطواتي من فرط الهدوء، وصلت إلى قاعة فسيحة، لم يكن يفصلني عنها سوى بضع درجات محفوفة بدرابزين من النَّوع الأثريِّ القديم.

ثمَّة أرضيَّة لامعة بطريقة ناصعة أخَّاذة. ثمَّة أقواس وأعمدة رخاميَّة فارهة المنظر، وقد نُقشت عليها العديد من الزَّخارف المتشابكة. ثمَّة نوافذ زجاجيَّة طويلة على امتداد السَّقف تقريبًا، تُهفهفُ عليها ستائر رقيقة شفافة مُذيَّلة بالدانتيل الأبيض، بالإضافة إلى العديد من الثُّريات الموزَّعة بطريقة أنيقة، ونُصب سيراميكيَّة وواجهات زُيِّنت بلوحاتٍ زيتيَّة رائعة المنظر.

إنَّ هذه الأمور جعلتني أعود بالذَّاكرة المكانيَّة إلى الوراء، وأشعر أن المكان الذي حللت فيه يشبه إلى حد ما ذلك المكان الذي كانت فيه «إنستازيا» تصول وتجول وهي تفتح ذراعيها وتردد أغانيها الرَّقيقة الشجية!

لا أعرف أين تكون هذه الأيَّام، ولا ماذا حلَّ بها بعد مرور السَّنوات، ولا لماذا لم ألتقِها في هذه الرِّحلة، ولكن ما أعرفه على وجه اليقين، هو أنها جعلت لشهر ديسمبر نكهة استثنائيَّة مُختلفة عن باقي شهور السَّنة.

حيث جرت العادة الموسميَّة الحديثة، وما إن تُقلِّب الرزنامة تواريخها وتحط رِحالها في شهر ديسمبر، حتى تنتعش الأحاسيس، وتدور التَّناقضات، وتستفيق الذِّكريات، وتتأرجح الأحلام ما بين النُّهوض والاحتضار، وتستذكر القلوب السبيستونيَّة، الأغنية الشاعريَّة التي تقول: «داخلي شيء خفي، لكنني لا أتذكر، لحن ما، صوت شجي، أغنية عن شهر ديسمبر»، وكأنما صارت هذه الأغنية من لوازم نهاية السَّنة لدى جيل بأكمله!

مشيتُ بخطوات مُتأسِّفة من فوق الأرضيَّة اللامعة، ومضيتُ حائرًا في دوَّامة من التَّساؤلات:

لماذا لم ألتقِ أحدًا إلى غاية اللحظة؟!

من الذي وجَّه الدَّعوة لي؟!

هل سأعود إلى كوكب الأرض بالفعل؟!

في غمار هذه التَّساؤلات، أفضت بي القاعة الفسيحة بشكل تلقائيٍّ إلى أحد الممرات، فعبرتُ من خلاله بخطوات متهادية، وحَدقتين مُتَّسعتين وقلب خافق ينتظر ما سيحدث معه.

مشيتُ على أطراف أصابعي على الجدار، وبنظرة مُدقِّقة رأيت في إحدى الجُنبات كلمة «المغامرة»، كانت مكتوبة بطريقة بارزة مثيرة للفضول والانتباه.

قطَّبتُ جبيني حينها حائرًا، وتساءلت في نفسي عن المُراد من وجود الكلمة على هذا الشكل!

وخيِّل إليَّ للحظة أنني سأصادف المزيد من الكلمات المُشابهة، فقررت تحليل كلِّ كلمة تصادفني بحسب الواقع السبيستونيِّ الذي نعيشه.

أعدتُ قراءة الكلمة، وقد أحسست أن حالنا عندما علقنا في عالمنا الواقعي وجربنا حياة الكبار، يشبه حال «أبطال الديجتال» حينما وجدوا أنفسهم عالقين في متاهات العالم الرّقميّ ووحوشه، حيث كنا نردد وقتها: «نحنُ في وجه المخاطر، نحتفظ بهدوء أعصابنا نُغامر»، ولكن ربَّما وصلنا اليوم إلى مرحلة صرنا نغامر فيها بكل ما تبقى في داخلنا من صحة نفسيَّة وسلام شعوريٍّ، نُغامر بكل ما تبقى في داخلنا من حياة في سبيل أن نكمل الطَّريق إلى نهايته...

مشيتُ بعدها بضع خطوات، وقد صدق حدسي قبل لحظات، حيث قرأت حينئذ كلمة:

الأمل بالطَّريقة ذاتها التي كُتبت فيها كلمة «المغامرة»!

ابتسمتُ ابتسامة باردة، وقد انتابتني مشاعر بائسة، جعلتني أقول في نفسي: «الأمل؟! قد تبدو كلمة ضبابيَّة في قاموس الجيل السبيستونيِّ، وربَّما لم يعد لها البريق ذاته كما كان في السَّابق، وأخشى أن الأمل لم يعد طريقًا في الأصل حتى نَحياه، فنحن لم تتعاون أي قطرات داخل قلوبنا المنهَكة الشَّريدة، ولم نستطع نسيان الحزن شوقًا للغد الأفضل!

ضِعنا في عالم الأرقام بالفعل، أرسلنا ألف نداء إلى قاعدة الديجتال الموجودة في عالمنا.. انتظرنا أي شخص يلبي النِّداء ويهب لنجدتنا، ولكن لم يستجب أحد للنداء، لم يستيقظ صنديد من سُباته، ولم تنهض العنقاء من رمادها، فيا ليتنا لم نُفرط بالأمل في عالم غريب المعالم»!

يا ليت عيوننا لمعت بقدر ما سمعنا رشا رزق وهي تقول: «قد لمعت عيناه»، ويا ليت قلوبنا غُسلت وتطهَّرت من شوائب الأسى، بقدر ما سمعناها وهي تردد: «إن فاضَت من عيني دمعة، غَسَلَتْ من قلبي أحزاني!».

تنهَّدتُ وواصلت السَّير في الممر على مضض، وقد شككتُ لوهلة أن لا أحد في المكان غيري. انعطفتُ إلى اليسار بشكل إجباريٍّ، ومضيتُ حينها أبحث عن بقيَّة الكلمات المتسلسلة، إلى أن استوقفتني كلمة «الأحلام»!

في تلك اللحظة، استشعرت حقيقة حزينة، وهي أنني صرتُ زاهدًا في كثير من الأحلام التي كنت أناضل من أجلها، بعد أن تحوَّلت إلى كوابيس تَحوم حول وسادة المستقبل، وفي الوقت ذاته، خطر لي أن بعض الأحلام لا تنتهي صلاحيتها، بل تزداد مع مرور السَّنوات، وتصبح الحياة بأكملها..

فيما مضى كان «حلمي الصَّغير أن أحيا بسلام، في بيت تصحو بزواياه الأحلام، يعبق بنسيم الحب، يغسل الأيَّام». ولكن هذا الحلم لم يظل صغيرًا كما كنت أتصور، بل تعاظم وربَّما صار الحلم الوحيد الذي يراود أجفاني، ولا أريد شيئًا أكثر منه، فأصوات الأحباب وحدها هي من تحطِّم جدران الحزن، وتختار الفؤاد ملجأ لما تبقى من أيَّامها في رزنامة هذا العُمر.

واصلتُ السَّير في الممر مغمورًا بهذه المشاعر الشفيفة، وقد رحت أطالع الجدار بحثًا عن الكلمة التي تليها. تتالت الخطوات وما هي سوى وهلة حتى قرأت كلمة «المواساة» منقوشة على إحدى الزَّوايا.

ضيَّقتُ عيني وتسمرت في مكاني لحظة من الزَّمن، تحيَّرت بشأن هذه الكلمة، ولم أعرف ما الذي يتعيَّن عليَّ قوله في هذا الصَّدد.

ولكن، ما كان مؤكدًا بالنِّسبة إليَّ، هو أننا سنظل ممتنين لسبيستون على أنها ما زالت تواسينا بطريقة حانية، فما تزال كلماتها سارية المفعول بطريقة عجيبة، وكلما أظلمت الدنيا سمعناها تقول: «لا تبالي فستشفى الجراح، وظلام الليل لن يطول»، وكلما ساءت الأمور وشعرنا أن الأرض توقفت عن الدوران، همست في مسامعنا: «لا بد من ريح تُبدِّد الغيوم، والشَّمس في إشراقها ستغسل الهموم»، وكلَّما ترقرق الدمعُ في محاجِرنا هَدهَدتْ على حُزننا وقالت مُواسية: «لا تبكِ يا صغيري، لا انظر نحو السَّماء، من قلبك الحريري لا لا تقطع الرَّجاء».

وكلما أحسسنا بالهزيمة في ملاعب الحياة، وأن لا مجال للاستدراك وقلب النَّتيجة، هتفت مُشجعة لنا: «امسحوا دموع الخسارة فالنَّصر لصاحب الجدارة، هيَّا هيَّا قفوا من جديد، هيَّا قولوا النَّصر نريد» وكلما شعرنا باستحالة العوض قالت لنا: «عندما تُعطي الأيَّام، تُعطينا وبسخاء، تنسينا كلَّ الآلام، تملؤنا بالأحلام، تمسح عنَّا الأوهام» وكلما توعَّكنا في دروب العمر، عاونتنا على النُّهوض والاستمرار، وهي تدعو لنا بصوت مفعم بالدفء والحب والاطمئنان: «دُمتم، دُمتم، دُم، دُدُم، دُدُدُدم، دُمتم سالمين»!

بعد لحظات، وفيما كانت المشاعر مختلطة، وبينما ما يزال الهدوء مهيمنًا على الأجواء ألفيتُ جدارًا عريضًا يختلف عن بقية الجدران التي مررتُ بها في الممر، دنوتُ منه وأنعمت النَّظر، فإذا بمجموعة من الأسماء منقوشة عليه بطريقة متناسقة:

زياد الرِّفاعي، سامي كلَّارك، هالة الصَّباغ، مروان فرحات، عاصم سكر، عنان الخيَّاط، أيمن السَّالك، مأمون الرِّفاعي، يحيى الكفري، بثينة شيا، رأفت بازو، أمل حويجة، عادل أبو حسون، إنجي اليوسف، سمير قصيباتي، حنان شقير، سمر كوكش، آمال سعد الدين، وغيرها العديد من الأسماء الكثيرة التي أعتذر من مقامها لأنني لم أستطع إحصاءها...

إنما ابتسمتُ وقتها بشكل تلقائي، فهذه الأسماء جميعها تحمل نبرات صوت خالدة بالنِّسبة إلى الجيل السبيستونيِّ، نبرات صوت تزرع فينا الغصَّة والحنين نحو الماضي كلَّما سمعناها تنشد أو تدبلج أو تتحدث أو حتى تتنحنح!

على مبعدة خُطوات معدودة، برزت أمامي صورة سيِّدة تُطالعني بنظرات أليفة. خفق قلبي حينها، وبشكل فوريٍّ ارتسمت ابتسامة مُمتنَّة، ومضيتُ أتأمل تفاصيلها وقد قلت في نفسي:

على ما يبدو، مهما مرَّ الوقت في تقويم السَّنوات، ستظل «رشا رزق» تُزيِّن مسارح الأيَّام بخصلات شعرها الشقراء، وملامحها الطُّفوليَّة الهادئة، وروحها الحماسيَّة المُشتعلة، وحنجرتها الذَّهبية التي تسكن فيها أروع الذِّكريات، وتُقيم في صدرها أروع المشاعر التي أحسسنا بها ذات زمان مفعم بالبراءة والحُب والسَّلام.

صافحتها بعيني، ثم مضيتُ..

تابعتُ السَّير في الممر متوقعًا الصُّورة التي قد تصادفني بعد حين، وبالفعل، ما هي سوى لحظات حتى أطلَّت أمام عينيَّ صورة ضخمة داخل برواز ذهبيٍّ، وقد خامرني أن هذه الصُّورة هي مسك الختام لسلسلة الصُّور التي رأيتها والأسماء التي مررتُ بها!

كانت الصُّورة تضُمُّ العائلة المميزة التي صارت تجوب البلاد لتصدح بألحانها الطُّفولية الغناء، وتحافظ على ما تبقى من عَبق المشهد الكرتوني والإرث السبيستونيِّ النَّفيس.

قلت في نفسي حينها:

ما أروع ذلك المسرح الذي يقف عليه «طارق العربي طرقان»، بصوته العذب الرَّخيم، وكلماته الفصيحة السَّامية، وإطلالته الرَّائعة التي تشبه أصالة الزَّمن المفقود..

وما أحن ذلك الدفء الموسيقي الذي يطوِّق روح «تالة»، ويُغازل شغاف قلب «ديمة» ويصافح وجدان «محمد»، ويطرق أبواب قلوبنا من خلال كلمات وموسيقى أبيهم «طارق»، ليشكل جوقة متناهية الإبداع والجمال، تليق بصفحات الذَّاكرة، والفصول الأولى من الحكاية الكرتونية!

نزعتُ عينيَّ بالكاد عن الصُّورة، لأجدها بعد لحظات متشبثة بعبارة مزخرفة بطريقة فاتنة على أحد الجدران.

كانت العبارة تقول: «من يعرف كيف يكون، محبوبًا بين النَّاس، يسعى ويحاول نشر السَّعادة؟! من يحلم بالوصول، لقلوب جميع النَّاس هو من يعطي الطِّفل الإفادة؟!».

خفق قلبي حينها، ومضيتُ أعيد العبارة التي كنت أسمعها منذ الصِّغر دون أن أعرف المعنى العميق الذي يكمُن في حروفها.

فاض قلبي بالحب الكبير، وامتلأ صدري بالامتنان العظيم، ولا سيما بعد أن حطَّت عيني على كلمة «الامتنان» التي كانت على مقربة منها.

لا ريب أننا سنظل ممتنين لسبيستون على هذا الإرث العظيم الذي تركته في نفوسنا، على الطُّفولة الذَّهبية التي مَنَحتْنا إياها والنُّمو التَّدريجيِّ الاستثنائيِّ الذي حظينا به، على أنها كانت تغير القصص بما يلائم ثقافتنا العربية ومبادئنا الإنسانية، على فلترتها للمشاهد التي لا تناسب أعمار طفولتنا، وحرصها على تهذيب نفوسنا منذ الصِّغر، علــى أنها جَعلتنا نحترمُ اللغة العربية ونعتزُّ بها بطريقة تليق بمكانتها، على أنها صَنَعت شخصيتنا بطريقة واعية مختلفة، على أن رسائلها ما تزال راسخة في صدورنا، وما تزال نصائحها وشاراتها سارية المفعول إلى هذه اللحظة الرَّاهنة.

سنظل ممتنين لها على أنَّها كفلت لنا أن يبقى الطِّفل بداخلنا حيًّا لأطول فترة ممكنة، وأن تظل الطُّفولة فينا صامدة على الرغم من شيخوخة الأيَّام، ولعلَّ هذا هو سرُّ الحياة السِّحريُّ، وهذا هو قمَّة النُّضج، أن نحافظ على روح الطُّفولة، من أول فصول الحكاية إلى آخر صفحة من صفحاتها.

في أثناء ما كُنتُ أقول لنفسي هذا، برزت أمامي وبشكل غير متوقع كلمة «عِتاب». أطرقت حينها وتسمَّرتُ في مكاني، وللحظة من الزَّمن، تحيَّرت فيما عليَّ أن أقوله في هذا الصَّدد.

حاولتُ تجاهل الكلمة ومواصلة السَّير لسبب لا أعرفه. ربَّما كنت وقتها لا أريد أن أخدش جدار النُّوستالجيا النَّاصع الموجود في ضواحي الذَّاكرة العتيقة، ولكن، وفي لحظة واحدة، استدركتُ تجاهلي وقطَّبتُ جبيني، إذ تذكَّرت الحياة الأرضيَّة المثقَلة بالألم والخيبة والانكسار.

استحضرتُ الأيَّام التي تعصرُ قلبي على نحو فظيع، ومضيتُ شيئًا فشيئًا أسترجع كمية الأحداث المريرة التي صارت معي، قبل أن أطلب مغادرة الزَّمن التَّقويميِّ، واللجوء الخياليِّ إلى هذا الكوكب!

وفي لحظة إدراك تام، فطنتُ إلى أن العودة إلى كوكب الأرض أمر حتميٌّ لا فرار منه، ولهذا، علينا أن نعيد حساباتنا وننظر إلى الحياة بمنظار آخر، ويتعيَّن علينا تقبُّل قسوة الحياة الواقعية ومعطياتها، على وردية الحياة الكرتونية التي تربينا عليها!

إننا تائهون جدًّا يا سبيستون، أصبحنا مثل يويو يتأرجح ولا يعرف ما يريد. مُتعَبون من أدق التَّفاصيل، ومُستنزَفون من أبسط الذِّكريات. نعيش في زمن لا يُشبهنا ولا يُشبه أغانيكِ، ومثلما نحمل لكِ كمية عارمة من الحب والامتنان، فإننا نحمل في داخلنا عتبًا كبيرًا عليكِ!

نعيش الآن ألف عُقدة نقص بسببك يا سبيستون؛ لقد منحتِنا طاقة هائلة تمكِّننا من عيش أكثر من هذه الحياة المتاحة التي نعيشها، جعلتِنا نملك قلوبًا طيبة رقيقة لا تصلح للاستخدام في هذا الواقع القاسي المرير.

لقد تورَّطنا برهافة الإحساس وروح الطُّفولة، نعيش ألف شعور من الاغتراب، وليس لدينا قدرة على التَّأقلم مع الأجيال المختلفة، ولا نستطيع تحمل كمية القبح الموجودة في الواقع!

لقد جَعَلتِنا نُفرط بالعاطفة، والحساسية، والأحلام، والطُّموح والآمال، والأمنيات، والإخلاص، والوفاء. رَفَعتِ سقف توقعاتنا لهذه الحياة بطريقة مُوجعة، وصرنا لا نقبل بأشباه الخيارات وأنصاف الحلول!

جَعلتِنا نتشبَّع بمفاهيم الخير والحب والعطاء والعدل والإنسانية والعائلة والصَّداقة والتَّسامح والوفاء بطريقة لا تتناسب مع هذا الزَّمن، ودون أن تمنحينا حصانة كافية، ومناعة قوية ضد الخيبات والانكسارات والأيَّام السَّوداء.

جَعلتِنا نقدِّس قيمة الحب في عالم جاف قبيح لا يفهم لغة النَّبضات، ولا يترجم معنى العناق، ولا يستوعب كمية المشاعر التي نعيش على قيدها، فتكاثَرتْ أشباح الغربة في حُجرات صدورنا، وتكالبت جيوش المخاوف على حدود قلوبنا!

لقد برمجتِ عُقولنا على أن تنتهي القصص بشكل سعيد، ويعيش الأبطال بسلام ووئام، وأن يُكافأ طيب القلب في نهاية المطاف، وأن المجرم ستوقفه الشرطة مهما فشلت الخطط، وأن الشر مهما استبد وتغطرس سيبقى في المغيب..

رأينا الحقيقة خلف البصر، فكانت حقيقة مريرة ليس منها مهرب، ذلك أن كوكب الأرض لا يشبه الكواكب السبيستونيَّة الملونة التي كنَّا نزورها ذات زمان.

حيث رجال العصابة لا يختبئون خلف الجسور، ولا يُوجد من يُقاتل بنبل، ولم نعثر على ما يُسمى عهد الأصدقاء، ولم نر طائرًا مُشرقًا يُحلِّق في سمائنا، لم نتمشَ في الدروب ونحن نردد لحن الحياة كما نريد، ولم نعِش حكايات ما أحلاها ولا ما يحزنون!

لم يزرنا طيف الحب الذي لا ينام، وازددنا خشية من صدمات الأيَّام، حيث ظلت الأيَّام كمياه راكدة أكثر مما تصورنا، ولم ترجع قلوبنا أعشاشًا للأطيار، ولم يبادر أحد بالاعتذار عن الزَّلل، ولم نستطع أن نُبحر من جديد!

لم نستطع أن نكتب الدموع والأحزان في كتاب ليس له عنوان، بل صار عنوانه يتشكل من عناوين الفصول في حياتنا بطريقة مأسَاوية لم نتوقعها، وصرنا على نحو غريب نشبه الدودة الخضراء «دودي» وهي تعاني تعاسة حظِّها عقب كلِّ محاولة وبعد كلِّ موقف.

لم يستطع الرَّابط العجيب أن يربط بين كلِّ التَّناقضات التي نشعر بها، ولا الأحداث المبعثرة التي تحدث في كلِّ زاوية من زوايا المشهد الذي نعيش فيه، إنها أكبر من قدرتنا على الرَّبط والتَّحليل، وأعظم من طاقتنا على الاستيعاب والتَّأويل!

لقد تَعِبنا ونحن نتحامل على أنفسنا ونُردد بكل مُكابرة: «لو سرقت منَّا الأيَّام قلبًا معطاءً بسام، لن نستسلم للآلام». لقد جفَّ ريقنا ونحن نتوسَّل كوكبنا ونهتف باستجداء: «دوري يا أرضنا الحلوة دوري كي يلتقي الأطفال دومًا، ويشرق الحلم دومًا بالآتي، دوري».

فأين هي الوعود السَّخية التي كُنتِ تعدينا بها على الدوام؟! أين هو المستقبل الذي نحن شبابه؟! أين هي الأضواء الموجودة في آخر النَّفق؟! أين اختفت تلك الآمال التي كانت تسير قبلنا؟! أين هو الزَّمن الوديع واليوم القريب الذي سيبتسم لنا؟! أين هي التَّنهيدة التي سنقول بعدها: «وفي النِّهاية الصَّعب هان»؟! هل خدعتِنا يا سبيستون؟! أم أننا ندفع فاتورة تلك الطُّفولة الرَّائعة؟!

ربَّما لا أحتاج إلى إجابات بقدر حاجتي إلى طرح التَّساؤلات كي أخفف من حمولة صدري المُثقل، ومع هذا، أعلم أنك ستجيبين، ولكن لا يمكنني التَّكهن بما ستقولينه.

ذات يوم، انفَصَلت القائدة روجينا عن هزيم الرَّعد، واضطرتْ بعدها إلى مواجهته في لحظة مصيريَّة حاسمة لتحديد مُستقبل المجرَّة، وقتذاك، وقبل أن تُلقي بنفسها في الفضاء المُلتهب، قالت له والدموع تنهمرُ من عينيه: «يجب أن تبتعد عن الأشياء القديمة حتى تبني عالمك الجديد، حتى وإن كُنتُ أنا يا هزيم الرَّعد».

لعلَّك ستقولين لنا الشيء ذاته بعد أن عرفتِ كمية المعاناة التي يعانيها شبابك بسبب تعلقهم الهستيريِّ بك، وانفصالهم عن مجريات الواقع الذي يعيشون فيه، وحاجتهم إلى أن يعيشوا مرحلة عنوانها التَّعافي وعيش الحياة بمنطقية بعيدًا عن أطلال الذِّكريات..

ولكن سأخبرك أن هذا لن يجدي نفعًا الآن، فلا مهرب من ذكرياتك مهما حدث يا سبيستون، لقد تورطنا بك وانتهى الأمر، لن ننسى لحنًا شجيًّا رنانًا، وحتمًا سيظل نشيدك مدى وعهدك صدى أكثر مما تتخيلين!

ستبقى رائحتك عالقة في ثياب مشاعرنا لتذكِّرنا بالزَّمن العطوف الجميل، ستظل تهتف في مسامع الطِّفل الموجود بداخلنا كلَّما حاول الانزواء والهروب: «حولي دُر مثل القمر، ثم عُد إليَّ بشعاع الحرير، هيَّا انطلق مثل شهاب مَر، وارجع ليد أنت لها أسير».

ستظلين تتلاعبين بمنسوب الأدرينالين الموجود في أعماقنا كلَّما سمعنا مقطعًا موسيقيًّا من أغانيك، أو شاهدنا مشهدًا واحدًا من برامجك، وسنظلُّ في أعياد ميلادك نردد: «أصحابي مسرورون، ولأجلكِ مُجتمعون، نَتمنى أن تبقي بخير يا سبيستون»، وسنهتفُ من صميم مشاعرنا في كلِّ ذكرى: «بجوارك باقون»، وكأنما نجدد العهد بيننا وبينك، بأن نظل أطفالك للأبد، أن نظل أطفالك حتى لو صرنا شباب المستقبل!

لعلَّني الآن أبدو متناقضًا في مشاعري الحقيقية نحوك، ولكن هذا المنطقي في حضرة فلسفة الانفصام، ولغة الخيال، ومناغاة الطُّفولة والخصام مع الواقع، أن نظل حائرين بين طفولة قلبنا وشيخوخة عقلنا، بين اللهفة القديمة والدَّهشة الجديدة التي نحاول صُنعها من أجل مواصلة الحياة.

ولأننا ننتمي إلى قصص الطُّفولة، لعلَّ قدرنا المكتوب علينا هو أن نعيش هذه الحياة مثلما كانت تعيشها أليس في بلاد العجائب، أن نظل متحيرين بالحجم المناسب الذي يجب أن نكون عليه في كلِّ موقف، أن يلتبس التَّوقيت علينا ولا نعرف إلى أي الأزمنة ننتمي على وجه التَّحديد، أن نُفرط في الخيال ولا نُقدِّر المسافات الصَّحيحة بين حدود عالمنا الذي نشتهيه، وحدود العالم الواقعي الذي نعيش فيه، أن نحاول التحكم بمنسوب الطفولة بداخلنا، أن يرتفع وينخفض في الوقت المناسب، لا لشيء إلا لنواصل السَّير بأمان في دروب هذا العمر المفخخ بالغرائب والخيبات، والمحفوف بالمجهول المخيف.

في غمار كلِّ هذه الأفكار الكثيفة والمشاعر العميقة، وبينما كُنت أسير في الممر، وفجأة، تناهى إليَّ صوت منبعث من آخر الممر، خفق قلبي حينها، وظللتُ أستمع لصدى الصَّوت الذي ظلَّ يتماوج في الأثير لبضع ثوانٍ.

مشيتُ بخطوات واسعة واتجهت نحو الصَّوت، وقد صار الطَّريق يتلوى كأفعى لا نهاية لطولها، وللحظة من الزَّمن خيِّل إليَّ أن الصَّوت المنبعث هو صوت آلة موسيقيَّة، ثم بدا لي أنه صوت فتاة تغني غناءً مفعمًا بالشجن والحنين.

خمدَ الصَّوت للحظات..

ولكن مع هذا، ظللتُ أسير حتى وصلت إلى آخر الممر باحثًا عن الشخص الموجود في المكان، وفجأة، وفي تلك اللحظة الزَّاخرة بالإثارة والدهشة، شهقتُ في داخلي، وقد وجدت نفسي في قلب مسرح غنائيٍّ واسع، كأنما هو دار أوبرا شاهدتها بمخيلتي الطُّفولية ذات زمان!

ركضتُ ببصري نحو المنصة، فإذا بفتاة تقف في المنتصف وتطالعني بنظرات براقة من خلف نظَّارة طبيَّة، ثم ما لبثتُ أن فطنتُ أنها تنظر إلى ولد يجلس في المقاعد الأولى من المسرح، ولا يظهر إلا الجزء الخلفي من رأسه.

اعتراني الفضول العارم، فدنوت من المشهد بشكل أكبر.

مرَّت لحظات قصيرة تحبس الأنفاس. خفق قلبي أكثر من ألف مرة، صُعقت حين عرفت هوية ذلك الولد، وقد خيِّل إليَّ وقتها أنني عرفت الشخص الذي دعاني إلى هذا الكوكب، وأن المشهد مألوفٌ إلى حد مخيف، كأنما هو حُلم مُستعاد!

ظللتُ فاغر الفاه، مشدوهًا ومدهوشًا أحاول استيعاب ما يجري في المكان، وما يجري في التَّقويم الزَّمنيِّ وإعداداته، وصرت أشعر لوهلة أن جدران المسرح تشبه جدران بيتنا القديم الذي كنت أجلس طويلًا أمام تلفازه..

في غمار هذا الشعور العارم والمُعقَّد، وفجأة، طالعني الولد الذي يجلس في المقاعد الأولى. رفع يده وألقى عليَّ التَّحيَّة بمُنتهى البراءة والسَّعادة، ثم ما لبث أن غمزني بعينه اليسرى، وكأنما ابتسم ابتسامة تشبه ابتسامة افتقدها منذ زمن بعيد.

في تلك اللحظة فحسب، عادت الفتاة إلى الغناء بصوت قادم من مسارح أيَّام الطفولة.

ترقرق الدمع في عيني، وقد تقلَّص حجمي بشكل غريب. سرت قشعريرة في جسدي، وأحسستُ بألف شعور، حين وصلت الفتاة إلى المقطع الموسيقيِّ الذي يقول:

تخيَّل أن الكون لا طعم له أو لون..

أو أن التِّلفزيون من غير سبيستون..

هذا مُحال..

صديقي تعال..

لنشاهد أفلامًا وبرامج للأطفال..

تعال..

صديقي تعال..

لحظات لا تُنسى مع كلِّ الأبطال..

لا تنس أن تبقى مع سبيستون.

**تمَّت..**

**كُتبت في الفترة:**

**2023-2019**

مكتبة
t.me/soramnqraa

انتهت رحلتنا في كوكب سبيستون، انطلق...

つづく

# عَبَرتِ
# ظلّت الذّكرى

حين يرتعش الشعور على أعتاب كلمة (عُدنا)، وحين تتنحنح الأيام لتخبرنا أننا ما نزال أطفالًا، وحينما تُجهش الذاكرة من فرط الحنين إلى زمن لن يعود، ونشعر وقتها بالانتماء إلى عالم الرسوم المتحركة، وشاراته الغنائية الدافئة.

حينما نشعر بالاغتراب في كوكبنا، ونتهجّى فلسفة الأماكن دون جدوى، ونكتشف أننا نملك جوازًا سبيستونيًّا يُتيح لنا السفر عبر الزمن، فنعرف حينها أننا ما زلنا نبحث عن دهشة شاشة التلفاز الكرتونيَّة، وأننا مصابون بمتلازمة عصيَّة على الاستيعاب، وأن ثمَّة غُصَّة تلاحقنا تحت سطوة النوستالجيا وصولجان الذكريات، غُصَّة تهمس في مسامعنا أن أيام الطفولة عبرت، ولكن ظلّت ذكراها مُرافقة لنا على مدى سنوات هذا العُمر.

telegram @soramnqraa

تصميم الغلاف: محمود هشام

9 789779 922966

عصير الكتب

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb